إبراهيم البجلاتي

سيندروم

رواية



اسم العمل : سيندروم
النوع : قصص
تأليف : إبراهيم البجلاتي
الطبعة الأولى : ٢٠٠٩
تصميم الغلاف : خالد سرور
لوحة الغلاف : إبراهيم البجلاتي
الطباعة : مطبعة أتيليه نانتش - المحروسة
الناشر : الدار للنشر والتوزيع
تليفون : ٠٠٢٠١٠١٤٦٤٧٢١
بريد إلكتروني : eddar_press@yahoo.com
www.elddar.com
المدير العام : محمد صلاح مراد
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٦٣٥٤
الترقيم الدولي I.S.B.N : 978-977-6227-83-5

سيندروم

Syndrome

أساطير عائلية

علي وأكثر من علي

يقال أن جدي «علي» (جدي لأبي)، الذي توفي على مشارف الخمسين، لم يُر خلال العامين السابقين لوفاته إلا هاذيا أو رافعا يديه بالدعاء على عمدة البلد الذي استولى على أرضه بطريقة ما. ويقال في شرح هذه الطريقة أن جدي ألم به مرض طويل أقعده عن فلاحة أرضه، فاضطرت جدتي إلى الاستدانة من العمدة المقتدر ـ وهي في الأصل خالته ـ الذي جعلها تبصم على أوراق لا تعرف مضمونها. وحين استعاد الجد عافيته اتجه إلى أرضه. وفي الطريق أوقفه أحدهم، وحمد الله على سلامته، ثم قال له: رايح فين الساعة دي يا علي؟ فأجابه بتلقائية إنه في طريقه إلى الأرض، فقال له صاحبنا: أرض إيه يا علي هوه إنت مش بعتها للعمدة. ظنها علي مزحة ثقيلة وواصل طريقه بقلب منقبض. وحين وصل إلى أرضه بأطراف البلد وجد فلاحي العمدة يعملون بها، وأيقن أنها لم تكن مزحة، فوضع ذيل جلبابه بين أسنانه وانطلق إلى دوار العمدة: خت أرضي يا عمده.. فين أرضي يا عمدة..عاوز أرضي يا عمدة، أطلعه العمدة على الأوراق التي بصمت عليها جدتي وقال له: عيالك كلوا بتمنها وإنت عيان يا علي. كلوا بثمنها يا عمدة، وجن جنونه، وهام على وجهه حتى مات من الحزن.

لكن لا أحد يقول أبدا ما هو هذا المرض الذي أقعد الجد عن الفلاحة فترة من الزمن طالت بما يكفي للاستدانة ومن ثم ضياع الأرض. جدي لأمي، وهو في الوقت نفسه أخ أصغر غير شقيق للعمدة، يقول: **جدك علي الله يرحمه كان راجل طيب وحساس، أقل كلمه تزعله سنة، وكثيرا ما ترك البلد وهج من غير سبب، ولم يكن يرجع إلا بعد أن نرسل في طلبه بدل المرة عشرة، ونطيب خاطرة بكثير من المحايلة والمجاملة والاعتذار عما سلف!!** ورغم أنه لا يوجد من يقول هل كانت هذه النوبات تصيبه قبل ضياع الأرض أم بعد ذلك إلا أنه من الواضح أنها كانت تأتيه من وقت لآخر وقبل ضياع الأرض بزمن ليس بالقصير. ليس لأن هناك من يؤكد أن علي حين أيقن أن أرضه قد ضاعت أصابته «نقطة» ومات في الحال، لكن أيضا لأن الصورة الوحيدة التي يقال إنها له - والتي لا تشبهه، أو لا يشبهها، أي من أبنائه الذكور أو الإناث - والمعلقة على الحائط الغربي بحجرة الصالون في بيت العائلة، داخل برواز بني اللون وعلى يسارها سورة «ياسين» مذهبة وعلى يمينها «أدخلوها بسلام آمنين» مذهبة أيضا، تشير ملامحها إلى رجل تجاوز الستين وليس السابعة والأربعين بافتراض أن هذه الصورة التقطت له قبل موته بعامين مثلا. وإذا تجاهلنا فعل الزمن على الصورة، التي بهت أبيضها وأسودها واصفرت أطرفها، يمكن القول إنها لشخص مسطح الملامح، ممسوح التعبير، إلا من عينين غارقتين في بؤس عبيط كأنه خرج لتوه من جلسة علاج بالصدمات الكهربائية. ولأن الناس في زمنه كانوا إما عاقل أو مجنون، وليس بينهما اكتئابي أو فصامي أو مهووس، ونظرا لمكانة العائلة ومكانة «علي» نفسه

باعتباره كبيرها فإن أحدا لم يجرؤ على وصفه بالجنون. هو فقط رجل حساس زيادة عن اللزوم وسريع الانفعال، وربما كان انطوائيا بشكل ما. وطبعا أنا لا أقصد أن جدي كان مجنونا، لكن المؤكد أنه لم يكن يتمتع بقدر كاف من الثبات الانفعالي ـ وهو ما ورثه عنه أبناؤه الذكور دون الإناث ـ والأرجح أنه كان مصابا بمرض نفسي لا أعرفه.

والغريب في الأمر أنني سمعت هذه الحكاية من بيت أمي، بدلا من المرة عشر مرات، ولم أسمعها أبدا لا من بيت أبي ولا من أبي نفسه. والأغرب من ذلك أن أبي وأخوته كانوا يكنون لهذا العمدة، الذي عمر طويلا قدرا من الاحترام يشكك في الحكاية كلها. ومن جهة ثانية لم تكن أرض جدي هي الأرض الوحيدة التي استولى عليها العمدة بطريقة ما. إذ يقال أنه استولى على أرض جدي لأمي بطريقة أكثر بساطة وأكثر إجحافا من ذلك. فيقال إن أبيه قام بتوزيع ميراثه على أبنائه وبناته في حياة عينه، وأرسله باعتباره أكبر الأبناء بالأوراق إلى الشهر العقاري لتسجيلها، فسجل الأرض كلها باسمه هو. وحين مات الأب لم يجد الورثة ما يرثونه. ويقال إن هذه الواقعة حولت مجرى حياة جدي من الفلاحة إلى التجارة. وتقول أمي إن بيتهم شهد من العز الكثير حتى ضاع العز كله في بورصة القطن، فعاد جدي مضطرا إلى الفلاحة. كانت هذه الحكاية تروى همسا، بكراهية مكتومة في بيت أمي، وكخاتمة كلاسيكية لحكاية أرضنا التي سرقها العمدة الذي لا ينسى الراوي أن يذكر أنه كان رجلا مفتريا. وفي مرة من المرات ـ وكنت قد مللت من تكرار الموضوع ـ كانت أمي تحكي الحكاية للمرة المليون وبنفس التأثر

الشديد كما في المرة الأولى التي سمعتها، ولم أملك كبت ما بداخلي: **يعني عمك كان متخصص في سرقة أرض أجدادي بس، ماسرقش حد تاني، فردت علي وقد أمسكت بي متهكما: أما إنت واد ناقص صحيح وما عندكش دم، قلت لها: يا ستي جدودي ماتوا وشبعوا موت، وعمك مات وشبع موت، وإبنه متجوز أختك، وأخوك متجوز حفيدته، يبقى لزومه إيه حرق الدم ده بقى؟ تربته فين وأنا أروح أهدها فوق دماغه وأصحيه، وأقوله هات أرض أجدادي اللي سرقتها يا عمدة.** لكن هذا لا يمنعها من مواصلة الحكي، باعتباره هدفا في حد ذاته، والتأكيد على ـ رغم أنها لم تكن واعية بما يكفي أثناء هذه الأحداث الجسام ـ أن أرض جدي علي الضائعة كانت أجود أراضي البلد كلها، وأنهم كانوا يسمونها «أرض الجناين»، وأنها كانت مليئة بأشجار البرتقال والليمون والجوافة. وحين قلت لها بأسى مفتعل إنني تجولت في البلد كلها، من شرقها لغربها، ولم أجد أثرا لشجرة واحدة من أي نوع، قالت: أصل العمدة قلّع الشجر وزرعها قطن!!

وعلى الرغم من أن أمي لم تكن بارعة تماما في رواية الحكايات إلا أن جرابها لم يكن خاليا تماما من الحيل، ومن بعض الإضافات أو المحذوفات التي تفلح أحيانا في إعادة جذب المستمع الذي يمكن أن يصيبه الملل من تكرار الحكاية نفسها مرات ومرات. فمرة تضيف أن جدتها ـ التي سميت هي نفسها على اسمها ـ لم تكن تكف أبدا عن الدعاء علي عمها العمدة، وأنها ـ الله يرحمها ـ ماتت غاضبة عليه بسبب أفعاله المنكرة. ثم تحذف هذه الإضافة غير المؤثرة وتدس بدلا منها فقرة أخرى، تعتقد أنها مؤثرة، عن زوجة عمها العمدة «أم علي»

(هذا هو اسمها الرسمي وليس كنية) قائلة إنها كانت امرأة جبارة، امرأة سوء ممتازة، وإنها هي التي كانت تخطط لكل هذه الأفعال وما على العمدة المفتري، وباعتباره أداة طيعة في يدها، سوى التنفيذ. كانت هذه الإضافات تحشر حسب مقتضى الحال، أي حين تكون أمي راغبة في استضافة الماضي لأطول فترة ممكنة، أوحين تدرك بحسها أن المستمع الوحيد ـ غالبا أنا ـ ليس لديه مشاغل أخرى. لكنها ولمرة واحدة فقط أضافت أنه بعد أكثر من ثلاثين عاما مما حدث، وحين انحشر بول العمدة بفعل تضخم البروستاتا لديه، استدعى أبي إلى المستشفى بالقاهرة، وكانت هي حاضرة أيضا، وقال له: لقد أخطأت في حقكم يا سيد أفندي، وأخذت أرضكم زورا، وأعدك وعدا صادقا أنه إذا أفاقني الله من سكرة البنج أن أرد لكم ما أخذت. وطبعا أفاق الله العمدة من سكرة البنج وعاد إلى البلد، وتزوج من شابة مليحة أنسته الوعد. ونسيت أمي أيضا هذه الإضافة فلم ترد في الحكاية بعد ذلك أبدا. وأنا بدوري قلت لها مرة واحدة لم أثنيها إنه ليس من المنطقي أن تؤول ملكية أرض جدي إلى عمها ببصمة جدتي، إلا إذا كان جدي كان قد عمل لها توكيلا، أو أن الأرض كانت باسمها هي، وكلا الفرضين شبه مستحيل بمنطق تلك الأيام. وهي لم تعلق.

هذا هو كل ما يقال عن جدي علي. اختصرت حياته القصيرة في لحظة موته وما قبلها من مرض عضوي أو نفسي لعب دورا رئيسا في ضياع أرضه ومن ثم موته بطريقة مختلف عليها. كأن الرجل لم يمش على الأرض خمسين عاما، زرع خلالها وحصد، صالح الناس

وخاصمهم، خاصم الدنيا وصالحها، تزوج وأنجب ثمانية من البنات والبنين، لم يذكره أي منهم أمامي كأنه سر تم الاتفاق على عدم إفشائه، أو كأنهم كانوا يخجلون من شيء ما، أو ربما يخافون من ذكره وذكراه. لا أعرف، لكن للأسف لم يكن موته من شدة الحزن آخر الأحزان. فقد مات الرجل قبل الأوان، تاركا أسرة كبيرة العدد قليلة الخبرة، ليس أمامها سوى أن تعيد ترتيب أوراقها القليلة: اضطر أبي، وهو أكبر أبنائه الذكور، إلى التراجع عن دخول الجامعة وإلى التمرغ في تراب الميري بشهادة البكالوريا التي كان قد حصل عليها في العام الذي توفي فيه أبيه. توظف أبي في الصعيد، وتولى الأخ الذي يليه في الترتيب، وكان يحمل أيضا اسم أبيه «علي»، فلاحة ما تبقى لديهم من فدادين أو قراريط قليلة كان معظمها في أرض السواد كما يطلقون عليها. أما الباقون فسارت حياتهم كما هي تقريبا: العم التالي في الأزهر، والعم الأصغر يتعثر في جلبابه، والبنات اثنتان متزوجتان واثنتان على وش جواز.

لا يوجد لدينا تفاصيل كافية عن كيف تجاوزت العائلة محنتها، وما نعرفه سنقوله في حينه. لكن يقال إن علي الثاني لعب دورا كبيرا في تماسك العائلة رغم صغر سنه، حيث إنه كان يتمتع بالكثير من الحكمة، وهو ما مكنه من احتواء مشاكل أزواج البنات المتعلقة بالميراث خصوصا. ويقال أيضا إنه تمكن، وخلال فترة قصيرة، من شراء قطعة أرض ملاصقة للبيت القديم المبني بالطوب اللبن، والذي تم الحفاظ عليه كما هو بالضبط، وبناء بيت جديد بالطوب الأحمر يتصل بالبيت القديم بممر ضيق يصعب اكتشافه من قبل أصحاب البيت أنفسهم.

كأن البيت القديم، البيت الذي بناه علي الأول بيديه، عورة يجب إخفاءها خلف «منافع» البيت الجديد. ويقال إن عمي علي أو «علي الثاني» شيد هذا البيت للعائلة كلها، ولكي يتزوج فيه من حفيدة ولي من أولياء الله الصالحين هو الشيخ «علي السقا» صاحب المقام الوحيد في بلدنا والكائن تحت الكافورة الكبيرة في حضن النيل. لكن يقال إن علي الثاني بدأ، وبشكل مفاجئ، يفقد الكثير من وزنه ويهزل بشده خلال أسابيع قليلة. ثم بدأ ينزف من أنفه وتحت جلده (يبدو أنها اللوكيميا)، فمات شابا في الخامسة والعشرين من عمره تاركا زوجة كتب عليها ولم يدخل بها. ويقال إن علي الثاني هذا كان شابا طويلا عريضا، هادئا ورزينا، بهي الطلعة، وأنه كان يجيد غناء المواويل وبصوت يشبه صوت محمد قنديل. **والحقيقة أنه لا يوجد في العائلة كلها ما يؤكد هذا الكلام. فلا يوجد فرد واحد منها، حتى في الأجيال الحديثة، تجاوز المائة وسبعين سنتيمتر طولا، وهم جميعا، بما في ذلك النساء، يمتازون بأجسام نحيلة قليلة خاصة عند الأكتاف التي تبدو محنية إلى الأمام وهو ما يجعلهم يزدادون قصرا وليس طولا. ولا يوجد بينهم شخص واحد يتسم بالهدوء أو الرزانة، وكلهم «راكبهم عفريت»، وروحهم في مناخيرهم طوال الوقت وبدون سبب واضح. وزد على ذلك أنه لا أحد في هذه العائلة يملك أو امتلك يوما أذنا موسيقية، أو صوتا قويا وجميلا مثل صوت قنديل، أو حتى صوت عبد المطلب الأجش. وليس له، مع الأسف، صورة واحدة تؤكد أو تنفي هذا الكلام. وإذا كان ما يقال صحيح فيمكن للواحد أن يقول إن علي الثاني كان طفرة خاصة ووحيدة في تاريخ العائلة. وربما تكون هذه الأوصاف مجرد استجابة عفوية**

لشاعرية الموت المبكر الذي يختار، بقسوة، أجمل أبناء الحياة، حتى إذا لم يكن المرحوم جميلا بالفعل دس الناس عليه من الجينات ومن الصفات ما يجعله جديرا بالموت بدري.

المهم، كان على العائلة أن تعيد ترتيب نفسها من جديد. فقطع العم التالي تعليمه في الأزهر وتسلم الأرض وأكمل بناء البيت الذي بدأه علي الثاني. وبعد وقت ليس بالقصير تزوج امرأة أخيه التي لم يدخل بها، وأولدها أنثى وثلاثة ذكور على رأسهم جميعا «علي الثالث». يقول عمي إنه أسماه عليا إحياء لذكرى أبيه وأخيه، فيما تقول زوجة عمي أنها اختارت هذا الاسم تيمنا بجدها صاحب المقام ربما ينال بركة من بركاته. ورغم هذه الرغبة في إحياء ذكرى الراحلين، وهذه الأمنية النبيلة في حيازة بركة الصالحين، لم يكن أحد يناديه يا «علي» مطلقا، وكان اسمه المعروف لنا ولغيرنا هو «علاء». حتى أمه لم يكن في البلد كلها من يناديها باسمها أو بـ«أم علي» بل هي حتى يومنا هذا «أم علاء»!!

المهم، جاء «علي الثالث» تركيبا مذهلا من العائلتين فعلا. فهو يحمل جسد عائلتنا القصير النحيل، ورأس عائلة «السقا» المربعة. وطبيعي أن يركب الرأس الجسد. وطبيعي أن يركب علي الثالث رأسه الكبيرة المربعة. هو أكبر مني بسنوات قليلة ورغم ذلك فحضوره في طفولتي باهت لدرجة أني لا أذكر سوى أنه كان يعيش في دور الكبير وفق تعاليم السيدة الفاضلة عمته «سنيه» التي ربته بنفسها، والتي ربما يأتي ذكرها في حينه، وقد لا يأتي أبدا. أذكر أن صوته كان يخرج من أنفه، وأنه كان

يبدو دائما «قرفان» من شيء ما أستطيع الآن أن أخمنه. لكن المؤكد أنه لم يكن يعرف طريق غيظهم. والذكرى الوحيدة الباقية له عندي من أيام الطفولة هي مشهده المضحك ملفوفا في علم أخضر، راكبا حصان الخليفة وتحيطه رايات كالحة بلا لون، في مولد جد والدته صاحب المقام. كان الاحتفال هزليا وهزيلا إذا ما قورن بالموالد الصغرى مثل مولد الشيخ ضرغام أو مولد سيدي أبو دبوس - وليس المولد الكبير للشيخ حسنين بالطبع - في ضواحي مدينة المنصورة. لكن يبدو أن علي الثالث، ومثلما عاش دور الكبير في صغره، عاش في كبره دور الخليفة فعلا. لم يكن مشهودا له بالذكاء أو التفوق، لكنه كان مصرا على دخول كلية الطب أسوة بابن عمته التي ربته بطريقتها. لكن في الثانوية العامة لم يكن مجموعه يؤهله لدخولها. وقرر إعادة المحاولة فحصل على المجموع نفسه بالضبط، مع مراعاة التشابه المذهل في توزيع الدرجات. ودخل كلية التربية قسم طبيعة. قضى «علي الثالث» عامه الأول في الجامعة في بيتنا، وكان كارثة بكل المقاييس. لم يخل علي بنظام البيت المختل أصلا، لكنه سرعان ما أطلق لحيته العنزية، وظلت أصابعه تلعب فيها ليل نهار، لعلها تدلول أكثر أو تصبح أكثر انتشارا على أرض لحيته الجرداء. وملأ البيت بروائح المسك الرخيص، وبأدعية دخول المرحاض والخروج منه، ناظرا إلى الأرض طالبا من أمي وأخواتي تغطية شعورهن المكشوفة. كان هذا في النصف الثاني من السبعينيات. وهو ما أقلق أبي بشده، وطلب من أخيه صراحة أن يتصرف لكن عمي لم يفعل، أو حاول ولم يقدر. وفي صيف ١٩٧٧، كان عمي قد نجا في

الشتاء من نزيف حاد وقوي من دوالي المريء، وكان يعتمد على العسل في إفطاره مثل أبي الذي أرسل له برطمانا يحوي أربعة كيلوجرامات من العسل الأبيض مع علي الثالث. **وتصادف أن ذهب أبي إلى البلد في مناسبة من المناسبات، وبات هناك، وفي الصباح جاءه الإفطار دون عسل، فسأل أين العسل، فقال عمي الذي كان يفطر مع أبي أنه ليس عندهم عسل، فقال أبي: لحقتو تخلصوا أربعة كيلو عسل في أسبوعين، قال عمي: أربعة كيلو منين؟ ده إحنا لنا شهرين مافيش ولا نقطة عسل في البيت، قال أبي: إزاي يا عبد الخالق أنا مش باعتلكم أربعة كيلو مع علاء من أسبوعين، هوه فين؟ يا علاء يا علاء فلم يرد، ونادي عمي عليه يا علي يا علي فجاء، فين يا بني العسل إللي أنا بعته معاك؟ فتح علي دولابه الخاص، مترددا وخجلان، على حسب وصف أبي وهو يحكي لنا الحكاية، وأخرج منه البرطمان لم ينقص إلا قليلا. وهنا هاج أبي وماج ولعن علي وإللي خلفوا علي، واصفا إياه بالأنانية وقلة الدين، ونعوت أخرى كثيرة قبل أن يدفع المائدة بقدمه ويخرج من البيت غاضبا وموجها كلامه لعمي: الواد ده مايجيش البيت عندي تاني.**

المهم، في العام نفسه، صار لعلي الثالث درس أسبوعي في جامع جده لأمه، وصار يؤم الناس في الصلاة. لكن، وقبل أن ينتهي العام نفسه عاد «الثالث» في منتصف أحد الأسابيع إلى البلد، ومعه فريق من «الأخوة»، وهدموا الضريح فوق دماغ صاحب المقام، فنال البركة التي تمنتها له أمه كاملة. صحيح أنها خاصمته لمدة، لكنها صالحته عندما تبين لها أنه ليس خليفة جدها فقط بل ولي جديد يعالج الناس بالقرآن، ولا يذكر اسمه إلا مسبوقا بـ«بمولانا»، وهو ما كان يغضبه،

أو الشيخ علي وهو ما كان ومازال يسعده. وهو الآن مولانا أو الشيخ علي، مدرس فيزياء تم تحويله إلى وظيفة إدارية، حليق اللحية، تحبسه الحكومة أيام الانتخابات وتطلقه بعدها، وزوجته منقبة، وهو أب لثمانية بنات وتاسعهم، وآخر عنقودهم، ذكر اسمه عبد الرحمن.

تزوج عمي الأصغر متأخرا - بفعل فاعل - ورزق ببنت أولا، مثل أبي، ثم رزق بتوأم غير متماثل، أطلق على واحد منهما اسم محمد والثاني ياسر. كان ياسر ولدا جميلا وهادئا وذكيا، بياض بشرته وشعره الأسود الفاحم، لم يكن فقط مفارقا لسمرة توأمه، لكنها أيضا ملامح غير مألوفة في عائلتنا بما يجعلني أعيد النظر في موقفي المتشكك مما يقال عن جمال ووسامة «علي الثاني». وأصبحت زوجة عمي تعرف في العائلة بـ»أم ياسر». نحن لا نعرف ما إذا كان ياسر أكبر من محمد بخمس دقائق أو العكس، لكن يبدو أنه لم يكن من اللائق أن تكنى مدرسة الفلسفة بـ «أم محمد»!!

المهم مرت أيام وراحت أيام، توترت العلاقات بين الأخوة، لأسباب سترد في حينه، وتفككت العائلة، وفقد أحفاد علي الأول ما يربط بينهم، ناهيك عن تشتتهم بين البلد والمنصورة والقاهرة. وفي النصف الثاني من الثمانينيات كنت أعمل كطبيب مقيم بمستشفى المطرية التعليمي بالقاهرة، وكانت العلاقات شبه مقطوعة بيني أنا تحديدا وبين عمي، حتى بلغني - مع التأكيد علي بضرورة زيارته - أن عمي أصيب مؤخرا بمرض السكر، وهو مرض جديد على العائلة. واتصلت به للاطمئنان عليه فدعاني لزيارته، ولبيت الدعوة. وفي نهاية الزيارة طلب مني أن

آخذ منه عينة دم لتحليلها عندّنا في المستشفى، وفي الصباح التالي مررت عليه، وفعلت. وفي منتصف النهار أبلغته بالنتيجة فطار فرحا بانضباط معدل السكر في دمه، وصار يتفاءل بي كأنني أنا الذي ضبطتُ معدل السكر في دمه ولست مجرد شخص قام بسحب عينة من ذراعه، وإرسالها للمختبر. وأصبحت مهمة دورية مصحوبة بعشاء فخم أو غداء معتبر. لكن سبحان مغير الأحوال. ففي أحد الأيام اتصل بي وهو في غاية القلق والاضطراب، وأخبرني عن نوبات إغماء تصيب «علي»، قلت له «علي» مين، قال لي ياسر يا أخي، قلت له منزعجا: مالك يا عمي، في إيه؟ ياسر مين وعلي مين، قال لي: يوووه، ما هو ياسر هوه علي، اسمه الأصلي علي، وبعدين ده موضوع مش مهم، المهم دلوقتي تحصلني على عيادة فلان، وذكر اسم واحد من كبار أطباء القلب في وسط القاهرة نصحه به العارفون. وفي الطريق إلى وسط البلد كنت أفكر في أمر أعمامي وحرصهم على أن يحمل واحد من أبنائهم اسم جدي «علي». ثم، وزيادة في الكتمان، حرص على إخفاء هذا الاسم - عن الآخرين وربما حتى عن أنفسهم - في الأوراق الرسمية، تماما مثلما يخفون البيت القديم الذي بناه جدي بيديه العاريتين، عن عيوننا نحن أحفاده المباشرين. وقبل أن أستغرق فيما يطال هؤلاء الأحفاد، الذين يحملون اسم جدهم، بعد أن يصر الواحد منهم على فضح السر، واستعادة الاسم الخفي، وصل التاكسي إلى عمارة «ستراند» بباب اللوق، ونزلت.

خلال مرحلة الانتظار في العيادة سألت عمي عن حكاية ياسر وعلي،

قال إنه كان يريد أن يسمي «علي» على اسم جدي وعمي، وكانت زوجته تريد أن تسمي ياسر. فاتفقوا أن يكون اسمه الرسمي علي وأن يكون اسم الدلع ياسر. وقتلاً للوقت راح يشرح كيف كان الولد يعاني في المدرسة من ازدواج الاسم. لكنه، وبعد أن حصل على الثانوية العامة، قرر أن يكون عليا فقط. وهو الآن يرفض بعنف أن يقال له يا « ياسر». ومن ساعتها وهو تعبان، ضيق الصدر، ويغمى عليه عند أقل مجهود. قلت لنفسي ربما لم يحتمل قلبه الصراع بين علي وياسر؟ ومن الجائز أيضا أنه عندما تمكن «علي الرابع» من الإطاحة بياسر، ومن ثم تثبيت موقعه الجديد باعتباره «علي» وفقط، لم يحتمل قلب ياسر الصدمة !! قطع الممرض حبل أفكاري، وأدخلنا على الطبيب الكبير الذي لم يسمع لنا كثيرا، ولم يتكلم كثيرا. ووضع سماعته على صدر علي، ثم عاد وجلس إلى مكتبه، وطلب منا عمل فحص بالموجات فوق الصوتية للقلب، ولم يقل شيئا آخر. بعدها بيومين اتصل بي عمي وطلب مني الحضور لقراءة تقرير الموجات الصوتية ومعرفة ما فيه قبل موعد مراجعة الطبيب المختص. وذهبت. وقرأت التقرير الذي أفاد أن علي الرابع يعاني من تضيق بسيط بالصمام التاجي. وما أن أخبرته بالنتيجة حتى انفجر في وجهي كأنني أنا الذي أصبته بضيق التاجي ولست مجرد قارئ لتقرير طبي. ونزلت من عنده شبه مطرود، وأنا أردد: أما عيلة مجانين صحيح.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها «علي الرابع». لكن طرفا من خبره كان يصلني من آن لآخر. فيقال إنه أنهى دراسته الجامعية في كلية السياسة والاقتصاد بتفوق، وعمل بمعهد التخطيط، ثم سافر إلى

لندن للحصول على درجة الدكتوراه. ورغم هذه الأخبار الطيبة إلا أن الراوي، الذي ننقل عنه هذه الأخبار، يصر على أن «علي» ليس على ما يرام. وإذا سألته: لماذا؟ يتبرم ويرد بإجابات غير مقنعة عن مرض قلبه مرة، وعن صعوبات الحياة مرات. ويفلت من السؤال بابتسامة ليس لها مغزى مضيفا أن الله قد فتح عليه بوظيفة مرموقة في دولة خليجية، وهو ما مكنه من توظيف عدد من أقاربنا هناك. ولأنني أدرك أن الراوي يريد أن يبوح بما يثقل كاهل علي الرابع، ويثقل عليه هو أن يقول، أتعمد تجاهل الإضافة الأخيرة هذه، ناظرا إلى بعيد بطريقة ضاغطة. فيبادر بالقول: يله الحلو ما يكملش. ليه؟ فيجيب في خفوت:عياله، مالهم؟ فينظر إلى الأرض قائلا بصوت أكثر خفوتا: لم يرزق سوى بطفلين يقولون إنهما متخلفين عقليا. قال يعني كانت ناقصة!!

طوال القرن الماضي كنت مشغولا بمطاردة أحلام يقظة لا تنتهي. ولا تسألني ما هي هذه الأحلام لأنني لن أقول. المهم، أنني لم أتخيل نفسي حتى في هذه الأحلام زوجا وأبا. ليس عن قناعة بأن الزواج مجرد مؤسسة واقعية وظيفتها الوحيدة هي سحب الناس من قفاهم وترتيبهم في طابور، وليس عن قناعة بأن إنجاب الأطفال هو إضافة أرقام جديدة لطابور البؤساء القديم جدا والطويل جدا، لكن هذا هو ما حدث. تزوجت متأخرا لأن المرأة الوحيدة التي أحببتها وقررت الزواج منها ظلت تؤجل الموضوع حتى لم يعد التأجيل ممكنا. وبعد أن تزوجت ظللت لفترة - لم تطل علي أي حال - لا أفكر في الإنجاب. وحين فكرنا، أو بالأحرى فكرت زوجتي نيابة عنا، تبين أن هناك عطل فني

يعوق الإنجاب بطريقة طبيعية فاستعنا بالحقن المجهري للحيوانات المنوية. كنا وقتها نعمل معا بالكويت وقضينا الأجازة السنوية الأولى في عيادات الأطباء. ونجحت المحاولة الأولى بمعجزة شرحها يطول، وبشرخ في الثقة لا يجوز شرحه وإن كان لا يطول، لكن ليس هذا هو الموضوع. المهم، ظهرت أعراض الحمل على زوجتي، وبعد شهرين من بدايته هاجمها نزيف خفيف وهرولنا إلى الطبيب. قال هذا مجرد إجهاض منذر. وأجرى لها فحصا بالموجات الصوتية، فتبين لنا أنها كانت حاملا في توأم قرر أحدهما المغادرة مبكرا وترك سلته فارغة، أما الثاني فهو بخير، وعلى المدام أن تلزم الفراش لفترة قصيرة، وكل شيء سيكون تمام. ومرت شهور الحمل التالية هادئة وبدون مشاكل تقريبا اتفقنا خلالها على أنه إذا كان المولود طفلا ذكرا فسيكون اسمه «علي»، ولم نفكر للحظة واحدة أنه من الجائز أن يكون بنتا وبالتالي لم نفكر لها في اسم. رغم أن الجنين في بطنها، وفي كل مرة من مرات المتابعة وفحص السونار، كان يعطي ظهره للطبيب فلا يتمكن من رؤية أعضائه التناسلية ومن ثم تحديد جنسه. على كل حال لم يظهر علينا لا هي ولا أنا ما يدل على الفرح بالحمل، ولا بالنمو الطبيعي للجنين. لم نشتر له أي ثياب، ولم نجهز له سريراً، ولم نفكر في أي شيء يخصه سوى حكاية الاسم. كان هناك شعور داخلي أن في الأمر خدعة ما، أو قل خوف ما من اكتمال المعجزة. اقترب الحمل من نهايته وبدأ العد التنازلي لاستقبال المولود. وفي الفحص الدوري الأخير لم يكن لدى الجنين وقت ليداري أعضاءه، ولم يعط ظهره للطبيب هذه المرة فتمكن بسهولة من التأكيد

على أنه ذكر، وحدد موعدا بعد أسبوعين لإجراء عملية قيصرية وجلب الطفل إلى الحياة. في الطريق إلى البيت قلنا سوف ننزل السوق غدا لكي نشتري ثيابا وسريرا لـ«علي». وفي الغد لم ننزل السوق، ولم نشتر سريرا لـ «علي»، لأن علي في الليل راح يرفس في بطنها رفسا عنيفا متشنجا، تلاه رفس قصير متقطع، ثم سكون أبدي. هرولنا إلى الطبيب الذي اتصلت به فطلب إحضارها فورا. وفي المستشفى وضعت على جهاز لقياس حركة الجنين وظل الجهاز صامتا، وفحصها الطبيب بالسونار فوجد قلبه صامتا، كان الكل مرتبكا، والزميل في حيرة. يدي اليمنى في يدها العرقانة، ويدي اليسرى مضمومة. فردتها ووضعتها على كتف زميلي الذي تمكن أخيرا من الكلام: مات. كانت هي في آخر الحزن، وكنت أنا في آخر الذهول. طلب منا أن نعود إلى البيت ـ على أمل استيعاب الصدمة ـ وأن نعود بعد يومين. كانت طواحين الأسئلة تحيل الإجابات الغامضة إلى مسحوق هش، يحيله الصمت إلى أسئلة جامدة تغذي جوع الطواحين. كان لديها مليون لماذا وكان عندي مثلها. كانت المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى الاسم. لم يكن في بالي أبدا أن أسميه على اسم جدي أو عمي. فقط هو اسم جميل. ثلاثة أحرف صغيرة، ليست نادرة لكنها بهذا الترتيب قليلة التداول هذه الأيام. لم يخطر ببالي أبدا أن تكون هذه الحروف شفرة تفتح باب التبدل. هل يمكن أن يكون اسم الواحد منا شفرة ؟ ولماذا يكون «علي» شفرة تفتح باب التحول الدرامي العنيف أو المميت. لا ..لا ليس الأمر كذلك. أعرف أكثر من «علي» بعضهم ليسوا سوى كوارث متحركة وبعضهم

الآخر بشر عاديين. هل الأسماء شفرات فعلا أم هو مجرد تخريف. إذن لماذا كل علي في عائلتنا كارثة وحده. هل تتصادم شفرة جينات العائلة مع شفرة الحروف الثلاث «علي» ؟ هل تعرف الجينات اسم صاحبها؟ هل لو أطلقنا عليه اسما آخر كان سيبقى حيا ؟ لماذا لم نختر له اسما آخر؟ لماذا ...

لماذا أريتهم أعضاءك يا علي؟

في اليوم التالي تذكرت حكاية «فرج» تاجر الفاكهة التركي الذي تعرفت عليه بمدينة «روان» عاصمة نورماندي الفرنسية. كانت المرة الثالثة التي ألتقيه فيها، وبصحبة نفس الصديق. كانت السماء تمطر بعنف غير معتاد، رغم أنها تمطر دائما، حين فاجأني قائلا بعربيته المكسرة نسبيا: كل إبراهيم مجنون، وأنت مجنون، وجنانك يأتي بالمطر. قلت له كيف؟ قال تعرف كيف كان سيدنا إبراهيم غريب الأطوار حين قرر أن يذبح سيدنا إسماعيل، قلت أعرف، قال تعرف كان في بلدنا واحد شاب غاية في الوسامة وغاية في الثراء اسمه إبراهيم، هذا الإبراهيم وقع في حب مومس، وكانت هي تحب البلطجي تبعها، لكنها سايرت سي إبراهيم وسحبت أمواله واحدة واحدة حتى أصبح على الحديدة، ثم عادت إلى البلطجي. قلت وبعدين، قال وهو ينفخ دخانا كثيفا من أنفه، صار إبراهيم ماسح أحذية يجلس قبالة باب الماخور الذي تعمل به المومس لكي يحظى بنظرة منها. وصار مثلا في اسطنبول: كل إبراهيم مجنون. وأنت يا سيدي كل ما أشوفك الدنيا تمطر، تمطر جامد قوي، وأنت كمان إبراهيم، مجنون يعني، لكن جنانك يجيء بالمطر. قلت

يبدو أن «علي» أخذها من قصيرها، عارفا أن درامية اسمه لا تركب مع جنان أبيه؟

بعد يومين أخرجوه من بطنها صامتا، ولفوه في فوطة عمليات خضراء، ووضعوه في حوض معدني. هل تريد أن تراه؟ قمت إليه ثقيلا وصامتا: كان علي طفلا جميلا نائما، له عينان سوداوان واسعتان كعيني أمه، وله أنفها الدقيق أيضا، وفم صغير مقفول على سر موته المفاجئ والغامض. لم يكن به عيب خلقي ظاهر، ولم يكن مختنقا بحبله السري، فلماذا يا علي؟ كان لابد من تسجيله في دفاتر المستشفى. سألني المسجل هل ولد ميتا أم شهق أولا ثم مات؟ قلت ما الفرق؟ قال إذا كان قد ولد ميتا فلا يجوز أن تسميه، وإذا كان قد شهق أولا ثم مات فيجب أن تسميه. قلت ولد ميتا وأريد أن أسميه «علي»، قال لا يجوز. وراح يسجل في دفتره الكبير وبصوت مسموع : طفل وفاء حسن المهدي .. ولد ميتا.

ستي فريدة

ويقال أن جدتي (ستي فريدة) كانت وراء تماسك العائلة بعد وفاة جدي المبكرة. فأبي كان صغيرا وقليل الخبرة، وفي الوقت نفسه غائبا في الصعيد، وعمي علي أصغر من أبي وبالتالي كان أقل خبرة. ولأنني قد وعيت على الدنيا وستي فريدة مازالت حية وفاعلة، أستطيع أن أؤكد أنها لم تكن ذلك «الوتد» التقليدي الحاسم الحازم الذي يهابه الجميع ويطيعونه دون مناقشة. بل يمكن القول أنها كانت «وتدا رخوا»: قوته في هشاشته، قوته في قدرته الفائقة على تلوين الصوت وترقيقه وغمسه بالدموع. كان صوتها خفيضا، وكانت تأخذ الواحد منهم على جنب وتصب ما تريد في أذنه مباشرة فيصير خلقا آخر (هذا كلام أمي طبعا).

ويقال إن السياسة الثابتة لجدتي تمثلت في عدم تقسيم وتوزيع تركة «علي» القليلة على أبنائه وبناته طالما هي على وش الدنيا. لكن لأزواج البنات مطالب شرعية في هذه التركة، وهم حقيقة لم يقصروا في المطالبة بهذه الحقوق وبطريقة فجة كما يقال. فتم التقسيم نظريا، ولم يتم التوزيع عمليا، وبقي كل الشأن في يدها مقابل وضع أبنائها في خدمة بناتها وأزواجهن من أجل صيانة كرامة العائلة الواقعة تحت الضغط. وهو ما جعل الأبناء يتململون من البنات، باعتبارهن عبئا ووسيلة إذلال،

إضافة إلى تشتيت موارد العائلة المحدودة أصلا. وهو ما جعلهم غير قادرين على شم نفسهم أو الاستقلال بحياتهم، ووضع بذرة انفجار محتمل تحت تماسك هش. كانت ستي فريدة ـ رغم طيبتها الحقيقة ـ هي متخيل العجوز الشمطاء في حكايات التخويف التي تروى للأطفال قبل النوم، ثم أصبحت متخيل ذات الدواهي في ألف ليلة بعد أن كبرت وتعلمت القراءة وقبل أن تحتل واحدة من عماتي هذا المتخيل بامتياز تحسدها عليه ذات الدواهي نفسها. كان لستي فريدة وجه صغير جدا ومكرمش جدا، وجسد ضئيل جدا ومحني بطريقة مركبة داخل جلباب أسود لا تغيره. كانت هيئتها هذه تتناقض تناقضا حادا مع جدتي لأمي أو ستي «سكينة» التي كانت طويلة وعريضة، قوية لا تلبس سوى الثوب الأبيض، والطرحة البيضاء التى يبين من تحتها شعر فضي لامع. أما نظرتها المريعة فكانت قادرة على تثبيت أي شيء متحرك في مجالها. وهذه النظرة تحديدا هي ما كان يجعلني أفر من بيت أمي إلى بيت أبي بعيدا عن الهدوء القاتل في هذا البيت الذي تسمع فيه رنة الإبرة إذا سقطت عفوا على البلاط. وكنا نغيظ أمي ونقول لها أمك بصتها وحشة قوي، فتقول هو انتو شفتوا حاجة، دي كانت لما الواحدة فينا تغلط غلطة صغيرة قد كده تبرك فوقها وماتضربهاش إلا بقالب طوب على دماغها لغاية ما دماغها تشر دم أو القالب يتكسر. عموما لم يكن المظهر الخارجي لستي فريدة هو المشكلة. المشكلة كانت في فمها الخالي تماما من الأسنان، وهو ما يجعل شفتاها، خاصة عند زاويتي الفم، مبللتين دائما باللعاب. وكانت هي مغرمة بتقبيل الأطفال خاصة أبناء «السيد»

الغائبين في المنصورة، فإذا جاءت العطلة الصيفية ونزلوا البلد، أمسكت برأس الواحد منهم بين يديها ونزلت على خدوده بوابل من القبلات ذات الزقزقة الممطوطة بلا آخر. كنت دائما أحاول أن أزوغ من هذا الاستقبال الرسمي، وكنت أنجح في ذلك كثيرا، لكنها بدورها كانت تنتظر اللحظة المناسبة، وعلى غفلة مني، تهجم على رأسي وتأخذها بين يديها، وأنا أرفس وأدب الأرض بقدمي محاولا التملص والتخلص من يديها ومن قبلاتها المبللة على خدي دون نجاح يذكر، حتى تفلتني هي بنفسها. فأمسح خدودي بقرف، وأنا أبرطم بكلام غير مفهوم، فتقول لي قرفان مني يا بن السيد وأرد عليها بغضب: بوستك وحشههههههههههههههه. فترد علي: خلاص خلاص روح لأمك خليها تغسلك وشك، فأقول لها: قلتلك ستين مرة مابحبش حد يبوسنيييييييييييييي، فتقول، وهي تكتم ضحكتها، غور يا بن الكلب غور، فأرد عليها: أهو إنت، فتقول لي: أما أنت واد مش متربي صحيح تشتم ستك، فأقول لها: مش إنت اللي شتمتي الأول، وهنا تأتي أمي من المطبخ، أو من أي غرفة ثانية، وتسحبني من يدي بعنف وتقولي عيب كده، حد يشتم سته برضه، ستك بتحبك. فأمشي مع أمي بينما أسمع جدتي تقول: طالع براوي زي اللي خلفوه، فلا تشغلني حكاية الحب هذه وأسأل أمي: براوي يعني إيه؟ بعدها مباشرة أجري إلى الزريبة بصحبة ابن عم لي، في مثل سني تقريبا، بحثا عن الحمار الأسود المفضل لدى عمي، ولدى الجميع، وامتطاؤه والانطلاق باتجاه الحقول. وتكون هي قد خرجت وراءنا، مستندة على الجدران، وواقفة على باب البيت بانتظار خروجنا من الزريبة على ظهر

الحمار وما أن تلمحنا حتى تزعق: خلوا بالكو من(بن السيد)، انتو عارفين لو جرى له حاجة يجي (بن علي) يفضحنا. ونحن لا ندري لمن توجه ستي هذا التحذير.

لم تكن ستي فريدة تغادر بيت العائلة في البلد إلا لزيارتنا في المنصورة، وهي مرات قليلة على كل حال. كانت تقترب من الثمانين أو تجاوزتها، لا أعرف بالضبط، وتعاني أمراض الشيخوخة العادية، دون ضغط أو سكر أو خلل في الذاكرة. وفي هذه الزيارات القليلة كان أبي يمدها برصيد كبير من مزيج الحديد والراوند الشهير في تلك الأيام. فترصها بعناية في علبة أحذية فارغة وتدسها تحت السرير الذي تنام عليه. وفي كل صباح، وقبل أن تنزل من السرير، تمد يدها وتسحب زجاجة من العلبة، وتفتحها بهدوء وتضعها بين شفتيها، وتمصها مصا طويلا ممطوطا حتى القطرة الأخيرة، كأنها زجاجة عصير قصب بارد، وليس مزيجا كريه الرائحة والطعم. ولاحظنا نحن الذين ننام في حضنها كل ليلة ذلك، فقلنا لأمي التي قالت لأبي فانزعج. وجلس إلى جوارها وقال لها في هدوء غير معتاد: يامه كده غلط، الدكاترة بيقولوا تاخدي ملعقة واحدة كل يوم مش تاخدي القزازة كلها على بق واحد، كده فيه ضرر عليك. فقالت له: جاك هنا يا بن علي، بقالي أسبوع بشرب قزازة ع الريق كل يوم لا شفت مضرة ولا شفت فايدة. وصارت أمثولة. وفي مرة من المرات، تزامنت واحدة من هذه الزيارات القليلة مع موعد الحفلة الصيفية لتعاطي شربة زيت الخروع، المقررة من قبل أبي، من أجل تطهير أمعاء العيال من الديدان والطفيليات والغازات، الخ. كانت

كل عبوات وزارة الصحة تشبه بعضها: زجاجات بنية اللون بداخلها أي مزيج أو أي شربة أو دواء للكحة، المهم أن يكون كريه اللون والرائحة والطعم . أخذت حصتي من الشربة كارها. ولم أفكر كثيرا فيما يمكن أن أفعله بها. تسللت إلى علبة الأحذية تحت السرير، ووضعت زجاجة الشربة بين زجاجات الحديد، وأخذت واحدة من زجاجات جدتي وشربتها أمام الجميع بقرف حقيقي كأني أشرب زيت الخروع مثلهم. بعد يومين أو ثلاثة، وكالعادة مدت جدتي يدها إلى علبة الأحذية، وسحبت منها زجاجة شربتها مرة واحدة دون أن تلحظ الفارق. وكان يوما مرعبا. بعد قليل بدأت ستي فريدة تنادي على أمي بفزع:الحقيني بطني بتتقطع، وديني الحمام. وتغيب في الحمام مصدرة كل الأصوات العجيبة الممكنة. ثم تنادي على أمي في وهن: تعالي يا أم صلاح يا بنتي رجعيني السرير. وما أن تصل إلى السرير حتى تصرخ فيها لألألأ رجعيني الحمام. عشر مرات، أو أكثر. وفي أحد الفواصل القصيرة بين حمام وحمام قالت أمي لجدتي: قلنالك بلاش تشربي الحديد كده مرة واحدة، فقالت لها: ده مش حدييد، قالت أمي أمال إيه، قالت لها ماعرفش بس ده حاجة تانية وأنا مرعوب. وحين رأيت أمي تفتش في علبة الأحذية المستقرة تحت السرير أيقنت أنني انكشفت، وتسللت إلى الشارع. وطبعا عثرت أمي على الزجاجة التي شربتها جدتي في الصباح وشمتها ثم ضربت صدرها بيدها: يا خبر أسود ده زيت خروع، جابته منين دي؟ انتبهت أمي أنني الوحيد الذي لم يصبه الإسهال المعتاد بعد زيت الخروع. كنت أحاول الاندماج في اللعب مع العيال، حين

ظهرت أمي من الشباك، ونادت علي بحسم واضح: إطلع عاوزاك. كان باب الشقة مفتوحا وأمي وراءه، وما أن دخلت حتى قرصتني في مكان تفضله هي (باطن الذراع بالقرب من الإبط) ثم انهالت علي بالشبشب وأنا أتلوى على الأرض. هي تضرب وتقول عاوز تموتها وتجيب لنا مصيبة، وأنا أبكي وأقول والله ماكانش قصدي. كان أبي وقتها في الشغل وحين عاد أخبرته أمي بالواقعة، كانت جدتي قد نامت متكومة في سريرها، اطمأن أبي على أن نفسها مازال يتردد في صدرها، واكتفى من العقوبة بعلقة الشبشب السابقة، ولم يتكلم. وفي الصباح التالي أخذ أجازة عارضة من شغله، واصطحب جدتي إلى البلد. وكانت هذه آخر حفلات زيت الخروع، وآخر مرة رأيت فيها جدتي لأنها بعد شهرين من هذه الواقعة نامت ولم تستيقظ أبدا.

السيد أفندي ومصير البطريرك

ويقال أن أبي، الذي سكن في واحد من البيوت التي ترجع ملكيتها لعبد العال المساعد الرئيس لـ«ريا وسكينة» المشهورتين، لم تطل إقامته في الصعيد. فبعد سنة أو أكثر قليلا من العمل في قنا عاد إلى البلد محموما، بعد أن هاجمته جحافل «الأنوفلس جامبيا» المحمولة جوا، وبرا مع جنود الاحتلال القادمين من السودان وأدغال أفريقيا، وزرعت ملاريا إفريقية معتبرة في دمه. ويقال إنه ظل طريح الفراش شهورا وإن العناية الإلهية وحدها هي التي أفلتته من مصير آلاف راحوا ضحية آخر أوبئة الملاريا العظيمة التي هاجمت أربع مديريات في الصعيد دفعة واحدة في سنة ١٩٤٢. ويقال إنه بعد أن استعاد أبي عافيته وجد له الوسطاء وظيفة أخرى بقلم الحسابات بشركة المحلة للغزل والنسيج. ومرة أخرى، ومثلما يحدث في الأفلام الميلودرامية التي نضحك عليها حين يختار المخرج شخصية ما ويلقي بكل المصائب تباعا فوق دماغها، لم تتحمل رئتاه غبار القطن المتطاير في سماء المحلة، وأصابته حساسية شديدة والتهاب مزمن بالشعب الهوائية، ظل يعاني منه طوال حياته. واضطر إلى مغادرة المحلة آسفا. لكن يبدو أن اعتلال صحته لم يكن الدافع الوحيد لهجر المحلة. إذ يبدو أنه كان يريد أن يكون قريبا

من البلد، حتى يتمكن من ممارسة دوره الطبيعي كرب جديد للعائلة. فاتخذ من اعتلال صحته ذريعة للجوء إلى وزارة الصحة المصرية. وتم تعيينه بوظيفة باشكاتب الوحدة الصحية بمنية النصر القريبة جدا من بلدنا. وأصبح تواجده في البلد دائما أو شبه دائم. وبدأ يتحكم في الصغيرة قبل الكبيرة. ولم يعد بمقدور أحد أن يتصرف في أي أمر من الأمور دون مشورته. ويا ويل من يفعل، أو يفكر في أن يفعل، أي شيء من وراء ظهره. وفي الوقت نفسه لم يكن يبخل على أي منهم، الكبير قبل الصغير، بأي شيء. وتلخص ستي فريدة الموقف بعبارة جامعة: أبوك ما شفتش حد في حنانه ولا في طيبة قلبه، لكن الظاهر أنه ماخدش من جدك علي، الله يرحمه، إلا أعصابه الفلتانة، فكنا نداريه السكات، والظاهر كمان انكو طالعين لأبوكم، جاتكو هنا يا ولاد السيد أفندي.

منذ ذلك الوقت تقريبا أصبح أبي «السيد أفندي». وطوال عمري لم أسمع أحدا من أعمامي أو عماتي أو من أخوالي، أو حتى من فلاحي بلدنا، ينطق اسمه (السيد) مجردا حتى في غير حضوره. الوحيدة التي كانت تستخدم اسمين له كانت ستي فريدة، ففي حضوره هو «السيد أفندي» وفي غيابه هو «ابن علي». ويقال إنه في هذه الأثناء لمح أمي (ولدت في اليوم نفسه الذي ولد فيه أصغر أعمامي) واقفة قدام باب بيتهم، فسأل عنها ـ كأنه لم يكن يعرف من هي ـ وقرر أن يتزوجها. واستقرا لبعض الوقت بمنية النصر. وحين اقترب عمي الأصغر (يصغر أبي بأربعة عشر عاما) من المرحلة الثانوية انتقل أبي للعمل بمديرية الشئون الصحية بالمنصورة لكي يلتحق عمي بمدرستها الثانوية الشهيرة

في ذلك الوقت (مطلع الخمسينيات من القرن الماضي). وحين وصل عمي إلى السنة الأخيرة في التعليم الثانوي المعروفة وقتها بالتوجيهية، ذاكر معه أبي من جديد ودخل امتحانا لمعادلة البكالوريا القديمة بالتوجيهية الجديدة. ونجحا معا، والتحقا بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة: عمي يدرس منتظما، وأبي ينفق عليه ويدرس منتسبا حتى تخرجا معا في العام ١٩٥٨. وتقول أختي، التي ولدت في العام التالي لحصول أبي على الليسانس، إن أبي كان قد تقدم بأوراقه لكلية أو مدرسة الهندسة في نفس العام الذي توفي فيه أبيه، ولم يستطع أن ينتظم في الدراسة بها نظرا للأحداث المذكورة، لكنه ضحى من أجل عائلته، وفضلهم على نفسه، ورغم ذلك كافح حتى الليسانس. طبعا الواحد لا يطلب من أخته دليلا على ما تقول، لكن يبدو أنه غاب عن بالها أن أبي الذي كان يقضي جل وقت فراغه في استذكار الدروس لأبنائه لم يكن يقترب أبدا من الحساب أو الرياضيات بكل فروعها، بل وكان يفرض عليهم الانتظام في دروس خصوصية في هذه المواد. فعلا لم يكن أبي يعرف الفارق بين الجبر وحساب المثلثات وهو ما يشير إلى أن كلية الهندسة لم تكن أبدا في دائرة اهتمامه. أضف إلى ذلك أن التحاق أخي الأكبر بكلية الهندسة لم يلق أي رضا من أبي الذي كان يرغب بشده في أن يصبح كل أبنائه من الأطباء. لكن يبدو أن أختي (هي الوحيدة التي تقول ذلك) قد أطلقت هذه الحكاية لأول مرة في مواجهة ابنة خالتي التي كانت تدرس الهندسة وكان أبوها (صديق أبي من الطفولة) مهندسا أيضا. وحين خلت إلى نفسها، واستعادت ما قالته، أعجبتها

الحكاية، وخيل لها أنها لم ترفع فقط من قدر أبيها وقدر نفسها (كأن الهندسة أرقى من التاريخ مثلا)، بل رفعت من سقف التضحيات التي قدمها أبي من أجل حفنة أوغاد قاطعوه في أخريات أيامه، وبالتالي تزداد المأساة عمقا وتنتقل الحكاية من مستوى الحدوتة التقليدية إلى مستوى درامي كلاسيكي أرقى. وراحت تردد هذه الحكاية على مسامعنا نحن (كأننا لا نعرف) وعلى مسامع بناتها وهن لا يعرفن.

لم يكن عمي الأزهري السابق مجرد فلاح يعزق ويزرع ويحصد، بل كان طموحه يتجاوز ذلك كثيرا خاصة وهو يرى أخويه من الأفنديات المحترمين. لذا ما أن تشكلت الجمعيات الزراعية في العهد الناصري حتى تمسك برئاستها ولم يتخل عن ذلك أبدا. كانت أيام انتخابات الجمعية الزراعية بالنسبة لنا كابوسا. فالوحيد الذي يمكن أن يحول دون فوز عمي هو جدي لأمي. كان رجلا مهابا ومبجلا من البلد كلها وحدث أن رشح نفسه لانتخابات الجمعية ورشح عمي نفسه في مواجهته فسقط عمي سقوطا مهينا. وظلت أمي تتلقى اللوم على ذلك حتى حلت الجمعية، بعدها بسنوات، وأجريت انتخابات جديدة. لم يكن جدي قد رشح نفسه بعد، إلا أن أبي أخذ المبادرة، وشحن أمي إلى البلد شارطا عليها ألا تعود حتى تثني أبيها عن ترشيح نفسه، وهو ما حدث بالفعل، وفاز عمي برئاسة جمعية الكسب والكيماوي.

ثم جاءت أيام أكثر سوادا من ذلك على الجميع. فأبي وأعمامي كانوا، كما قلنا سابقا، سريعي الغضب: كلمة عابرة غير مقصودة كانت كفيلة بإشعال حرائق تدوم العمر كله. وكان أعمامي وعماتي قد كبروا

وأصبح لدى كل منهم بيت وعيال بل وصار للبعض منهن أحفاد. وصار البعض منهم يتصرف في حياته دون أن يأخذ رأيه. لم يقبل أبي بذلك أبدا. وصارت زيارات الأقارب لبيتنا في أي مناسبة (عيد مثلا أو تجهيز واحدة من بنات العمات للزواج) هي الجحيم بعينه. فقبل أن ينتهي السلام، وتقبيل يد السيد أفندي، تبدأ حفلة التوبيخ. كنا نختبئ بعيدا خائفين، لكن ما أن تنقلب الترابيزة الصغيرة في الصالون وتتكسر أكواب الشاي الفارغة حتى نتبادل النظرات والضحك في الأكمام لأن اللحظة التالية ستشهد طلب المزيد من الشاي وتجهيز الغداء. فنحمل الشاي الجديد إلى الصالون والأطباق العامرة إلى السفرة ونحن نتمتم: عيلة مجانين.

وبمرور الوقت صار الجميع «كبارا»، ولم يعد أحد يأخذ رأي أبي في أي شيء، ولم يعد أحد يقبل التوبيخ. صار أبي مثل ديكتاتور مخلوع أو على وشك. بدأوا جميعا يتصرفون من وراء ظهره، فإذا وصله خبر ما فعلوا صر على أسنانه ونام كمدا وليس على لسانه سوى: أولاد الكلب فاكريني مت. كان من الواضح أن العائلة تتمرد. وكانت قيادة التمرد في يد واحدة من عماتي. كانت أصغر من أبي بعام واحد، وكانت الكراهية الحقيقة والمتبادلة بينهما شديدة الوضوح. كان أبي يطلق عليها «محراك الشر». وكانت هي تكرهه لأنه، كما يقال، في يوم من الأيام وفي واحدة من نوبات غضبه العنيف، رماها بفردة حذاء أصابت عينها اليمنى وفقأتها فصارت عوراء، وهي ليست جميلة أصلا، فتأخر زواجها كثيرا. لكن، في رواية أخرى، يقال إنها فقدت عينها هذه

في أحد أوبئة الرمد التي كانت تجتاح البلاد من وقت لآخر. وما يؤيد الرواية الأخيرة هذه وجود الكثير من العور في بلدنا، خاصة بين من هم في مثل سنها تقريبا. لكن الظاهر أن الرواية الأولى أيضا صحيحة، وأن الراوية الثانية أطلقت للمداراة على ما فعله بها السيد أفندي أمام الناس، وإعفاء له من هذه التهمة في أعين الأجيال القادمة التي ربما يجول في خاطرها أن تسأل لماذا هي عوراء.

المهم، أنهم حين نجحوا في تزويجها كان رجلها أزهريا عليلا، ومن عائلة أقل شأنا من عائلتنا فكان طبيعيا أن تكرههم جميعا. وازدادت هذه الكراهية حين مات بعلها بعد أقل من أربعة أعوام تاركا لها طفلين. أي أنها تزوجت متأخرة، زواجا سيئا، وترملت مبكرة. وقد طالت إقامتها في البلد فتمكنت من السيطرة علي عمي الأوسط (عبد الخالق) وأبنائه الذين شاركت بفاعلية في تربيتهم فنشئوا على طاعتها خوفا وحبا في وقت واحد. وحين التحق ابنها وبنتها بالجامعة في القاهرة لحقتهما، وانفردت بعمي الأصغر صاحب ليسانس التاريخ، والموظف وقتها بوزارة التموين. ويقال أنها عطلت زواجه لوقت طويل حتى لا يذهب خيره إلى غيرها. فيقال مثلا أنه وقع اختياره، أو وقع اختيارهم له، على فتاة من البلد وطلب يدها فتحايلت عمتي هذه وباتت عند أهل العروس المقترحة، بل وفي السرير إلى جوار البنت، وفي الليل راحت تعد ضلوعها (هذا ما يقولون)، ففزعت البنت، وقالت لأمها، فطردها أهل العروس في منتصف الليل بفضيحة كبيرة. وفي المرة الثانية التي يقولون عنها، وبعد انتهاء مراسم الخطوبة تسللت إلى سرير أبوي

العروس ونامت تحته لتتنصت على ما يقال، ويبدو أن النوم غلبها وعلا شخيرها، فاكتشف وجودها وكان نصيبها علقة ساخنة أولا، وفضيحة أكبر من السابقة ثانيا. ولم يتمكن عمي من الزواج بأي واحدة من البلد بعدها نتيجة للفضائح المتكررة التي تسببت فيها «محراك الشر». وحين نجح عمي في الزواج من واحدة ليست من البلد، أو أصولها من البلد لكنها سكندرية المولد، تمكنت عمتي من تحويل حياتها إلى جحيم حقيقي، جحيم قاد الزوجة المسكينة إلى محاولة الانتحار أكثر من مرة، ثم إلى الحياة بصحبة مضادات الاكتئاب العمر كله. ورغم ذلك لم يفلت عمي من تحت سيطرتها حتى بعد أن أنجب عددا من الأبناء. وحقيقة كانت شعلة نشاط، لا تهدأ، ولم تهدأ حتى الآن. كان أبي في نوبات حسرته الجديدة يلبس ثوب الحكيم ويقول: من ربتهم امرأة (يقصد ستي فريدة) لا يحكمهم إلا امرأة (يقصد عمتي سنية الشهيرة بمحراك الشر). ورغم ذلك زوجت عمتي محراك الشر ابنها الوحيد من واحدة من أخواتي، بعد أن تزوج ابن عمة آخر من أختي الكبيرة. لم تكن أمي مرحبة بالزيجتين، بل رافضة بالفعل، لكن طبعا لم يكن لرأيها قيمة. أما تصورها الصحيح عن الموقف فملخصه أن هذه العائلة وعلى رأسها أبي لا يمكنها التفاهم إلا مع بعضها. وأنهم لا يقدرون على التعامل مع غيرهم، فخلهم إنشالله يكلوا بعض.

كان من المفترض أن تقرب هذه الزيجات من المسافات التي بدأت في التباعد، لكن ما حدث هو العكس. رفعت العائلة شعار: أخذنا بناتكم خذوا بناتنا. كان أخي الأكبر قد تخرج حديثا وحين طرح عليه الموضوع

رفض الفكرة من أساسها. وبدأت القطيعة الشاملة. صارت العائلة كلها يدا واحدة ضد أبي وضدنا بالتبعية. بدأ أبي يتآكل من داخله، وسرع من وتيرة تآكله كم النشادر الهائل الذي يضخه، في هواء المنصورة، مصنع السماد الذي أنشئ في طلخا وقتها. بدأت رئتاه المعطوبتان من أيام المحلة في التليف. أصبح خروج النفس صعبا ودخوله أصعب. وأصبح تغيير اسطوانة الأكسجين جزءا من مهماتنا في الحياة. وصار موته متوقعا في أي وقت. لكن حدث أن سقط عمي الفلاح مريضا بفعل نزيف عنيف من دوالي المريء. واجتمعت العائلة كلها ـ للمرة الأخيرة ـ حول سريره في عنبر رقم ٣ بقسم الأمراض الباطنية بمستشفى المنصورة الجامعي. كان ذلك في يوم ١٨ يناير١٩٧٧، أي في نفس اليوم الذي اندلعت فيه آخر الاحتجاجات المصرية العظيمة في القرن العشرين. برء عمي وخرج من المستشفى، معافى إلا قليلا، إلى بيتنا الذي تحول، من جديد، إلى خلية نحل تقوم على خدمته وخدمة زواره الكثيرين من البلد.

ويبدو أن المآسي وحدها هي التي تقدر على لم شمل العائلة. فبمجرد سقوط عمي مريضا، مع توفر احتمال قوي ألا تمر هذه الأزمة على خير، أي احتمال مأساة، تجمعت العائلة كلها، وفي بيتنا نحن المغضوب عليهم. لكن ما أن عاد عمي معافى إلى البلد حتى عاودت العائلة سيرتها في مقاطعة البطريرك. وواصلت الضغط: أخذنا بناتكم خذوا بناتنا. وتم تخيير أبي، إما أن يتزوج أخي من بنت عمي المريض، أو من ابنة عمتي الصغرى. كان أخي الأكبر يعيش أول قصة حب خارج

العائلة. وحين عرض عليه الأمر كرر رفضه السابق لزواج الأقارب حتى لو لم يكن مرتبطا بأخرى. وأعلن عمي الأصغر ـ وبإيعاز من محراك الشر طبعا ـ أنه لو مات السيد أفندي الآن فإنه لن يمشي في جنازته. كنت حاضرا لهذه الواقعة وشاهدا عليها. ووصل هذا الإعلان إلى أبي بطريقة ما (ليس عن طريقي بالتأكيد) فبكى بكاء مريرا وقضى ليال طويلة يضرب الحائط بيده، مخنوقا بالدموع وبالسعال وبالسؤال: ماذا فعلت لكي يكون هذا جزائي؟ كانت مشكلة أبي تتلخص في قناعته العميقة بأنه ضحى كثيرا من أجل هذه العائلة. وأنه كان يفضل إخوته على نفسه وعلى أبنائه. كان يرى أن الابن يمكن تعويضه، يمكن إنجاب غيره، أما الأخ فلا يمكن. وكانت فجيعته الكبرى في أخيه الأصغر الذي أحبه أكثر من أي واحد من عياله، ورباه على عينه كما يقال. كان نادما على كل ما فعله من أجلهم، ونادما أكثر على كل ما لم يفعله لأبنائه. حاولت أمي كثيرا أن تغير من قناعاته هذه لكنها فشلت. كانت تقول له أنه فعل لهم ما كان واجبا عليه أن يفعله، وإذا كان لم يثمر فيهم فهذا ليس ذنبه. في هذه الأيام كنت واعيا بما يكفي، وكنت قريبا من أبي بما يكفي، ورغم ذلك لم أكن معنيا بذهابهم جميعا إلى الجحيم، ولم أكن متعاطفا مع أبي في محنته العائلية، وإن كنت في غاية الخوف عليه من وطأة مرضه وموته القادم بسرعة. وقتها كنت طالبا بالسنة الأولى بكلية الطب وأصر طبيبه المعالج أن يحيطني علما بموته القريب، فأحال أيامه الأخيرة إلى رعب حقيقي. لم أكن قادرا على البقاء في البيت والاستماع للقداس الجنائزي الطويل، الذي يعزفه الشهيق والزفير بمصاحبة السعال، وغير

قادر على البقاء بعيدا عن البيت خشية أن يموت في غيابي.

كان هذا هو الانشطار الأول العميق في هذا العائلة التي جمعها الموت المبكر لـ»علي الأول». وكان رد التحالف الجديد على رفض أخي الزواج من واحدة من الأقارب أن تم تزويج واحد من أبناء عمتي الصغرى لابنة عمي عبد الخالق. لم يدم هذا الزواج طويلا بالطبع فكان الانشطار العميق الثاني الذي طال أصغر عماتي وأبناءها جميعا.

قبل هذا الانشطار الثاني كان أبي قد مات، ولم يكن عمي الأصغر حاضرا، كان في سلطنة عمان. وحين تعرض عمي «عبده» لنوبة نزيف ثانية، كان ذلك أثناء أدائه لفريضة الحج بصحبة علي الثالث، فمات هناك ولم يعد. ولم نكن نحن أبناء «ابن علي» أو غيرنا حاضرين. أما عمي الأخير، والذي لم يزرع شتلة أرز واحدة في حياته، ولم يكن يدري أن البلهارسيا تتغذى على كبده بهدوء وصبر، فنزف نزيفا هائلا من دوالي المريء، التي انفجرت مرة واحدة ومات من فوره. وفي جنازته كان أحفاد «علي الأول» جميعا حاضرين، إلا أنا.

١١ شارع الإمام الليثي

ويقال أن أبي، حين انتقل من منية النصر إلى المنصورة سكن، في أول الأمر، بشارع العباسي الشهير. ولم يكن اختيار العباسي للسكنى اعتباطا، ولم يكن لأنه الشارع الأكثر حيوية بالمدينة كلها في ذلك الوقت، ولا لأنه قريب من مقر عمله الجديد بل العكس هو الصحيح. فالعباسي في غرب المدينة أو قل جنوبها الغربي، ومديرية الشئون الصحية في شمالها الشرقي، أي أن البيت كان في ابعد نقطة ممكنة عن مكان العمل. ولم يكن لأن ابنة عم والدتي (ابنة العمدة التاريخي لكفر المياسرة) تسكن في البيت نفسه، وبالتالي تجد أمي صحبة مناسبة لها في غربتها الأولى. كان السبب الوحيد لاختيار العباسي هو أنه المكان الأكثر قربا لمدرسة المنصورة الثانوية الكائنة بالشارع المعروف باسمها إلى اليوم. وهذا اختيار يتوافق مع الهدف الأساسي من الانتقال إلى المنصورة: أن يلتحق عمي الأصغر بمدرستها الثانوية الشهيرة. وقد نتج عن السكنى في هذا البيت تقارب من نوع ما بين زوج ابنة عم والدتي، الذي كان موظفا كبيرا بوزارة التموين (وهو ابن عمدة القرية المقابلة لقريتنا) من جهة وأبي وعمي من جهة أخرى. وهو ما تم الاستفادة منه

فيما بعد حين انتقل الرجل إلى مقر الوزارة بالقاهرة، فقام بتعيين عمي بوزارة التموين بعد حصوله على ليسانس التاريخ. ويقال أيضا أن أبي تنازل عن غرفة النوم الرئيسية لعمي حتى يوفر له كل الشروط المناسبة للنجاح، خاصة أن عمي حين حضر من البلد إلى المنصورة كان مصابا بـ «درن رئوي مفتوح»، ورفض أبي رفضا قاطعا أن يدخله المصحة، وأصر على علاجه بالبيت وتحت إشرافه هو شخصيا، معرضا نفسه وعائلته لخطر العدوى بكل ما أوتي من شجاعة متهورة. ويقال أيضا أنه، وبمجرد حصول عمي على شهادة التوجيهية وانتقاله إلى قاهرة المعز، حتى بدأ أبي في البحث عن شقة أخرى في حي آخر يكون قريبا من مقر عمله هو.

لم تكن الشقة الأخرى أول خيبة أمل لأمي ولم تكن الأخيرة بالطبع. فالشقة الأخرى هذه كانت في الطابق الثاني من البيت رقم ١١ بشارع الإمام الليثي المعروف بـ «بيت الجيار» بناحية كفر البدماص. الحي الريفي المقابل مباشرة لحي توريل، أكثر أحياء المنصورة رقيا في ذلك الوقت. وكان هذا الاختيار غريبا ومريبا في الوقت نفسه. فالاختيار لم يكن مرهونا بقيمة الإيجار مثلا. وتؤكد أمي ـ ولا يخالفها أبي في الرأي ـ أنه كان أمامهما في توريل في ذلك الوقت شققا أكبر من تلك التي ولدنا وعشنا بها عمرا كاملا وبنفس الإيجار وربما أقل. وحين تسأل لماذا؟ يقول أبي أن الشقة المناسبة في توريل كانت في الطابق الذي يعلو مقر عمله مباشرة، وهو لا يريد أن يتعرف زملاءه على عائلته، ليس لأنه رجل متزمت لا سمح الله، لكن لأنه يخاف من الحسد!! وإذا سألته

ألم يكن هناك في توريل شقق أخرى، يجيب نعم لكن لا يوجد فوق سطح أي منها فرن بلدي للخبيز ومعدته لا تحتمل «عيش السوق». فإذا قلت له أن الخبيز كان من الممكن أن يأتي من البلد وهي ليست بعيدة، يقول: يا بني زعيم الكلاب خير من ذيل الأسود. كانت لديه إجابات جاهزة، عجيبة وغير مرضية، لكل سؤال يتعلق بهذا الموضوع. ولا أعرف متى اعتنق هذه الحكمة البليدة عن الكلاب والأسود. الغريب أنه هو نفسه لم يتزعم أي كلب ولم يذيل أي أسد: من البيت للشغل ومن الشغل إلى البيت، وبينهما قراءة الجورنال وكتابة مواضيع إنشاء للأولاد، أو جوابات مطولة مليئة بالنصائح والشتائم لأقاربه في البلد أو في القاهرة أو حيثما كانوا. والحقيقة أنه كان أكثر من مواطن صالح: لم يضبط مرة واحدة جالسا مع أي شخص على أي مقهى، ولم تكن تربطه بالجيران أو الأقران أي علاقة من أي نوع، لدرجة أنه لم يصل مرة واحدة في مسجد الشيخ أبو دبوس، القريب من بيتنا، تحاشيا للقاء أي أحد من «جيرة السو» كما يقول. وكان يصلي الجمعة ـ فقط ـ في مسجد جمعية الشبان المسلمين صيفا، أو في مساحة كبيرة من الأرض المكشوفة أمام جمعية الشبان المسلمين شتاء، وهي الأرض نفسها التي أصبحت مسجد النصر الكبير بالمنصورة فيما بعد.

إذن، كانت الشقة الجديدة قريبة من مقر عمله، وبعيدة عن عيون زملائه، وعلى سطحها فرن بلدي تتبادل الجارات الخبيز فيه ويساعدن بعضهن. وتقول أمي أنها حين انتقلت إلى هذا البيت كانت تلاصقه زريبة البهائم التابعة للحاج صاحب البيت، لكنه، ولأن الأرض الزراعية

التي يملكها دخلت كردون المدينة، باع البهائم، وهد الزريبة وحولها إلى بيت عجيب، من طابق واحد يسكنه عبد العظيم سواق الأتوبيس وزوجته الست أم السيد التي كنت أرتعب من نظرتها ثم اكتشفت بعد ذلك أنها عمشه.

لم تكن الشقة التي اختارها أبي بناحية كفر البدماص (حي الناصرية الآن ومنذ زمن طويل) في الجهة الشرقية لمدينة المنصورة صغيرة لكنها أصبحت كذلك بفعل رغبة أبي في تريف الشقة نفسها. كأنه لم يكتف بالانتقال من كفر إلى كفر. احتل أبي وأمي الغرفة البحرية الكبيرة صيفا، والغرفة القبلية المتوسطة شتاء في تبادل دوري مع الصالون. أما الغرفة البحرية الأخرى أو الثالثة فخصصت للأبناء والبنات جميعا في الصيف وفي الشتاء. وأخيرا، تحولت الغرفة الرابعة القبلية جدا والملاصقة لمنافع الشقة إلى عشة كبيرة للفراخ، لأنها ببساطة غير صحية ولا يجوز أن ينام فيها الأطفال!! ومازلنا ـ بعد عقود طويلة من التوقف عن تربية الفراخ بها وتحويلها إلى «أوضة كرار» ـ نطلق عليها «أوضة الفراخ». أما الصالة البلهاء ذات السبعة أمتار طولا والأقل من مترين عرضا فكانت ممرا هادئا للمشي أثناء التفكير في القضايا العويصة التي تشغل بال أبي، أو حارة ضيقة للعب الكرة وللاصطدام في حال الحركة. وفي الأخير آلت البلكونة الوحيدة، التي تحيط بالشقة داير ما يدور، إلى مقر دائم لرهط لا بأس به من البط المزغط. ومع الأسف، توافق هذا التوزيع غير المثالي للروائح الناتجة عن الحياة المشتركة بين البشر والطيور مع توزيع جائر للثروة الداجنة: كانت الفراخ دائما من نصيب أبي ـ بحكم

تليف الكبد واحتلال الأميبا لأمعائه الغليظة والدقيقة معا، أما البط ففي المناسبات وللضيوف غالبا، ولنا دائما البيض والأجنحة.

لم يكن بيت الجيار في عمق الكفر، ولم يكن على سطحه، بل قريبا جدا من السطح، أو كان على الخط الفاصل بين عالمين:عالم النازحين من القرى إلى المدن الصغيرة وعالم المدن الصغيرة نفسها. كان محشورا بين بيوت ثلاث يمتلكها الحاج نفسه. بيت على اليمين وبيت على الشمال وبيتنا في الواجهة، وبين البيوت الثلاث حرف «تي» باللغة الإنجليزية، والضلع العرضي لحرف «تي» هذه كان الملعب الدائم لأشبال الكرة الشراب قبل الانتقال إلى الفريق الكبير، أو قبل الاعتزال المبكر لعدم الصلاحية. والبيت نفسه من أربعة طوابق يحتل طابقه الأرضي الأستاذ إبراهيم الجيار، الابن البكري للحاج محمد صاحب البيت، ناظر مدرسة الناصرية الابتدائية، والذي حول الطابق الأرضي إلى مدرسة خصوصية، لا تتوقف عن العمل صيفا وشتاء، ومن الصف الأول حتى الصف السادس. والطابق الثاني على شقتين: اليمنى لنا واليسرى لعم إسماعيل السواق الخاص لمدير تفتيش الري بالمنصورة وعائلته. والطابق لثالث على شقتين: اليمنى يسكنها الحاج أبو العز ولا أعرف وظيفته، وزوجته الحاجة تيسير القابلة التي ولدت على يديها. ولا أعرف كيف كانت تقوم بعملها، ليس لأنها وهي التي تجذب العيال من بطون أمهاتهم لم تنجب ولم تحمل من أصله، ولكن لأنها كانت تحتاج إلى ونش يصعد بها إلى الطابق الأول وليس الثالث. والشقة اليسرى بالطابق نفسه يسكنها الحاج محسن عمار صاحب

ورشة ميكانيكا وقطع غيار وزوجته الحاجة أم فتحي التي أنجبت من الذكور سبعة في عين العدو، ولم يرزقها الله ببنت واحدة، تساعدها في خدمة هذا الجيش من الذكور كما كانت تقول. والطابق الأخير يسكنه الحاج محمد نفسه ـ بعد أن تخلى عن الطابق الأرضي لناظر المدرسة ومدرسته ـ وزوجته الحاجة «أسما» أو أم إبراهيم ومن تبقى من أبنائهما دون زواج بعد. وعلى السطوح عشش الفراخ الخاصة بالحاج، وبرج حمام تابع لأحد أبناء الحاج، والفرن البلدي المنشود.

كان اليوم يبدأ حين ينزل الحاج محمد الجبار من الطابق الرابع بهدوء، ويفتح دكان الدقيق المواجه للبيت، ثم يخرج دكة خشبية عتيقة ويقعد عليها، وإلى جواره عم طلبة البقال الذي لم يكن يبيع أي شيء. يتابعان معا وبدقة الذاهبات إلى السوق والعائدات منه، ويتبادلان الهمس. وبعدها تنزل الحاجة أم إبراهيم السلالم على مهلها، مستنده على الدرابزين بيد وبيدها الأخرى «شنطة السوق» المعمولة بخيوط بلاستيكية متقاطعة على شكل سمبوكسات، تدق على الأبواب المغلقة، أو تنادي على صاحبة الباب المفتوح. وهكذا، حتى تصل إلى الدرجة الأخيرة من السلم وتجلس عليها في انتظار الركب. وحين يكتمل العقد، تقود ربات البيوت في رحلة يومية إلى سوق الخضار. وبعد العودة تبقى الأبواب كلها مفتوحة، والعيال يخرجون ويدخلون من شقة إلى أخرى دون استئذان كأنهم عائلة واحدة كبيرة. ولم تكن أبواب الشقق تغلق إلا عند عودة الرجال من أعمالهم، وخلال فترة الغذاء والقيلولة، ثم تفتح مرة أخرى بعد المغرب لاستئناف الأحاديث التي لم تكتمل بالنهار.

في هذه الأثناء يكون «السيد الجيار» أحد أبناء الحاج قد استلم الدكة الخشبية من أبيه، والتف شبان البيت من حوله في مباريات شطرنج طويلة، وهي اللعبة الوحيدة التي يجيدها هذا الإبن المصاب بشلل الأطفال. وفي هذه الأثناء أيضا يكتمل عقد فريق الكرة الشراب بقيادة محمد بن عبده طه، حفيد الحاج، والذي لم يكن يتوقف عن اللعب إلا حين يغمى عليه من التعب، ويحملونه إلى البيت، فينام حتى اليوم التالي، ثم يصحو لقيادة الفريق من جديد. كان محمد طه طويلا ونحيلا جدا، ولم يتوقف عن اللعب إلا في الثانوية العامة. اعتكف طوال العام للمذاكرة وحين خرج وقت الامتحان كان زي الفيل فتوقف عن اللعب نهائيا. أما الحريف الحقيقي وأبرع من لعب الكرة الشراب في بيتنا بل وفي الكفر كله فكان فتحي بن عم إسماعيل الذي يسكن في الشقة المجاورة. وأيضا توقف عن اللعب في الثانوية العامة. وبينما التحق محمد طه بكلية الهندسة، التحق فتحي بكلية الصيدلة، وأطلق لحيته ولم يعد إلى لعب الكرة أو مشاهدتها أبدا. كان أخي الكبير عضوا دائما في فريق الشطرنج، وأنا عضو غير دائم، أو قل احتياطي، في فريق الكرة الشراب. ولم يكن السيد الجيار هو الوحيد المصاب بشلل الأطفال، كان هناك أيضا مجدي عمار بن الحاج محسن عمار في الطابق الثالث، ورغم إصابته هذه، ورغم جريته المضحكة إلا أنه كان يجيد إحراز الأهداف بضربات رأس مذهلة في قوتها ودقتها. أما فريق المشاغبين ومدمني الثانوية العامة فكان يقوده «علي» بن الحاج أبو العز. وكانت مغامراتهم بالليل، هي حديث النهار لغيرهم. كان بيت عائلة كبير، مر

كل عيالها على مدرسة إبراهيم الجيار الخصوصية في الطابق الأرضي، ومن سنة أولى حتى الشهادة الابتدائية. كانت كل الجارات خالات وكل الجيران أعمام، وكل العيال أخوة. وظل الوضع هكذا حتى راح «نبيل الجيار»، ضابط الصاعقة، والإبن الأصغر للحاج محمد صاحب البيت شهيدا في ثغرة الدفرسوار. لم يعد البيت هو البيت نفسه: توقف الحاج عن النزول إلى دكان الدقيق، وتوقفت الحاجة عن الذهاب إلى السوق. بدأ السكان يغلقون أبوابهم طوال الوقت، والجارات يذهبن للسوق فرادى. وتوقفت فرقة الشغب عن شغبها وفريق الكرة عن اللعب. ورغم أن اثنين من أبناء الحاج أنجبا، وبفارق أسابيع قليلة، ولدين أطلقا عليهما اسم « نبيل»، إلا أن هذا لم يمنع الحاج من الموت حزنا، وبعد شهور تبعته الحاجة « أسما». وكان موتهما تصريحا لعقد العائلة الكبيرة بالانفراط.

رأس الوزة

لا أعرف على وجه التحديد ما الذي جعل أبي يأخذني معه إلى عرس ابنة عمتي الكبرى (عمتي عزيزة). ولم أعد أذكر هل كان ذلك في الصيف أم في الشتاء، ولا في أي عام من الأعوام. كل ما أذكره أنها كانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى بيت عمتي في الجانب الآخر من البلدة، وأنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها أصغر أبناء عمتي. كان في العاشرة أو الثانية عشر على أقصى تقدير، وكان اسمه صلاح، على اسم أخي الأكبر. وأذكر أنه كان يرتدي بيجامة مقلمة وواسعة، وأكمامها أطول من ذراعيه، قدرت أنه ورثها عن أخ أكبر كعادة العائلة. كان منظره، في هذه البيجامة الغريبة، برقبته الرفيعة جدا والطويلة جدا، وبأذنيه الكبيرتين، مثل «ميكي ماوس»، يدعو للشفقة ويغري بالضحك في آن معا. لم يسلم على أحد، ولا حتى أبي الذي وضع يده على رأسه وعبث بشعره قليلا، ثم انصرف عنه ليسلم على الآخرين ويتحدث فيما جاء من أجله. اختفى صلاح في مكان ما من بيتهم الواسع الذي أكلت الرطوبة جدرانه وزادت من برودته وكآبته الأصيلة. جلست إلى جوار أبي، هادئا في البداية، متبرما بشده بعد دقائق معدودة. انتبه

أبي لتبرمي فنادى على صلاح، وطلب منه أن يأخذني لنلعب معا في حديقة المنزل أو على السطح. كان السلم المؤدي إلى السطح بلا سور، فخفت من الصعود، لكن صلاح مد يده، دون أن يخرج كفه من كم بيجامته الطويل، لكي يمسك يدي. استندت بيدي الأخرى على الجدار، ووصلنا إلى السطح. كان بالإمكان رؤية النيل، ورؤية القرية المقابلة، سألت عن اسمها، فقال لي: كفر الترعة القديم. لم يكن على السطح ما يغري بالبقاء، ولم يكن صلاح يعرف أي لعبة مسلية نلعبها معا. كنت على وشك أن أقول له: يلا ننزل، لكنه أشار إلى مكان ما، بعيد، وقال: هذه أرض عمك عبده. لم أنظر إلى الأرض البعيدة بل إلى كفه القريبة. خرجت كفه من كمه عفوا، وبانت: كبيرة جدا، أكبر من كف أبي، ويتدلى منها إصبع زائد. في البداية خفت، بل واتسعت عيناي رعبا من هذا العفريت ذي الستة أصابع. لكن بعد لحظة أمسكت كفه ورحت ألعب بإصبعه الزائدة بفضول أقرب إلى قلة الذوق. لم يمانع صلاح، ولم يسحب يده. ولم يتركني لدهشتي بل زادها حين أخرج كفه الأخرى من كمه الطويل وفردها. كانت مثل أختها بستة أصابع. ثم خلع خفيه وأظهر قدميه الكبيرتين، كانت كل منهما بستة أصابع أيضا. في لحظة قصيرة تحول خجله من الإصبع الزائدة إلى لعبة، وتحول خوفي إلى دهشة. وحين تحولت الدهشة إلى ألفة سألته كيف حصل على هذه الإصبع الزائدة، قال أنه ولد هكذا.

حين نزلنا من السطح، وجدنا المائدة منصوبة من أجل الغذاء. كان هناك رجال كثيرون كلهم بجلابيب ما عدا أبي وعمي الأصغر. اختفى

صلاح، ولم يكن لي مكان على المائدة. فأخذتني عمتي عزيزة إلى المطبخ. كانت هناك حلة ضخمة على النار مليئة بالشوربة. كان لون الشوربة غريبا ومقززا لكن عمتي أمسكت بكبشة كبيرة مخرمة وراحت تبحث عن شيء ما في قعر الحلة الضخمة. أخرجت شيئا ووضعته في طبق وقالت خذ، قلت لها:أخذ إيه ؟ قالت بفخر غريب: راس الوزة. أمسكت رأس الإوزة الساخنة في غضب، ورميتها بقوة وغل في الحلة الضخمة قائلا: رأس الوزة دي تكليها إنت، أنا عاوز آكل زي الناس اللي برة، قالت وقد تحول فخرها برأس الوزة إلى ربكة: يحفظك الإله وطي صوتك. لكن يبدو أن عمي عبد الخالق كان قريبا من المطبخ وسمع صياحي فدخل وسأل. وحين عرف الحكاية قال لها: راس الوزة يا عزيزة، عايزة تفضحينا، عنده حق بن السيد أفندي، كليها إنت، وأوعي تجيبي خبر قدام أبوه، ولا يومك يبقى أسود من قرن الخروب. لم يبق عمي للغذاء، وأخذني من يدي إلى بيته لكي نتغذى مع أولاده. ويبدو أنه حكا لزوجته أم علاء (علي الثالث) ما جرى. وفي الليل أثناء الفرح حكت هي بدورها الحكاية لأمي التي كانت في بيت أبيها أثناء الواقعة. بحثت أمي عني في الفرح وأخذتني على جنب وسألتني، كنت قد نسيت، فحكيت لها قالت رغم غضبها الواضح: كويس إن أبوك ما عرفش، أوعى تجيب سيره قدامه. وفي آخر الليل وبعد أن ذهبت العروس مع عريسها، وسلم أبي على عمتي، وقبلت هي يده كعادتها، رغم أنها أكبر منه سنا، شاكرة له وقفته معها في هذه الليلة، وكيف رفع وجوده رأسها بين أهل البلد، قال لها أبي في أسى: يعني أنا أرفع راسك بين الناس وأنتي تعطي

لابني راس الوزة... معلهش، طول عمركم غجر.. يا غجر. وسحبني من يدي ومشينا وبصحبتنا عمي عبده. خرجنا من الحارة الضيقة إلى الطريق الواسعة، وبدأ صوت أبي يعلو: بنت الكلب تحرم أولادها من اللقمة، وتلم القرش على القرش علشان تجيب سم هاري لعريس الغفلة. قال عمي: خلاص يا سيد أفندي حصل خير، قال له أبي: خير منين، إنت فاكر أنا بتكلم في إيه؟ المره اللي ما بتقمش من على سجادة الصلاة، وبرضه مش هتورد على جنة، كل ما أسألها صلاح فين تقول لي راح يودي، راح يجيب، راح يودي، راح يجيب لغاية ما الواد طب ساكت، زي ما تكون عاوزة تموته وتخلص منه، الحاجة اللي ما بتسبش فرض. قال له عمي: أمال بس مين اللي يودي ويجيب يا سيد أفندي، قال أبي فيما يشبه الانفجار: مش لازم تودي وتجيب يا أولاد الكلب، يا تربية نسوان، هوه ده اللي تعلمتوه من أمكم، تقلّوا كرامة الرجالة علشان خاطر النسوان يا أولاد الكلب، هوه إنت مش عارف إن الواد قلبه تعبان ومايستحملش المرمطة دي، قال له عمي:عارف يا أخويا عارف بس هدي نفسك إنت، خلاص، الليلة عدت على خير والحمد لله. كنا قد وصلنا إلى بيت جدي لأمي، فقال لي أبي: اطلع لأمك، وقولها تجهز من النجمة علشان نغور من البلد الزفت دي. صعدت أنا وذهب أبي مع عمي. كانت أمي وسط أخواتها ينتقلن ببساطة من الغضب إلى الضحك وبالعكس والكلام كله طبعا عن «حادثة رأس الوزة». كان النوم يتسلل هادئا إلى جفوني حين قالت أصغر خالاتي: الواد ده فيه حاجة غلط يا أم صلاح، المرة اللي فاتت أخذتوه معاكم لفرح عمه في إسكندرية،

تاه منكم والجوازة كانت هتبوظ لولا ربنا ستر، والمرة دي لو أبوه كان حس باللي حصل في المطبخ كان غطس راس الحاجة عزيزة في حلة الشوربة السخنة وباظت الجوازة، إنتو ساحبينه معاكو ليه، مش كان فضل مع أخواته في المنصورة أحسن.

في تلك السنوات الموغلة في البعد، كنت وأخوتي جميعا نقضي أجازة الصيف في كفر المياسرة. ورغم امتداد الأجازة لشهور طويلة، إلا أنني لم أر صلاح ابن عمتي عزيزة سوى مرات قليلة. نادرا ما كان يغادر بيتهم، ونادرا ما كنت أذهب إليهم. كان الطريق إلى بيتهم كئيبا ومخيفا، ولم يكن أي من أبناء عمي يرحب بالذهاب معي إلى هناك. وفي المرات القليلة التي رأيته فيها كان حضوره يفرض صمتا غامضا، صمت يسمع فيه الجميع وقع أقدام فرس تعدو في صدره الضيق. كأنه سيموت الآن. لكنه لم يمت هنا ولم يمت الآن. مات قبل سن العشرين في باريس. في حجرة العمليات، وبقلب مفتوح.

والعمر الطويل لكم أيضا

كان أبي يقرأ الجرائد من الآخر، أي بدءا من الصفحة الأخيرة. وكان، الله يرحمه، يتوقف طويلا، ويستغرق، قبل أن يكمل ترحله في باقي الصفحات، في صفحة الوفيات الكلاسيكية بجريدة الأهرام، كأنه يفتش عن نعيّ بعينه. وحين يعثر على ضالته، ينادي على أمي إذا كانت بعيدة عنه، غارقة في شئونها المنزلية، أو يوقظها من النوم، ويقول لها: فاكره فلان اللي كان وكيل المديرية، مثلا، فتقول أنها فاكره، فيقول لها: الله يرحمه، ثم يتلو عليها النعي، وتعلق هي تعليقها المشهور: الله يرحم الجميع، وقبل أن تستغرق في تعداد مناقب المرحوم التي لقنها لها أبي على مدار سنوات، يكون أبي قد انتقل إلى صفحة الرياضة وتركها تكلم نفسها، وحين تنتبه هي تعود لنومها، أو تقوم لتكمل شغلها مكسورة الخاطر. وأعتقد أنني ورثت عنه هذه العادة، اقصد قراءة الجورنال من الآخر. أما التوقف عند صفحة الوفيات فهو ما لم أفعله طوال حياتي سوى مرات نادرة، وفقط حين تستبد بي الرغبة في قراءة «حظك اليوم» أو حل الكلمات المتقاطعة، وتقع عيني صدفة على نعي كبير الحجم لشخص، اعتقد في حياته، وشاركه ذووه في حياته وبعد مماته الاعتقاد نفسه، فيأخذني الفضول إلى إلقاء نظرة سريعة على بقية الصفحة. لكن،

وفي هذه النادرات، وبمطالعة كم الصور التي كتب تحتها: انتقلت إلى رحمة الله تعالى، أو انتقلت إلى الأمجاد السماوية، أرملة المرحوم أو المقدس فلان، كنت أصل إلى النتيجة نفسها بصيغ مختلفة. فمرة أقول لنفسي وأنا أطوي الصفحة بسرعة: عادي، يتزوج الرجال غالبا من نساء أصغر منهم في العمر، وبالتالي يرحلون من الحياة قبلهن. ومرة أخرى أقول لنفسي:عادي برضه، ثابت علميا أن النساء يعشن عمرا أطول من الرجال، وأقلب الصفحة. لكن في أحد هذه النادرات توقفت طويلا، قبل أن أطوي الجريدة كلها، أمام فكرة أن النساء يعشن أكثر من الرجال، وإذا بي أسرح في شجرة العائلة مستغربا النتائج، ومندهشا من إعادة التعرف على ما كنت أعرف فعلا. فقد مات أبي في الثانية والستين من عمره، ومازالت أمي ـ أمد الله في عمرها ـ تواصل الحياة بعد رحيله بعقدين من الزمان. أما جدي لأبي فقد رحل تاركا لـ «ستي فريدة» أن تعيش لأكثر من ثلاثة عقود بعده. وعماتي أيضا، هن جميعا أرامل بما يزيد على نصف قرن، نعم نصف قرن، فهن جميعا أرامل من قبل أن أولد، ولم أر لأي واحدة منهن بعلا. الأغرب من ذلك أن عماتي لم يدفن أزواجهن فقط بل دفن إخوتهن الذكور جميعا، ولم يتجاوز أطولهم عمرا الثانية والستين، في حين أن عماتي جميعا تجاوزن الثمانين، بل تكاد عمتي عزيزة تصل إلى إتمام قرن كامل بعد سنوات قليلة جدا. فلماذا تعيش نساء العائلة عمرا أطول من رجالها؟ ولماذا تعيش النساء عموما عمرا أطول من الرجال؟

يعتقد الكثيرون أن الضغوط، دون تحديد لطبيعة هذه الضغوط، التي

يتعرض لها الرجال أكثر من تلك التي تقع تحتها النساء، وهو ما يقصف عمر هؤلاء قبلهن. ويعتقد آخرون أن النساء (أكثر أهمية) لمواصلة الحياة من الذكور لذا يعشن أكثر. وبالنسبة لواحد متشكك من أمثالي لا يملك أي من الاعتقادين من الحظوظ ما يقنعني بالتوقف عن متابعة السؤال، والزهد في متعة البحث عن الإجابة بغض النظر عن الوصول إليها. ورغم بعض المعرفة العلمية بحكم المهنة إلا أنني رأيت أنه من الواجب أن نطرح السؤال على السيد جوجل، ومنافسيه، من محركي البحث على الشبكة العنكبوتية الضخمة ربما نجد في الموضوع جديدا. عندما كتبت السؤال باللغة العربية في مربع البحث (لماذا تعيش المرأة أكثر من الرجل؟)، كنت أعتقد أن عدد المواقع سيكون كبيرا، لكن الرقم فاق توقعاتي بكثير: مليون وثلاثمائة وخمسين ألف موقع عربي يطرح السؤال وإجابته. طبعا هذه المواقع جميعا تنقل من مصدر واحد أو من مصادر قليلة للمعلومات. لكن، وبينما كان هذا الرقم الضخم، حتى بعد تصفيته إلى العشر مثلا، يعطي فكرة أولية عن مدى الاهتمام بالموضوع، كان في الوقت نفسه يشير إلى أن اهتمام «جوجل» بكلمة «أكثر» يفوق تحمسه لكلمة «تعيش». فالكثير من هذا المواقع كان معنيا بإثبات تفوق المرأة على الرجل: المرأة أكثر ذكاء، المرأة أكثر عاطفية، المرأة أكثر قدرة على الحب، وهكذا. كان الكثير من الكلام قديم ومكرر ومتهافت، والقليل الجاد لم يكن فقط غير كاف، لكنه كان أيضا منقولا من مواقع علمية أو إخبارية باللغة الإنجليزية. لذا أعدت طرح السؤال:why women live longer than men?. وهذه

المرة أيضا لم تكن دهشتي اقل: ثمانية مليون وأربعمائة وستين ألف موقع باللغة الإنجليزية يبحثون في الموضوع. المهم، وبعد تصفح بعض المواقع المختارة باللغتين، قلت لماذا لا أضع السؤال في صيغة أخرى: لماذا يموت الرجل قبل المرأة؟ و **why men die before women?**. وكانت المفاجأة، فرغم أن عدد المواقع ظل تقريبا كما هو، إلا أن الموضوع باللغتين تحول إلى هزل. في الكثير من المنتديات التي تتكاثر في الشبكة أو عليها تحول الموضوع إلى تجميع أقوال الحكماء والسفهاء معا عن المرأة والرجل، مع الحرص على الحط من شأن المرأة طبعا. والكثير من المواقع يتندر على رغبة المرأة في أن يموت الرجل (فيها) قبل أن يموت (منها)، والباقي يلت في رأي المشرع في امرأة طلقها زوجها ومات قبل أن تكمل عدتها، هل ترثه أم لا؟. وقبل أن أشكك في ذكاء جوجل الذي تعلق بكلمة (قبل) أكثر من أي كلمة أخرى في السؤال، وجدت أن المواقع الأجنبية لم تختلف عن المواقع العربية في الإجابة عن السؤال في صيغته الثانية.

المهم، تقول المصادر العلمية الموقرة أن متوسط أعمار النساء يفوق متوسط أعمار الرجال بخمس إلى ثمان سنوات في الدول المتقدمة، بينما يقل هذا الفارق إلى ثلاث أو خمس سنوات فقط، لصالح النساء أيضا، في الدول الفقيرة. وهذه الحقيقة العلمية لم تتغير تقريبا منذ القرن التاسع عشر. وتشير المصادر نفسها إلى أن توقعات العمر للمرأة والرجل بعد سن الخامسة والستين تتساوى تقريبا، وأن هذا الفارق في المتوسط العمري بين الجنسين يعود إلى أن نسبة الوفيات

بين الذكور قبل الوصول إلى هذا السن أعلى كثيرا من النساء. لماذا ؟ أساتذة البيولوجي يقولون أن قدرة النساء على مقاومة الالتهابات والأمراض البكتيرية والطفيلية أعلى من الرجال، والسبب في ذلك أن هرمون الذكورة الطائش « التستستيرون» يعمل، وبطريقة مجهولة، على إضعاف جهاز المناعة لدى الذكور. ويقولون أيضا أن هرمون الأنوثة المعروف بالإستروجين يقوم بكنس الدهون الخفيفة من الجسم، وهي الدهون التي تتسبب في تصلب الشرايين وأمراض القلب، أما هرمون الذكورة فيفعل العكس وبالتالي يتعرض الرجال لأعطال فنية كثيرة في عضلة القلب، وفي سن مبكرة، وهو ما يقصف عمرهم مبكرا أيضا. ويقولون أيضا أن الذكر في كل مملكة الحيوانات، ومنها نحن بالطبع، ومنذ وصوله إلى سن البلوغ يدخل في حالة « انتخاب جنسي »، يتنافس فيها الذكور جميعا على الفوز بالأنثى المطلوبة والمرغوبة. ولا يتوقف التنافس بالحصول عليها، لكنه يستمر من أجل الاحتفاظ بها أيضا. هذه المغامرة العاطفية الضخمة، محمولة على أكتاف مغامرة فسيولوجية أخطر، تستهلك أصول الذكر ومصادر تمويله الحيوية، وهو في جميع حالاته هالك لا محالة: إذا فشل في الحصول على أنثاه، اعتزل الحياة واكتئب، وربما انتحر، وإذا فاز بها فإنه سيستهلك الباقي من طاقته في الحفاظ عليها تحت سقفه، وفي الحفاظ على النوع أيضا. وهذه المغامرة يشعلها، طبعا، هذا التستستيرون المغفل. يعني وباختصار أن فسيولوجيا الذكر تتسم بالغباوة المفرطة.

أما علماء السلوكيات فيدعون أن الرجال طائشون ومغامرون

يميلون إلى العنف والتدخين واستهلاك كميات كبيرة من الكحول. فإذا نجا الواحد منهم من حوادث السيارات نتيجة قيادته الطائشة، أو قيادة طائش آخر، فإنه سيموت بسرطان الرئة نتيجة الإسراف في التدخين، وإذا نجا من السرطان سيموت بكبد تليف عن آخره تحت تأثير الكحول. ويقولون أيضا أن الرجال مهملون، يترددون ويتلكئون في مراجعة الطبيب، أو قسم الطوارئ، فهم لا يريدون، أو لا يحبون، أن يكونوا مرضى. وبالتالي يصلون إلى الطبيب في حالة بائسة جدا، وبدلا من إرسالهم إلى العناية المركزة، مثلا، ترسل أجسادهم إلى الثلاجة، ومنها إلى طاولة التشريح لمعرفة سبب الوفاة. أما المستوى الأخير، أو الاجتماعي ففيه طبعا أن الأغنياء من الجنسين يعيشون عمرا أطول من الفقراء من الجنسين. فمثلما تبين للباحثين أن المرأة الغنية تعيش عمرا أطول من الرجل الغني، تبين لهم أيضا أن قدرة النساء على تحمل الفقر وتبعاته أعلى كثيرا من الذكور، وأن نساء الفقراء يعشن عمرا أطول من الرجال الفقراء أيضا. فهل يعني ذلك أن الفقر لا يقتل الرجال ـ بذلهم فقط ـ لأنهم يموتون لأسباب أخرى، أسباب لها علاقة بكونهم رجال، رجال مشحونون بالتستستيرون والإهمال؟

طبعا، يركز الباحثون من حقل البيولوجي على الهرمونات، بل ويعتقدون أن الطيش والإهمال الذكريين ليسا سوى المظهر الخارجي للنشاط الهرموني الداخلي، فيما يضخم علماء الاجتماع من دور الإهمال، لدرجة أن ينفي بعضهم نفيا قاطعا أن يكون للهرمونات أو الجينات أي علاقة بالموت المبكر للرجال: لأن الرجل الذي لا

يحمل جينات وراثية للإصابة بأمراض القلب، مثلا، من المتوقع أن يعيش قلبه عمرا أطول منه هو شخصيا، فقط لأنه سيموت لسبب آخر. وهنا اشتعلت في رأسي، ونحن في عصر الجينوم، صحيح: ما هو دور الجينات في هذه القصة؟ وطبعا طرحت السؤال على محرك البحث السيد جوجل، هذه المرة بالإنجليزية فقط: خمسة وأربعين مليون وتسعمائة ألف موقع تبحث في، أو تبحث عن، الـچين المسئول عن طول العمر، يا خبر أبيض. لكن خلاصة هذا الخبر الأبيض، أن العلماء في بداية الألف الثالثة عثروا على منطقة ما، تقع على الكروموسوم رقم أربعة من الحلزون الهائل الذي يختزل الكائنات جميعا، يتزاحم عليها بضعة مئات من الجينات يعتقد أن من بينها الـچين المسئول عن طول العمر. وأن هناك علاقة قوية بين هذا الـچين وجينات أخرى تتيح لحاملها أو لصاحبها فرصة أكبر في مقاومة السرطان، وأمراض القلب، والألزهايمر، وغيرها من أمراض الشيخوخة، وبالتالي فرصة أفضل في حياة أطول. طبعا عينات البحث كلها كانت لبشر معمرين، بشر تجاوزوا التسعين ويزحفون بثقة نحو إكمال قرن في قيد الحياة. وطبعا شملت عينات البحث بشرا من مشارب مختلفة، بعضهم مثلا لم يدخن سيجارة واحدة طيلة حياته، وبعضهم الآخر لم يمتنع يوما واحدا عن التدخين لمدة تقترب من ثمانين سنة. ثم، وبعد قليل من البحث السابق، توصل فريقان من العلماء إلى فصل الـچين المسئول عن طول العمر. الفريق الأول أختار العمل على مجموعة كبيرة من المعمرين من اليهود الأشكيناز المقيمين في أمريكا، لماذا؟ لأنها كجماعة مغلقة

تمكن الباحث من تتبع مسار الـجين المطارد بسهولة. وقد أعطى هذا الفريق لهذا الـجين اسما مختصرا هو (سي إي بي تي). أما الفريق الثاني فتوصل إلى الـجين نفسه لدى المعمرين من سكان أيسلندا (جماعة مغلقة أيضا) لكنهم أطلقوا عليه اسم أحد أنبياء العهد القديم، يقال أنه عاش أكثر من ألف سنة، «ماتوشالح» ـ الرجل المسلح ـ أو «متشولح» كما اعتدنا أن ننطقه.

ويؤكد الفريق الأمريكي أن طول العمر هذا ليس مصادفة على الإطلاق: إذا وجدت شخصا في عائلة ما تجاوز التسعين، فتأكد أنه سيكون هناك أخ ثان وثالث على الطريق للعمر نفسه. إذن، ووفق الأبحاث الأخيرة هذه، تلعب الجينات دورا مهما في طول العمر، أي عكس ما يقول أصحاب مدرسة الإهمال. لكن لم يقل صيادو الجينات هؤلاء ما إذا كانت النساء يرثن جين متشولح بمعدل أكبر من الذكور، أو العكس. وهذا يعني أنني لا استطيع أن أفترض، مثلا، أن ستي فريدة كانت تحمل على كروموسومها رقم أربعة «جين متشولح»، وأنها أورثت هذا الـجين لبناتها، وحرمت منه البنين. أليس من الجائز أنها كانت تحمل هذا الـجين، وأنها أورثته لهم جميعا، لكن البلهارسيا تفوقت على متشولح، فقصفت عمر الرجال دون النساء باعتبار أنهن لم يصبن بها. لا أدري، أميل إلى الاحتمال الأول. فعمي علي مات باللوكيميا مبكرا جدا، ومتشولح يقاوم السرطان، وهو ما ينطبق على عماتي. فعمتي عزيزة، التي تقترب من إتمام القرن في قيد الحياة، أصيبت بسرطان المثانة، منذ عشرين عاما، وعولجت ومازلت بصحة جيدة.

وعمتي صفية (أصغر عماتي) أصيبت بمرض خبيث في المبيض، وأشار بعض الأطباء إلى أن حالتها ميئوس منها، لأن الورم متشعب ولا يمكن استئصاله، لكن أطباء آخرين نجحوا في استئصال الورم، وتلقت علاجا جذريا بالأشعة، ونجت. كان هذا منذ عشر سنوات، وهي الآن تجاوزت الثمانين، ومازلت بصحة جيدة باستثناء قدر من البطء في ردود الأفعال. وعمتيّ الواقعتين بين عزيزة وصفية خاليتان تماما من أي مرض عضوي أو نفسي ويواصلان الحياة بهمة ونشاط.

طبعا هذا لا يعني أنه، وبعد قرون طويلة من بسط راحة اليد بين يدي قرّاء الكف لمعرفة الطالع وتأمل خط العمر، وهل هو طويل أم قصير، أصبح بإمكان عالم كبير وبعينة دم بسيطة أن يقول لك ما إذا كان «متشولح» يعمل في هدوء على الكروموسوم رقم أربعة أم لا، ومن ثم يبشرك بالعمر الطويل أو العكس. المسألة أعقد من ذلك بكثير. أعقد من إطالة عمر البشر الراغبين في مزيد من السنوات، ومن ترافق هذا العمر الطويل مع الصحة الجيدة، خاصة صحة الدماغ ـ كأن البشرية فرغت من علاج مشاكلها ولم يعد باق أمامها سوى التخلص من الألزهايمر. المسألة أنه إذا كان العلم العميق ينزع كل يوم صفحات كثيرة من كتاب «ما وراء الطبيعة» الضخم ويضمها لكتاب «الطبيعة»، وفي الوقت نفسه يفتح الباب أمام قدرية صارمة، تحكم الحياة كلها بجزيء تافه من البروتين وجزيء تافه من السكر، وتحكم الواحد منا، من ساسه إلى رأسه، بالهرمونات والكرموسومات والجينات، فمن الذي يستطيع أن يقول أنه سيد مصيره؟

مائة عام في صحبة الإله

يقال أن سعد، الإبن البكري لعمتي عزيزة، ذو الميول الإخوانية، تمكن ـ قبل أقل من ثلاثة أعوام من حادثة رأس الوزة ـ من الفرار، ومن ثم الاستقرار بأرض الحجاز. أما ابنتها التي تزوجت ليلة الحادثة إياها، فقد حصلت على إعارة هي وزوجها وسافرا إلى ليبيا بعد عامين من الموت الدرامي لأصغر إخوتها. وبعدها بعام واحد تزوجت أصغر بناتها واستقرت في بورسعيد. وأصبح البيت الكبير البارد أكثر وحشة وبرودة من أي وقت مضى. لم تنجح عمتي في أول مواجهة لها مع العزلة، وربما لم تعط لنفسها الفرصة الكاملة للتجربة. إذ سرعان ما وجدت أن بقاءها لوحدها في كفر المياسرة لم يعد له ما يبرره، وألحت على ابنها الكبير الذي استجاب بعد جهد غير قليل. وذهبت لقضاء فريضة الحج للمرة الثانية، وبقيت بصحبته سنة إلا قليلا، لم تلق خلالها معاملة حسنة من زوجة ابنها الكبير كما يقال، وكما هو معتاد في مثل هذه الأحوال. ويبدو أن هذه الخبرة الأخيرة السيئة كان لها أثر عميق في نفسها وفي تحولاتها التالية. المهم أنها حين عادت من الحجاز لم ترجع إلى بيتها في الكفر بل لتستقر بأحد أحياء الجيزة على مقربة من

ولديها المتخرجين حديثا من جامعة القاهرة، والمستقرين هناك بحكم العمل. لكن إقامتها بالجيزة لم تطل أيضا، فقد رحل واحد من أبناءها إلى موسكو مبعوثا من قبل الجامعة للحصول على درجة الدكتوراه في باثولوجيا الأسماك. وبعد عام واحد من سفره رحل أخيه الأصغر إلى كندا مبعوثا من قبل الجامعة أيضا للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في الهندسة المدنية. ولم يعد بقاءها بالجيزة مبررا، فعادت إلى الكفر مكسورة القلب.

هذه المرة، كان من المفترض أن تقتلها العزلة. لكنها، وبعد خبرة سنوات غير قليلة من عدم الاستقرار، تأكدت خلالها أن بيت الإبن ليس كبيت الأم، صمدت لوحدها، في بيتها البارد،لا تزور ولا تزار، ولا تشارك في أفراح العائلة القليلة، ولا في أحزانها الثقيلة. فهي لم تشارك في الانشطار العائلي الكبير بفصليه الأول والثاني. في الفصل الأول لم يكن لديها بنات للزواج، وابنها في موسكو متزوج من أختي الكبيرة، فلماذا تخاصم؟. وفي الفصل الثاني لم تكن شريكا في المؤامرة الأولى، فمن تخاصم؟. وفي جميع الأحوال كانت غائبة في صلاة لا تنقطع، وليس لها من الدنيا رجاء سوى حسن الخاتمة.

رجع ابنها من موسكو، فعادت إلى شقة الجيزة. وتحولت الشقة من علبة ضيقة للمذاكرة أيام الطلب إلى محطة للمسافرين من أبنائها وأحفادها، وللقادمين من السفر، يكسرون عزلتها شهرين كل عام، ثم يتركونها لوحدتها تنتظرهم في العام التالي، وهكذا. سنوات طويلة جرت على النظام نفسه. رافضة وبشكل حاسم أن يقيم أي من أحفادها

الوافدين على القاهرة للدراسة معها، حرصا على النظام أم تمسكا بالعزلة؟ ربما لا هذا ولا تلك، فقط مجرد ضيق عادي بأجيال جديدة لم تتعود الطاعة، ولم تألف الصمت الذي لا يبدده سوى إذاعة القرآن الكريم؟ لا أحد يعرف، ولا أحد جرؤ على المناقشة. على أي حال، يبدو أن عمتي قد نجحت، وعلى نار هادئة، في تحويل العزلة الإجبارية إلى خيار استراتيجي لا يمس، لا من قريب ولا من بعيد. ربما لهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة لم أرها طوال حياتي سوى مرات معدودة. رغم أن أختي الكبيرة كانت تقيم على مقربة من بيتها الذي أعرفه جيدا، ورغم أنني كنت أزور أختي كثيرا، وأقيم عندها أياما، إلا أنني لم أفكر مرة واحدة في زيارتها. ربما مررت عليها مرورا سريعا مع ابنها (زوج أختي)، لكنني لم أفعل أبدا من تلقاء نفسي. كانت هذه المرات القليلة عبئا ثقيلا لا أعرف من أين يأتي، ولا أعرف كيف أتحمله. هي ليست امرأة بغيضة على الإطلاق، ربما العكس. فهل هي جلستها المنطوية شابكة أصابعها في حجرها، ومطرقة إلى الأرض، دون كلمة واحدة ؟ أم العتمة المريبة التي تلف هذه الشقة الأرضية في هذا الشارع المترب؟ أم الرائحة الغريبة والمقبضة والتي لم أكن أعرف من أين تأتي؟ العتمة والرائحة التي تجعل الواحد يسأل نفسه طوال وقت الزيارة القصير: كيف تحتمل هذه العجوز أن تبيت لوحدها كل يوم في هذا القبر دون أن تموت؟

من الواضح أن ستي فريدة كانت سخية مع بناتها في كل شيء. فقد منحتهن جميعا كل صفاتها الخارجية والداخلية، وإن كانت الكبرى

بينهن، عمتي عزيزة، قد فازت بالنصيب الأكبر من هذه الصفات. فهي تشبه ستي فريدة في كل شيء تقريبا مع فارق أساسي في الطول: طول القامة وطول العمر. فعمتي أطول من ستي بسنتيمترات غير قليلة، إلا إذا كانت ستي قد انحنت مبكرا فلم أرها أنا في عزها وطولها، وعمتي أطول عمرا من ستي بسنوات غير قليلة أيضا. لكن باقي الصفات هي هي، حتى طبيعة الوتد الرخو المؤثرة والتي تبدو خاصية مميزة لنساء العائلة، وراثة عن ستي بالضرورة. بل إنني أحيانا أعتقد أن عمتي عزيزة ورثت من ستي سيناريو الحياة نفسها مع تعديلات بسيطة تستدعيها إعادة الإخراج. فتخيل أن عمتي - وهي الوحيدة التي تزوجت من فلاح من خارج العائلة مثل أمها بينما تزوجت عماتي الأخريات من أفنديات نصف متعلمين ولا يعملون بالفلاحة- ترملت في السن نفسه الذي ترملت فيه ستي، وبعد أن أنجبت أربعة من الإناث وأربعة من الذكور تماما مثل أمها. أكثر من ذلك أنها فقدت ذكورها الأربعة بينما بناتها الأربعة مازلن في قيد الحياة. وأن أول موتاها كان في سن الشباب مثل أخيها علي الثاني، وقد مات بمرض يختلف عن باقي إخوته مثل أخيها أيضا. ومثلما مات إخوتها الباقين بأكباد متليفة من أثر البلهارسيا، مات أبناءها الباقين بأكباد متليفة من أثر البلهارسيا والهيباتيتس معا. لكن تظل هناك بعض الصفات الخاصة بعمتي عزيزة لا أعرف من أين أتت بها. فهي عكس نساء العائلة جميعا بما فيهن ستي، قليلة الكلام جدا، وإذا حدث وتكلمت ارتبك الكلام في فمها، وسكتت. وهي قليلة الأكل لدرجة أن يقال أنها لم تر جالسة إلى طعام قط، فقط تأخذ شيئا

في المطبخ، خفية، كأنها تخجل من أن يراها أحد تأكل. وهي عكس كل نساء العائلة، اللاتي لا يعرفن اتجاه القِبلة، لا تكف عن الصلاة والدعاء، ولا يسمع في بيتها سوى المصحف المرتل، وهذه الخاصية الأخيرة يبدو أنها مكتسبه من زوجها الذي لا أعرفه، ولا أعرف عنه شيئا سوى أنه كان فلاحا طيبا. أما خجلها فمن النوع القاتل، فقد ظلت تعاني من حرقان في البول لأسابيع طويلة، دون أن تصرح لابنها، الذي كان يزورها في شقة الجيزة يوميا، إلا بعد أن تحول الحرقان إلى نزيف بولي حاد استدعى نقلها إلى المستشفى. خجل جعلها ترفض ليومين كاملين أن تخضع لمنظار مثانة تشخيصي لمعرفة سبب النزيف. بعد هذا الجهد تبين أن لديها ورما خبيثا بالمثانة جرى استئصاله بالمنظار في الجلسة نفسها. كان التعامل معها صعبا للغاية، فبحكم التخصص جرى استدعائي، وبحكم التخصص أصبح لي دور إضافي. وقتها كنت في سنوات التخصص الأولى، فحضرت المنظار مع الجراح الكبير الذي قام باستئصال الورم. كان وجود الورم نفسه مفاجأة لي: كيف تمكّن السرطان من التسلل إلى مثانتها؟ فمثانتها خالية تماما من أي أثر للبلهارسيا، وهي ليست مدخنة وليس في محيطها القريب من يدخن أصلا، وبحكم العزلة فهي لم تتعرض لما يكفي من التلوث. إذن من أين جاء؟ المهم، تم إرسال العينة إلى معمل الباثولوجيا الإكلينيكية من أجل الفحص المجهري ومعرفة نوع الورم ودرجته. وكان عليها أن تبقى بالمستشفى وبالقسطرة البولية يومين أو ثلاثة، ولم يكن إقناعها بذلك هينا. أكدت نتيجة الفحص المجهري للعينة أن الورم

خبيث، وسطحي لكن من الدرجة الثانية وهو ما يستدعي فصلا من العلاج الكيماوي الموضعي، ثم منظار آخر بعد ثلاثة أشهر، وهو ما لم تخضع له أبدا. حصلت على جرعة من العلاج الكيماوي بالمستشفى، ثم خرجت وعادت إلى كفر المياسرة لتقوم ابنتها الكبيرة برعايتها. وكان علي أن أسافر وراءها إلى الكفر. في هذه الزيارات كنت أقوم بتثبيت قسطرة بولية وحقن العلاج من خلالها، وإغلاقها لمدة ساعتين، ثم تفريغ العلاج منها قبل نزعها، وهكذا مرتين أسبوعيا. في كل مرة كانت التحايلات هي هي، وكانت الدعوات هي هي. حين تكشفها ابنتها لي، تغطي هي وجهها بيديها باكية وتقول: سامحني يا إله. وحين تدخل القسطرة فيها تقول ارحمني يا إله. وحين يتدفق العلاج الكيماوي إلى مثانتها محدثا حريقا هائلا داخلها، تقبض ساقيها بعنف وتنفخ بقوة وسرعة قائلة: لطفك يا إله، لطفك يا إله. وحين أقوم برفع القسطرة منها تدعو لي دعوات سريعة متلاحقة: يسعدك الإله، يحفظك الإله، يحميك الإله. كانت طريقتها المختلفة في الدعاء ملفته ومثيرة للتساؤل. فنحن عادة نقول الله يحميك، الله يخليك، الله يحفظك، وهكذا. نذكر الله أولا ثم نضيف ما نتمناه. أما هي فتلفظ الأمنية أولا. تركيب الدعاء بهذه الطريقة كان يعطيني إحساسا أنها تخاطب إلها غير الذي نعرف، ويعطيني مجالا للتفكير بشيء وثني لدرجة التلفت حولي والبحث في الغرفة عن تمثال الإله الخفي الذي تخاطبه. طبعا هي لم تشاهد التلفيزيون ولا مرة واحدة في حياتها، وبالتالي لا يمكن القول أنها اقتبست هذه الطريقة في الدعاء من أحد الأفلام أو المسلسلات

الدينية، فمن أين جاءت بهذه الطريقة البعيدة؟ الله أعلم. ويبدو أن الإله الذي تدعو له استجاب لها، وشفيت من السرطان، ومازلت تعيش بعد هذه المحنة بما يقترب من عشرين عاما. لكن يبدو أيضا إن استجابة الإله كانت محدودة، ومرتبطة بقوة «متشولح» الكبير، فرغم أنها طوال المدة الماضية تعيش خالية من كل أمراض الشيخوخة المعروفة إلا أنها تعاني معاناة شديدة. ربما لأن الإله لم يرحمها من رؤية أبنائها يمرضون ويموتون في حياة عينها. فهي حين مات أصغر أبنائها، لم تتأثر كثيرا، كان موته متوقعا، وكان لديها غيره كثيرون. وبعد ربع قرن من موته، مات الذي كان يرافقه في رحلة الموت إلى باريس، شعرت أن الإله يختبرها، فصمتت معاتبة: لماذا يا إله؟ وحين مات الثالث بعد خمس سنوات أخرى وبالمرض نفسه (مضاعفات الهيباتيتس) شكت أن الإله يعاقبها وبكت لذلك كثيرا. وحين مات الرابع وهو البكري وبالمرض السابق نفسه تأكدت أن الإله لا يحبها، وتأكدت أنه يعاقبها على ذنب لا تعرفه. فهي التي ظلت تدعو، مثل كل النساء، لأبنائها بطول العمر وألا يريها الإله فيهم مكروها، عاشت لترى أبناءها يمرضون دون أن تكون قادرة على تمريض أي منهم. ثم عاشت لترى الإله يأخذ أبناءها واحدا وراء الآخر، وبترتيب معكوس لتاريخ ولادتهم. هناك من أبنائها من مات قبل الوصول إلى السن القانونية للموت في بلادنا، ومنهم من مات في السن المقررة، أما هي فتعاني من ضعف ذاكرة الإله. هكذا كانت تقول في جنازة آخر موتاها: لماذا أخذتهم ونسيتني يا إله؟

جينات مغشوشة

في الساعات الأولى من أحد صباحات أكتوبر سنة ٢٠٠٢، دق جرس الهاتف على غير العادة، وعلى غير المتوقع، كانت أمي على الطرف الآخر، بصوت مفزوع، تطلب مني أن أتوجه بسرعة إلى بيت أختي التي تحمل اسم ستي «فريدة» لأن ابنتها الصغيرة «سارة»، والتي تبلغ من العمر تسع سنوات فقط، والمريضة منذ ولادتها، في حال متأخرة جدا.

لم أكن أول الواصلين، كان أخي الأصغر قد سبقني إلى هناك، ثم جاء أخي الكبير. فتحت لي عمتي «محراك الشر»، وحماة أختي في الوقت نفسه، وتركتني على الباب دون كلمة واحدة، وراحت تلف وتدور حول نفسها، تبكي دون دموع كالعادة، وتنعي حظ ابنها في خلفته العليلة. وكانت أختي في غرفة نومها، تمسح على رأس سارة التي تتصبب عرقا، وتتنفس بصعوبة بالغة. قررنا أن نأخذ الصغيرة إلى مستشفى الأطفال الجامعي على الجهة الأخرى من الشارع. رفضت سارة بشدة لا تتناسب إطلاقا مع حالتها المتدهورة بالفعل. وبعد التحايل وافقت بشرط أن تلبس زي المدرسة الجديد الذي اشترته لها أمها قبل أسابيع ولم تلبسه بعد. ألبستها أمها القميص الأبيض والمريلة

الكحلي فوقه، والجورب الأبيض. أجلستها على طرف السرير، وجلست تحت رجليها على الأرض. ألبستها فردة الحذاء اليمنى، وقبل أن تلبسها الفردة اليسرى وضعت سارة يدها على رأس أمها، وقالت بصوت خافت جدا: بلاش. قالت لها أمها: بلاش إيه؟ قالت البنت: بلاش المستشفى. ليه يا حبيبتي؟ قالت أنا حاسة أني بموت. وسقطت على السرير ميتة.

كانت سارة، حتى تاريخه، آخر موتى الجينات المغشوشة التي غزت العائلة، ليس عن غفلة منها، ولكن مع سبق الإصرار والترصد. فإذا كنت لا أعرف ما الذي دار في أذهان رجال العائلة ونسائها حين ولد صلاح ابن عمتي عزيزة بإصبع زائد في يديه ورجليه إلا أنني استطيع أن أؤكد أنهم حرصوا على إخفاء كفيه وقدميه عن العيون، وكفوا على الخبر ماجور. كان ذلك في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، ولم تكن الجينات معروفة بعد، وحتى إذا كانت معروفة فهي لم تكن قد وصلت بلدنا. ومن المرجح أنهم قالوا أنها «عين»وأصابت الحاجة عزيزة، أوعين وأصابت الحاج سعيد زوجها. لماذا هما دون غيرهم من خلق الله؟ الله أعلم. لكن أحدا لم يفكر أن في الأمر خلل ما، وأن هذا الخلل وراثي الطابع، وأن صلاح، وإن كان أول المعطوبين في تاريخ العائلة، فإنه لن يكون الأخير. وهو ما حدث بالفعل، وأحال حياة الجيل الأول من أحفاد «علي» إلى دراما مؤلمة. والمؤلم أكثر أن هذه الدراما كانت بيد الأحفاد أنفسهم، الأحفاد المؤهلين علميا بحيث لا يقع مثلهم، أو لا يوقع مثلهم نفسه، في هذا الفخ. فبعد سنوات قليلة من

موت صلاح ابن عمتي عزيزة في باريس، تقدم أخوه، الذي صحبه في رحلة الموت هذه، للزواج من أختي الكبيرة. ويقال في هذا الشأن أنه حين كان صغيرا، غالبا قبل أن أولد، كان أبي وأولاده في زيارة للبلد، أرسلته عمتي لتحية خاله حاملا إوزة هدية لعروسته التي هي أختي الكبيرة. لا أعرف بالضبط ما هي علاقة عمتي عزيزة بالإوز لكن هذا هو ما يقال. المهم، مرت أيام ودارت أيام، وأصبح ابن عمتي معيدا بكلية الطب البيطري، ثم مدرسا مساعدا يستعد للسفر إلى موسكو للحصول على درجة الدكتوراه. وكانت أختي هي الأخرى قد تخرجت وتعمل أخصائية اجتماعية بواحدة من مؤسسات الأحداث في الصعيد. قبل السفر، تذكر ابن عمتي أنه خطب أختي بإوزة عندما كانت هي وكان هو طفلين صغيرين، فتقدم لها من جديد. ورغم أن العائلة في هذا الوقت لم تكن في أفضل حالتها من حيث الترابط والتماسك، إلا أن أبي وافق دون تردد، بينما وافقت أمي مضطرة. لم يكن هناك ما يعيب ابن عمتي إطلاقا، بل بالعكس فقد كان رحمه الله واحدا من أفضل من قابلتهم في حياتي. لكن هو نفسه، وكمشروع عالم في الباثولوجيا وقتها، لم يفكر في أن زواج الأقارب يحمل مشاكل وراثية معروفة وثابتة. تم الزواج بسرعة، وسافر ابن عمتي تاركا أختي في بيت أبيها. حملت أختي، ومرت شهور حملها دون مشاكل، لكنها تجاوزت موعد الولادة المقرر سلفا من قبل أشهر أطباء النساء والتوليد بالمنصورة وقتها. وبدأ القلق يغزو بيتنا، وحين تبين أن جنينها مات في بطنها منذ فترة، تخلت أمي عن طبيعتها الهادئة والرزينة وصبت كل ما تعرفه من لعنات على

الطبيب المشهور، ولجأت إلى طبيب آخر. كانت لحظات عصيبة جدا، وعصيبة جدا، مازلت أذكر تفاصيلها بدقة رغم مرور ثلاثة عقود كاملة على هذه الأيام. دخلت أختي إلى حجرة العمليات مذهولة، بعد وقت كدهر خرج الطبيب حاملا قصعة لامعة وبها قطعة من اللحم الغامق مبقعة بأخضر العفن. ورغم سوء حالة الجثة كان بالإمكان التعرف على إصبع زائد في كلتا يديه. ولم يقل أي أحد أي شيء. كفينا على نفس الخبر نفس الماجور.

بعد شهور قليلة تعافت أختي وسافرت لزوجها. وبعد عام أو أكثر قليلا، تكرر المشهد نفسه في موسكو. وُصبت اللعنات على الأطباء الروس الجهلاء الذين تركوا الطفل يموت في بطنها، مثلما فعل الطبيب المشهور في المنصورة. وبدأنا نندب من جديد الحظ التعس الذي أوقعنا في أيدي أطباء جهلاء لا يعرفون ما يفعلون بالبشر. وطبعا لم نسأل نحن هل كان للطفل الثاني إصبع زائد أم لا. المؤكد أن زوج أختي كان يعرف أن ما يقتل أطفاله في بطن أمهم ليس الإصبع الزائد، لكن يقتلهم خلل وراثي أعمق كثيرا من هذا الإصبع، خلل يجعلهم غير قابلين للحياة، فيموتون. ومن الواضح أن هذا الخلل يصيب الذكور فقط، لأن أختي أنجبت بعدها طفلة رائعة سليمة تماما. فمن أين جاء هذا الـجين المغشوش؟ الـجين أو الجينات التي أحالت حياة أختي الكبيرة إلى سلسلة من تكرار الإجهاض حتى تمكنت من إنجاب طفل ذكر جندت كل طاقتها وطاقة زوجها من أجل الحفاظ عليه. فقد ولد بقلب مثقوب، وصوان أذن منقوص، وخصي معلقة، ونقص حاد في

هرمون النمو. وبعد سنوات طويلة من التنقيب في الصيدليات على حقن الهرمون، نجح الأطباء في واشنطن فيما فشل فيه أطباء باريس قبل عشرين عاما كاملة. أغلقوا الثقب، وأنزلوا خصيتيه إلى مكانهما الطبيعي، وأكملوا صوان الأذن. وبعد سنوات أصبح الطفل شابا قويا لا يدرك حجم الجهد العصبي والبدني الذي تحمله الأب والأم من أجل إعادة تصنيعه، وإبقائه حيا.

بعد أن وضعت أختي الكبيرة أول أطفالها الموتى، وبعد شهور قلائل من سفرها إلى موسكو، أوفد ابن عمتي «محراك الشر» ـ وقتها كان يعمل طبيبا لأمراض النساء والتوليد بدولة الكويت ـ أصغر أعمامي لخطبة أختي الثانية التي كانت وقتها طالبة بكلية الطب. كان الطلب مفاجئا بدرجة تكفي لإرباك دولة عظمى وليس مجرد عائلة بسيطة مليئة بالعقد، ومعقدة بالمخاوف. صحيح أن ابن عمتي يعرف أن لخاله السيد ابنة اسمها فريدة، ويعرف أن فريدة تدرس في كلية الطب، وصحيح أن فريدة تعرف أن لعمتها فلانة ابن يعمل طبيب نساء وتوليد، لكن هذه المعرفة التي لم يلتق فيها الطرفان أكثر من خمس دقائق متفرقة على مدار عقدين من الزمان أو أكثر لا تصنع أي مقدمات لرابط أكثر مما هو قائم بالفعل. والمربك فعلا هو الحقائق المجردة التي لم تكن تخفى على أحد. فعمتي هذه تكره أبي اشد الكراهية، فكيف تناسبه؟ وأبي نفسه يكرهها بشده فكيف وافق؟ والأغرب من ذلك أن العريس طبيب، والعروس مشروع طبيبة، والموت السابق مازال ساخنا فكيف جرؤ هو على التقدم وكيف غامرت هي بالموافقة؟. لكن القصة ذاتها أسخف

من ذلك: يقال أن ابن عمتي الطبيب وصل للعمل بالكويت سنة ١٩٧٨، بدعوة من أخته التي سبقت إلى هناك مع أول طلائع جيش المدرسين والمدرسات المعارين والمعارات بعد حرب أكتوبر وما نتج عنها من ارتفاع أسعار النفط واتساع الثروة. وحين تم تعيينه بأحد المستشفيات اكتشف أنه لكي يحصل على سكن مؤثث داخل المستشفى لابد أن يكون متزوجا، ولم يكن، فما العمل؟ ما العمل والموضوع يجب أن يحل الآن وليس غدا؟ تفتق ذهن عمتي، التي كانت تقيم في ذلك الوقت عند ابنتها بالكويت، عن فكرة تزويجه من أختي. طبعا هي تدرك أنها تكره أبي فعلا، كما أنها تكره أمي قولا وفعلا، وبالتالي تكره نسلهما، لكن شقة مجانية مؤثثة بالكويت تستحق، خاصة أنها ستتيح لها أن تقيم مع ابنها وتستريح من زوج ابنتها الذي بدأ ينزعج من تدخلها المستمر في حياته. ولأن الوقت لا يكفي للبحث عن زوجة خارج إطار العائلة، وليس في بنات العائلة من هي في سن الزواج سوى أختي فريدة، فليكن. وتدرك عمتي، ليس بذكائها الأنثوي لكن بسابق خبرتها كيف يفكر أبي وكيف تفكر العائلة كلها. فهم حين زوجوها من الأزهري العليل كان هدفهم التخلص من عبئها، عبء الأنثى، وإلقاء حملها على شخص آخر. وتدرك أيضا، بحسها الأنثوي هذه المرة، أن الرجال لا يتعلمون من أخطائهم. فهم حين زوجوها للهدف السابق، لم يتحرروا منها، بل بالعكس أصبح حملها أكبر خاصة بعد أن مات زوجها وترك لها طفلين تعلقت هي وهما في رقبة العائلة التي لم يكن أمامها سوى تحمل المسئولية بكل همة، مع الوضع في الاعتبار جاذبية البطل

العائلي الذي يضحي من أجل أخوته. كانت هذه فرصة مزدوجة أو ربما فرصة ثلاثية لعمتي، فهي من ناحية متأكدة أن أبي ـ وفق فلسفة التخلص من الأعباء تحت ستار الشعور العميق بالمسئولية ـ سيوافق وأن الموضوع منتهي. لذا حين حضر عمي الأصغر يطلب أختي لابن عمتي كان التوكيل الرسمي والموثق في جيبه. ومن ناحية أخرى، أختي طالبة في كلية الطب وبعد سنتين أو ثلاثة ستصبح طبيبة وسيجدون لها وظيفة بسهولة في الكويت وبالتالي يتضاعف المردود وتتراكم الثروة. وأخيرا، وهذا هو الأهم، سيكون بإمكانها الانتقام من سنوات الذل التي عاشتها حين تتمكن من وضع رقبة أبي تحت سكينها، سكين التلويح بتطليق البنت عند كل مشكلة صغيرة كانت أم كبيرة. وربما كان من حسن حظ أبي أنه لم يعش فترة تكفي لوضع رقبته تحت هذه السكين، فقد مات بعدها بقليل تاركا لنا عمتي وبيديها سكاكين كثيرة.

طبيعي أن تكون زيجة كهذه، تمت بهذه الطريقة، وعلى هذه الخلفية، كارثة. وطبيعي ألا تلحق الكارثة الأذى بصانعيها فقط، بل من الطبيعي أن تتطاير الشظايا في كل اتجاه وأن يلحق الأذى بالجميع، سواء كانوا فاعلين مشاركين أو مجرد مشاهدين صامتين على الرصيف المقابل. لكن ما يفتت القلب فعلا هو الأطفال الذين ولدوا تحت مظلة الكراهية هذه.

سافرت أختي إلى الكويت بفستان الفرح!! وكانت مهمتي، بعد أن صحبتها من عند الكوافير إلى بيتنا، أن أقوم بتوصيلها إلى المطار. كانت هذه هي المرة الثانية التي أقوم فيها بتوصيل أحدهم إلى المطار،

فقد سبق وقمت بذلك حين أوصلت أختي الكبيرة إلى المطار نفسه في طريقها إلى موسكو، لكن في المرة الأولى كان أخي الكبير حاضرا أيضا. هذه المرة كنت أنا وهي فقط، وحين عبرت أختي إلى الجهة الأخرى من السور الحديدي الطويل قبل إقلاع الطائرة بكثير، انتبهت إلى أن البوابة التي عبرت من خلالها، فوقها لافتة مكتوب عليها «بوابات الرحيل». ارتجفت، وشعرت بوخزة في صدري، ليس من فراق أختي، فأنا لست عاطفيا إلى هذا الحد. لكنها المرة الأولى التي أكتشف فيها الطعم الحارق لـ«الحاء». تسمرت في مكاني، معلق العينين باللافتة، أجرب كلمات أخرى بصوت مسموع: حب، حبيب حبيب، حنين حنين، حنان، رحيل رحيل رحيل. لم توجعني الحاء في أول الكلمة مثلما أوجعتني في منتصفها. فرغم أن حنين ورحيل لهما نفس الإيقاع إلا أنني وجدت في نفسي أن رحيل موجعة أكثر من حنين. هل لأن الرحيل يسبق الحنين؟ جائز، وربما لأنه لم يكن هناك ما أو من أحن إليه. وأيضا لم أكن قد رحلت من قبل ولم أكن أفكر في الرحيل. الغريب أن كلمة (**departure**) المكتوبة على اللافتة نفسها لا تعني الرحيل بقدر ما تعني المغادرة أو بدء الرحلة والمسير. فلماذا اختارت إدارة المطار هذه الكلمة «الرحيل». هل هو تحذير ضمني للمسافرين بأن من يعبر هذه البوابة لا يرجع منها أبدا، وإذا رجع سيرجع عبر بوابة أخرى، وأيضا لن يكون هو هو. كان هذا ما يدور داخلي ـ كجديد على الفلسفة والكتابة ـ طوال ساعتين أو أقل أو أكثر قضيتها في المطار في انتظار إقلاع الطائرة، عملا بتعليمات أبي، وحتى خلال رحلة عودتي

كانت هذه الكلمات التي تجرحها «الحاء» تتردد داخلي ولا تترك لي فرصة واحدة لتأمل شيء آخر.

المهم قضت أختي شهورا قليلة في الكويت وعادت لتواصل دراستها في كلية الطب. ثم سافرت مرة أخرى وقضت شهور أخرى قليلة وعادت. وفي كل مرة كنت أقوم بتوصيلها واستقبالها كأنني تشريفاتي العائلة. ربما تزامنت هذه العودة الثانية مع مرض أبي الأخير وموته. لكنها في العودة الثالثة كانت حاملا في أول أطفالها. لم يوافق هذا الحمل مزاج أي فرد في العائلة لأنها كانت ما تزال طالبة في الجامعة وباق أمامها سنوات أخرى في الدراسة بعد أن بدأت بالفعل في التعثر دراسيا، فكيف يكون الحال بين الدراسة والحمل والسفر. المهم بعد حمل دون أحداث مؤسفة، وضعت أختي أول أطفالها في بيتنا، وسط فرحة غير مسبوقة، فرحة لم تتكرر ولم نعرف نحن مثلها أبدا، وأيضا لم تدم طويلا. كان الشغل الشاغل لزوج أختي ما إذا كان الولد طبيعيا أم لا. كان الولد طبيعيا جدا وشديد الشبه بأبيه. بعد قليل سافرت أختي بطفلها، قضت شهورا قليلة وعادت. أصبح أحمد ابن أختي لعبتنا الجديدة، كان طفلا أسمرا جميلا، خفيف الروح، لا يكف عن الضحك طوال صحوته، وإذا نام أيقظناه لنلعب به، ونضحك معه. بعد أن أتم أحمد عامه الأول بقليل بدأت حالته بالتدهور. أصابته نزلة شعبية حادة وتلقى من المضادات الحيوية ما يكفي لعلاج فيل أفريقي ضخم لكنها لم تفلح في علاجه. في مثل هذه المواقف طبيعي أن يكون الطبيب حمار. وبعد أن تخلص أحمد من هذه الأزمة سافر مع

أمه إلى الكويت، وهناك مرض من جديد. وهذه المرة ترك المرض علامة مؤسفة في عينه اليمنى. وتوالت المشاكل الصحية على الطفل الذي تحمل كل أمراض الدنيا دون أن يفقد جمال ضحكته في لحظات الصفاء، ودون أن يفقد خفة روحه رغم عصبيته الدائمة. ولم تعد تمر به أزمة صحية دون أن تحفر في جسده علامة ما. وبدلا من تصبح أختي طبيبة، تحولت إلى ممرضة. لم نكن نعلم ما هي المشكلة المرضية التي يعانيها أحمد على وجه التحديد، ولم نكن نعرف ما إذا كانت أختي وزوجها يعلمون. كنا نعرف أنه مصاب بتليف في القنوات المرارية، وتليف في الحويصلات الهوائية. لكن دون أن نعرف لهذا التليف سببا. وقبل أن نستوعب الموقف فوجئنا جميعا أن فريدة حامل للمرة الثانية. هذه المرة لم تستطع أمي أن تكتم غضبها، لكن غضبها ذهب في الفراغ بعد أن وقعت الفأس في الرأس. و في هذه المرة وضعت أختي طفلة تشبه أباها وأخاها شبها شديدا. كان ذلك في الكويت. وأطلقوا عليها اسما ليس غريبا فقط على مسامعنا لكنه ربما يكون غريبا أيضا على محل ميلادها: »رولا«. لم تستطع أمي أن تنطقه بشكل صحيح ولو لمرة واحدة. كانت أمي التي لم عرف من العملات سوى القرش والجنية، تقول على الدولار «دورار»، وبالمثل كانت تقول على رولا «رورا»، وهو ما يعني وجود خلل في تركيب جهازها الصوتي وليس في الدنيا التي انقلب حالها وأربكت لسانها الطليق. لم تكن رولا تشبه أخاها في الشكل فقط، بل في المرض أيضا. فمنذ الشهور الأولى لمولدها تبين أنها تعاني من المشاكل نفسها وبشكل أكثر حدة من أخيها. كان المشهد

مؤلما أشد ما يكون الألم وأنت ترى طفلا في الرابعة من عمره، وبيده بخاخ الفنتولين، يتنشق، ويضعه في جيبه، ليجعل يديه حرتين، ليس من أجل اللعب بحرية، لكن من أجل أن يحك جلده بيديه الاثنين معا، وبعنف يدمي. لكن المشهد يكون أشد إيلاما وأنت ترى الأخ والأخت معا في وصلة طويلة من الحكة الرهيبة. كنا قد بدأنا ندرك أنهما مصابان بـ«سيندروم» مرضي معين. وبما أن الأعراض تظهر في العام الأول من العمر فهذا يعني مشكل وراثي، جينات مغشوشة، جينات عميلة، تجعل الجسم يتعرف على نفسه كعدو، وتوسوس له لكي يأكل نفسه بنفسه، وعلى مهل. كانت كل أزمة مرضية يمر بها أي منهما تحمل تهديدا واضحا بقرب النهاية. لكنها لا تأت بسرعة كافية ولا بسهولة كافية. كان على سكين الألم أن تنغرس في قلب الجميع لآخرها.

دخل أحمد المدرسة، وكان نابها بشكل مؤلم. كان يمسك القلم بثقة شديدة، لم ينزل عن السطر مرة واحدة، ولم يقبل إلا أن يكون الأول على فصله. وفي اللحظة التي يمتحك فيها الأمل يسحبه منك بأزمة أعنف من سابقتها. وكان جزء كبير من مشكلته أن المرض يقعده في البيت ويبعده عن المدرسة. لم تكن علاقته بـ«رولا» على ما يرام. كلاهما مريض بالمرض نفسه، ويحتاجان لرعاية تفوق ما يستطيع أن يقدمه شخص واحد حتى لو كان هذا الشخص هو أجمل الأمهات. وسط هذا اليأس العميق حملت أختي للمرة الثالثة، ووضعت طفلة تشبهها شبها كبيرا. وبمرور الوقت تبين أنها لا تعاني من نفس السيندروم. لكن قبل أن تكتمل هذه الفرحة الصغيرة بنجاتها من الجينات المغشوشة،

دخلت رولا العناية المركزة مصابة بالتهاب رئوي عنيف، لم تنج منه. وطبعا لم يسلم الأطباء، زملاء زوج أختي في المهنة، وفي المستشفى ذاته، من اللوم والتأنيب بحجة أنهم وصفوا لها دواء خاطئا!! ولم تسلم أختي نفسها من اللوم لأنها لم تمنعهم من ذلك!! دفنت رولا بصحراء الكويت قبل «الغزو» بأسابيع قليلة. وسافرت أختي وزوجها ومعهم أحمد إلى لندن في خطوة لم تكن ذات فائدة كبيرة، ليس لأنها تأخرت ولكن لأنها لم تكن ذات قيمة في أي وقت من الأوقات. كل ما جرى أنه تم عمل مسح للكروموسومات وتحديد الجينات المغشوشة، واسم السيندروم، ونصح الأبوين بمزيد من محاولات الإنجاب حيث توجد دائما فرصة لولادة أطفال أصحاء.

لم يتمكن زوج أختي من العودة للكويت، ولم يستطع البقاء في القاهرة، وأنقذه من الملل عقد عمل بالطائف ومازال بها إلى الآن. لكن وبعد مرور خمس سنوات على وجوده وأسرته بالطائف، وفي الأجازة السنوية كان أحمد في حال أكثر سوءا من أي وقت آخر. كان في الرابعة عشر من عمره، لكن حجمه لا يتجاوز حجم طفل في السابعة من العمر. كان له وجه عجوز في السبعين، وصدر حمامة منتفخ بالهواء، وبطن اسطواني مملوء بالماء، وجلد سميك مجعد مليء ببثور جديدة، ومئات الندوب الباقية من البثور القديمة. قضيت معه ليلتين في العناية المركزة إثر غيبوبة كبدية عميقة، وعدنا بجثمانه الخفيف إلى كفر المياسرة، رأسه في حجر أبيه وباقي جسده في حجري.

طوال الساعات الثلاث التي استغرقتها المسافة من قصر العيني

الفرنساوي في قلب القاهرة إلى مقابر العائلة في البلد كان رأسي يشتغل بعنف. لم أكن أعرف هل أتعاطف مع هذا الأب المسكين الذي ينجب أطفالا يخطفهم الموت، أم ألومه. وعلى أي شيء يمكن أن يلام. صحيح أنه هو الذي ينقل هذه الجينات إلى أطفاله، لكن لا حيلة له في ذلك. وتقرير لندن يشير إلى أن المسألة لا علاقة لها بكون زوجته هي ابنة خاله. أي أن زواج الأقارب ليس مدانا في هذه الحالة، وأن أي زوجة أخرى كانت ستنجب له أطفالا يعانون المشاكل نفسها. إذن هو شخص مسكين فعلا، ولد لأب عليل، غالبا هو مصدر هذه الجينات المغشوشة، وعاش يتما مبكرا، وحياة صعبة، والذي زاد وغطى أنه لم يعرف كيف يفرح بخلفه المريض. لكن، ومع أن شخصا في مثل موقفه هذا لا تملك سوى أن تتعاطف معه، لم أعرف ما الذي كان يحول بيني وبين التعاطف معه بشكل خالص. ربما لأنه ابن عمتي. عمتي التي لم تحب أحدا من أبناء «السيد أفندي» في يوم من الأيام، وأرضعته هو شخصيا هذه الكراهية وهذه الغيرة. يعني يعملها الكبار ويقع فيها الصغار. إذن على من يقع اللوم اليوم، لابد من شماعة، من شخص يلام في مثل هذه المواقف.

كنت أرمي بطرف عيني عليه من وقت لآخر، حريص ألا تتقاطع نظراتنا، ألا أراه وهو يقبل رأس الكفن مرات ومرات. هو شخص مأسوي، ولد تحت مظلة الفزع العائلي، وعاش في ظلها المهزوز، فلم يعرف كيف يحب الحياة، ولم يعرف كيف يحب الآخرين، ولم يعرف سوى الشكوى والتأفف من كل شخص ومن كل شيء. وسيط

نموذجي للمأساة. لكن ما ذنبنا نحن؟ أبناء البطريرك؟ ذنبنا أننا أبناءه، أبناء الأفكار المغشوشة والخيارات المغشوشة. الطبيعة لا تخطئ، ولا تخلق جينات معطوبة من تلقاء نفسها، من دون أن يستفزها أحد. والواحد لا يستطيع أن يلوم الطبيعة على ما تفعل، وللأسف لا تستطيع أن تلوم شخصا واحدا على استفزازه للطبيعة. كانت هذه العائلة كلها، وطوال الوقت، تعمل ضد نفسها. كان الموت يجمعها، ثم تعصف محاولاتها الرديئة من أجل صناعة الحياة بما جمّعه الموت. كانت ترى في الزواج من بعضها وسيلة للتماسك. ولم تتعلم أبدا أن كل زيجة داخلية كانت تضع بين أبنائها ما صنع الحداد. ولم تتعلم أبدا أن فكرتها المغشوشة عن التماسك تقودها للتشتت والانقراض. صحيح أنها ستنقرض في جميع الأحوال، لكن هل يجب أن يكون الانقراض مؤلما إلى هذا الحد؟.

وصلت السيارة إلى المقابر. كان هناك الكثير من البكاء ومن العويل. كنت أقف بعيدا، أسند ظهري إلى جزع صفصافة ضخمة. والهمهمة القريبة كانت تأتيني من بعيد، بعيد جدا. وبعد الانتهاء من الدفن، وأثناء العودة من المقابر شعرت أنني على وشك السقوط. كان أخي الكبير يسير أمامي، فوجدتني أتعلق في ذراعه منهارا في نوبة بكاء هستيري، أخذني في حضنه، وأنا أردد: وديني عند بابا، وديني عند بابا. كانت المرة الأولى والأخيرة في حياتي التي أنهار فيها إلى هذا الحد. كان انهيارا مكتوما منذ سنوات طويلة وحان وقته. وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أشعر فيها أن أبي الذي مات منذ خمسة عشر عاما قد

مات فعلا. وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أشعر فيها أنني بحاجة إليه. كنت متمسكا بأخي الكبير خشية السقوط والتمرغ في تراب المقابر أمام الخلق، وحين أجلسني على المصطبة التي يعلوها القبر، وعند موضع الرأس، استندت إلى أبي. وبدلا من أقرأ له الفاتحة، أو أقول الله يرحمك «يابا» وجدتني أردد داخلي: لماذا فعلت بنا كل هذا يا أبي؟.

فاصل شخصي

واحد واحد واحد وستين

في بيت الجيار، وفي الحجرة القبلية من البيت المعروفة بـ«أوضة الفراخ»، لامست رأسي الأرض لأول مرة. ويقال أن أمي كان بطنها كبيرا جدا لدرجة الشك في أنها حامل في توأم. ويقال أنها قبل تشريفي بيومين نزلت عليها كميات ضخمة من السوائل التي كنت أعوم فيها، وتدريجيا بدأت بطنها تصغر. طبعا تم استدعاء ستي سكينة من البلد. ويقال أنني حين ولدت كنت مثل الفأر المبلول: ضئيل جدا، أزرق اللون، متغضن الجلد من كثرة المياه التي عشت فيها تسعة أشهر. وطبعا لم يفطن أحد أنني كنت على وشك الموت في الداخل. ويقال أيضا أنني ولدت ساكتا، لم أبك، وأن ستي سكينة ظلت تقلب فيّ، وتقرصني من وقت لآخر حتى أبكي وحتى تتأكد هي أنني على قيد الحياة. ويقال أن حال الخرس هذه ظلت ثلاثة أيام بلياليهم، بعدها انطلقت في بكاء قوي لم ينقطع إلا بعد أن حملني أبي على كتفه وراح يمشي بي بهدوء في صالة البيت الطويلة البلهاء، وأن هذه الطريقة أصبحت هي الطريقة الوحيدة لإسكاتي. تأكدت ستي سكينة أنني ذكر حي (بعد ثلاث بنات) فعادت إلى البلد مع واحد من أخوالي كان قد حضر خصيصا من البلد لمتابعة الموقف.

وسط هذا الحشد الكبير من البشر والطيور الداجنة لم أكن «البكري» ولم أكن آخر العنقود، إلا أن ظروفا كثيرة تعاونت معا لكي ألعب دور هذا الأخير. فأبي مثل الغالبية العظمى من الآباء، والأمهات أيضا، يفضل البنين على البنات (وزاد من تعصب أبي ضد البنات ما لقيه هو وإخوته على يد عماتي). وكان ترتيبي هو الخامس في هذا الطابور، يسبقني ذكر واحد وثلاث بنات، بما يعني أنني جاي على شوق، وعزز من هذا الشوق أن أمي كانت قد انفردت مبكرا بأخي الأكبر وأن السادس في الطابور كان أنثى، تم التخطيط أن تكون الأخيرة، طبعا فشلت الخطة، فاحتللت موقع آخر العنقود، حتى بعد أن ولد أخي الأصغر بفاصل ست سنوات كاملة كانت كفيلة بتثبيتي في هذا الوضع لأطول فترة ممكنة. ومن جهة أخرى كنت الوحيد في هذا الطابور الذي يحمل ملامح أبي، فيما الباقون يشبهون أمي، كأني كنت الدليل الوحيد على فاعلية جيناته المتنحية.

ويقال أن أبي وأمي كانا في زيارة لواحدة من عماتي في دمنهور، وطلبت أمي من أبي أن يأخذها لزيارة ضريح الشيخ إبراهيم الدسوقي، المعروف بسره الباتع، والكائن في مدينة دسوق القريبة من دمنهور. وهناك أخبرته أنها تشعر ببدايات الحمل، فاتفقا على أنه إذا جاء المولود ذكرا سيكون اسمه إبراهيم، وجئت. بعد ثلاثين عاما من وجودي على ظهر الدنيا ستحكي أختي التي تكبرني بعامين الحكاية نفسها لبناتها، لكن ستضيف عليها أن أبي كان قد أطلق على بكريه اسم صلاح الدين، وكان يتمنى أن يرزق بطفل آخر يسميه نور الدين، لكن شاءت الظروف

أن يسمي إبراهيم. أمي نفسها تسمع الحكاية من أختي فتنظر إلى الجهة الأخرى دون تعليق. وأنا أسمع الحكاية من أختي وأندهش.

كنت طفلا شقيا جدا، لا أستقر في موضع أو في وضع لأكثر من دقائق معدودة، ولا أترك شيئا في موضعه، ولا أمسك شيئا إلا أضعته أو كسرته وربما «عورت نفسي» أو أضعتها (تهت في السوق التجاري الكبير لمدينة المنصورة والمعروف رسميا بشارع الثورة فيما يطلق عليه الناس «السكة الجديدة» مرتين، وفي الإسكندرية مرة واحدة في سن الرابعة). وكما هو معروف الطفل الشقي أكثر جاذبية من الطفل الهادئ. هكذا وبجمع الشوق والحب والخوف أصبحت طفل أبي المدلل. وطبعا زاد هذا التدليل، بما يمنحه من عصمة تنجي من العقاب، من شقاوتي. ونتج عن كل هذا شعور طفولي بالتميز، وازداد هذا الشعور بعد أن التحقت بمدرسة النيل الابتدائية المشتركة. فترتيب الأسماء أبجديا يجعلني أول اسم في الكشف، بل في الصف الدراسي بأكمله، وطبعا لم استقبل المسألة أبجديا كما هي بل تصورتها نوعا من التميز. ومنذ اللحظة الأولى لدخولي المدرسة، وبأقل مجهود، كنت الأول على الفصل وعلى المدرسة كلها، وبالتالي أصبحت تلميذ المدرسة المحبوب من كل المدرسين والمدرسات خاصة «أبله وداد».

وفي المدرسة أيضا اكتشفت أن تاريخ ميلادي هو ١/ ١/ ١٩٦١: ياه أنا مولود في أول يوم من الشهر الأول في العام الأول من الستينيات. لابد أن يكون لكل هذا معنى؟. لكن طبعا لم أنشغل بالبحث عن هذا المعنى، لأنه موجود فعلا ومتحقق فعلا. هكذا، كنت اشعر أنني أفضل

من جميع إخوتي في البيت ليس لأنني المفضل عند أبي فقط ولكن لأن درجاتي في المدرسة تفوقهم جميعا، وأنا الأفضل في المدرسة أيضا لأن درجاتي هي الأعلى. إذن أنا خارج المنافسة، على القمة، محور الكون، والحياة تجهزني لشيء مميز أعيشه بالفعل. غرور، ولم لا؟.

قبل الوصول إلى سن المدرسة رفضت وبإصرار أن ألتحق بكتّاب الشيخ عبده. كان الكتّاب، الذي يحتل الدور الأرضي في بيت يمتلكه الشيخ عبده نفسه، على بعد خطوات قليلة من بيتنا، على أول الشارع، وراء قهوة «نعيم» التي تمتلئ بعمال البناء صباحا ومساء. أما الشيخ عبده فكان تحفة هاربة من الأنتيكخانة. رجل تجاوز الثمانين، بلا شعرة واحدة في رأسه، مصاب بشلل رعاش، ويصرخ في العيال طول النهار: قول يا حمار يابن الكلب إنت وهو: ألفٌ، باؤونٌ، تاؤونٌ، فيما تنهال خيزرانته الطويلة على الجميع دون تفرقه. ومن جهتنا، نحن الذين لم نصل بعد، أو تكاسل أهالينا عن إرسالنا إلى عنده، كنا نتسلل إلى الكتّاب الذي هبطت به الأرض أو ارتفع عليه الشارع، ونمسك في حديد الشباك ونزعق بعلو الصوت: يا راجل يا عجوز مناخيرك قد الكوز، يا راجل يا عجوز مناخيرك قد الكوز. فيخرج لنا بعصاه يسب ويلعن اللي خلفونا واللي خلفوا اللي خلفونا، ونحن نجري ونضحك خاصة حين يتعثر الرجل في جلبابه الأبيض ويسقط فنتوقف عن الجري غارقين في الضحك. لكن الكتاب نفسه أغلق في العام الذي دخلت فيه المدرسة. ويقال أن الولدين محمد عبد العظيم ابن أم السيد العمشة، والشهير بـ«شمو» (لأنه كان يجمع بين شيئين لا يجتمعان معا في

الغالب فهو أشول وفي الوقت نفسه له رأس كبير يأخذ شكل الشمامة) ومحمد شاهين ابن أم بشرى الخبازة تسللا إلى الكتاب واختار كل منهما شباكا، ثم أنزل بنطلونه وأخرج حمامته (ذكره) وراح يبول من خلال حديد الشباك على العيال داخل الكتاب. ويقال أن الشيخ عبده لم يجر وراءهما هذه المرة، لأن العجوز تجمد مكانه من هول المفاجأة، فيما العيال يفرون من الكتاب مبللين ببول الشياطين. بعدها بقليل مات الشيخ عبده وأغلق الكتاب إلى الأبد.

عموما تعلمت القراءة والكتابة على يد أبي وإخوتي، غالبا بدافع الغيرة، وقبل الوصول إلى المدرسة التي دخلتها ناقصا ثلاثة أشهر عن السن القانوني. ذهبت إلى المدرسة بصحبة أختين لي واحدة في السنة الخامسة والأخرى في السنة الثانية. كان هناك الكثير من العيال الغارقين في دموعهم والمتعلقين بأهلهم يرفضون الدخول، ويتوسلون ألا يتركهم أهلهم هنا لوحدهم. لم أبك، ليس عن شجاعة طبعا، ولكن لأنني كنت قد بكيت بما يكفي في الأيام السابقة احتجاجا على الحقيبة البنية القديمة والمخيطة بشكل مذري من كل جوانبها. حقيبة ربما كان أبي نفسه يحملها في يده إلى المدرسة قبل أربعين عاما ولهذا كان يتفاءل بها!!. كانت المدرسة كبيرة جدا، مكونة من ثلاث طوابق وتتخلل جدرانها شبابيك زجاجية ضخمة مدهونة باللون الأزرق وعليها شرائط لصق كاكية اللون، أما الجدران نفسها فمدهونة بالأصفر الرملي كأنها ثكنة عسكرية. ووقفنا في الحوش طوابير طويلة، صفين صفين، وبين كل صفين مسافة لتميز الفصول عن بعضها. القصير قدام

والطويل ورا. كان الجميع يلبس مرايل تيل نادية الكاكية اللون بنفس لون حيطان المدرسة. ثم افتتحت الناظرة الأسطورية «شفيقة البنا» الطابور بكلمة عن العام الدراسي الجديد. ثم تقدم أحد قدامى التلاميذ وبدأ يزعق: مدرسة صفا ويرد الجميع في صوت واحد قوي وأقدامهم تضرب الأرض بتحد: قومية، فيرد علينا بطريقة تم تدريبه عليها: عاوز أحـــن من كده إحنا لـــه أول يوم، عاوز الأرض تتهز تحت رجليكم... ثم يزعق مدرسة انتباه فيرد الجميع في صوت أقوى من الأول وأقدامهم تضرب الأرض تهزها وترج جدران المدرسة: عربية. وهكذا مرات حتى تأكد أن الطابور أصبح جاهزا للخطوة التالية. ثم استدار لتحية العلم ونحن نردد وراءه بحماس: تحيى الجمهورية العربية المتحدة، تحيى الجمهورية العربية المتحدة، تحيى الجمهورية العربية المتحدة... عاش جمال عبد الناصر، عاش جمال عبد الناصر، عاش جمال عبد الناصر. ثم دار الطابور إلى الفصول على دقات الطبول: تن تررن تررن، تن تررن تررن، تن تررن تررن.

قادتنا أبله وداد إلى الفصل:أولى ثاني. ثلاث صفوف من التخت الخشبية، بنية اللون ومتهالكة نسبيا. وراحت ترتب الجميع وفق قاعدة القصير قدام والطويل ورا السابقة. ووضعتني، بحكم أنني الأقصر والأكثر ضآلة في الفصل كله، في التختة الأولى من الصف الأوسط أمام مكتبها مباشرة، أي في أكثر المواقع تميزا. وطبعا سنة أولى تنتهي يومها قبل سنة خامسة. كان من المفترض أن أنتظر أختي الكبيرة لكي أعود معها إلى البيت، ومعنى هذا أن أظل في الشارع ساعة كاملة أنتظرها

وهو ما لم يحدث. خلعت المريلة وربطتها على كتفي، وربطت الشنطة الحقيرة المليئة بالكتب الجديدة في حبل وجدته في الطريق، وسحبتها مثل كلب، ورجعت إلى البيت. وحين غابت أختي ذهبت أمي لتبحث عنها فوجدتها ماسكة في بوابة المدرسة الحديدية مرعوبة وغارقة في دموعها لأنني ضعت. عادت بها أمي إلى البيت، وما آن رأتني حتى انهالت علي ضربا معلنة أنها غير مسئولة عن ذهابي وعودتي من المدرسة منذ اليوم. وهو ما حدث فعلا لأنني في اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة وحدي وعدت وحدي. لكن بعد شهرين أو ثلاثة من بداية أول عام دراسي لي، سلمتني أبله وداد جواب مغلق من أبله الناظرة إلى ولي أمري يفيد عدم حضوري إلى المدرسة مرة أخرى لأنني لم أصل إلى السن القانوني بعد. سلمت الخطاب لأبي باكيا. كنت قد أحببت المدرسة بجد، ومنذ اليوم الأول، كانت المدرسة وقتها عالما كاملا جذبني بشده، كنت أتعامل مع «سوسن ونصر» باعتبارهما طفلين حقيقيين وليس رسما كاريكاتوريا في كتاب القراءة. مر عليّ يومان في البيت كأنهما سنة، لا أعرف ماذا أفعل سوى الكلام وبصوت عال، إذا وقفت علي كرسي لأطول الشباك: سوسن تبص من الشباك، ونصر يبص من الشباك، وإذا دخلت الحمام: سوسن تدخل الحمام، ونصر يدخل الحمام. كنت أنا سوسن وأنا نصر والحياة هي كتاب القراءة. في اليوم الثاني صرخت أمي في وجهي: يا أخي كفاية بقى فلقتني بسوسن وزفت بتوعك دول، انزل العب مع العيال في الشارع. ولم أنزل إلى الشارع، بل هربت إلى البلكونه، ووقفت بين البط، ورحت أكتب على

جدارها بالطباشير وبخط كبير نازل يشرب سوسن تدخل الفصل ونصر يدخل الفصل. في اليوم الثالث قال لي أبي ستعود إلى المدرسة اعتبارا من يوم السبت القادم. اصطحبني أبي إلى المدرسة، ودخلنا عند أبله الناظرة وأعطاها خطابا من المديرية، فأعادتني إلى الفصل من جديد. وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي يصطحبني فيها أبي أو أي شخص آخر إلى المدرسة. المرة الوحيدة التي عدت فيها من المدرسة بصحبة أحد كان يوما لا ينسى. كنت في سنة ثانية، وكانت هناك مظاهرات في الشوارع، احتجاجا على نتائج محاكمات الطيران غالبا، جاءت أمي إلى المدرسة لأول وآخر مرة في حياتها، كانت في غاية الاضطراب، منكوشة الشعر، ومشمرة أكمام فستانها الزيتي ذو النقط السوداء، أخذتني أمي أنا وأختي كل واحد في يد وراحت تجري بنا في الشوارع بحثا عن أقصر الطرق الجانبية إلى البيت. كان الناس يجرون في الشوارع أيضا، باتجاه شارع قناة السويس ومديرية الأمن التي تقع على رأس الشارع نفسه. كان هناك الكثير من الدخان وكان المتظاهرون يرددون: لا صدقي ولا الغول عبد الناصر هوه المسئول.

منذ اليوم الأول في المدرسة كان يجلس إلى جانبي طفل يشترك معي في ضآلة الحجم، لكنه كان شديد الهدوء، وشديد البياض، له عينان سوداوان وغائرتان بشكل ملفت، وشعر أشقر مشدود. كان اسمه أبو المعاطي. كانت أمه قد ماتت أثناء ولادته، وكانت جدته لأبيه هي التي تربيه. كان يسكن مع جدته، التي كنا نشتري منها الحليب والكتاكيت وقش الخبيز، في آخر شارع الإمام الليثي. لم يكن تلميذا

خائبا ولم يكن تلميذا نابها أيضا. وكان خطه رديئا جدا لذا كان يتعرض للعقاب كثيرا. وفي سنة ثالثة، وكان ما يزال يجلس جانبي، طلبت منه أبله سامية الطويلة، والتي حلت مكان أبله وداد كمسئولة عن فصلنا، أن يحضر ولي أمره لسبب ما، فانخرط في نهنهة تفلق الحجر، وراح صدره يعلو ويهبط ويصدر أصوات كأن برجا كاملا للحمام يهدل داخله، ثم أغمي عليه، وسقط في حجري. حملته أبله سامية بين ذراعيها وجرت به إلى الممرضة. بعد أن أفاق، وفي الفسحة الطويلة قال لي: أجيب لها ولي أمر منين، أمي ماتت وهي بتولدني، وأبويا مفقود في سينا من تلت سنين، لما يرجع أبقى أجيبه يشوفها عاوزه إيه. وفي اليوم التالي لم يحضر أبو المعاطي إلى المدرسة، ولا في اليومين التاليين. فطلبت مني أبله سامية أن أذهب إلى بيتهم لأعرف سبب غيابه، وذهبت. وما أن رأتني جدته التي لم تكن تبدل جلبابها الأسود لكنها كانت معصوبة الرأس هذه المرة حتى أخذتني في حضنها وراحت تبكي وتقول: صاحبك مات يا إبراهيم، أبو المعاطي مات يا إبراهيم، أبو المعاطي راح لأمه يا ضنايا. لا أعرف كيف عدت إلى بيتنا في أول الشارع. كان وجهي غارقا في الدموع لدرجة أن بعض العابرين ظنوا أنني ولد تائه أو ضاع منه شيء ما، فراحوا يوقفونني سائلين أنت منين يا بني أو إيه اللي ضاع منك يا حبيبي. وفي اليوم التالي رفضت وبشده أن يجلس أي أحد مكانه وفي ذات الوقت كنت أتلفت في كل الاتجاهات غير مستقر في مكاني. وبعد يومين طلبت من أبله سامية أن أغير التختة فنقلتني إلى مقعد آخر في نفس الصف إلى جوار الشباك.

في سنة رابعة ابتدائي، وإضافة إلى الصراع التقليدي بين أول وثاني، باعتبار أن أي شيء أول أحسن من أي شيء ثاني، تبين أن في فصلنا (رابعة/ ثاني) فريقين من الأشرار. كانت مدرستنا تقع في آخر توريل، على الحد الفاصل بين المدينة نفسها والقرى المحيطة بها، لذا جمعت خليطا من أبناء توريل، وأبناء كفر البدماص أو حي الناصرية المنضم للمدينة حديثا، وبعض من أبناء القرى المحيطة. كان التلاميذ من كل فريق يتجمعون معا، وكان الصراع على أشده بين أبناء توريل وأبناء الكفر. أما أبناء القرى فكانوا خارج الحسابات. شلة الكفر يتزعمها الواد سيد فهمي والواد محمد عزت، وكلاهما يقود فريقا لخطف الساندويتشات من أيدي الأطفال الآخرين أثناء الفسحة، وإعادة توزيع الغنيمة على أفراد الشلة. كان السيد فهمي أو سيد جرنجو (لأنه مدمن ترسو حفلة يوم الجمعة صباحا) أسرع واحد في المدرسة، ولم يكن يتوقف عن الجري إلا يوم السبت، حين يلتف حوله أفراد شلته ليحكي لهم بالتفصيل المصاحب بالأداء التمثيلي، الأفلام التي شاهدها أمس. أما محمد عزت فكان شريرا أصيلا، وجهه ملئ بالبثور والجروح، ويداه خشنتان ومشحمتان دائما لأنه كان يعمل كصبي ميكانيكي في العطلة الصيفية وبعد نهاية اليوم الدراسي. كان يحتقر الجميع: التلاميذ باعتبارهم عيال فافي، والمدرسات باعتبارهم نسوان. لم يكن محمد عزت جريئا في الهروب من المدرسة قفزا على سورها فقط، لكنه كان ملك «البلتك» لا ينازعه في ذلك سوى علاء عبد المجيد من رابعة أول، ومن شلة توريل في الوقت نفسه، وغالبا ما تنتهي المباريات بينهم بخناقة

حقيقة. أما شلة توريل فيتزعمها أحمد فهيم الذي ورث الزعامة عن أخيه نبيل الشهير بـ«بلبل» (كان بلبل في ذلك الوقت كابتن فريق توريل للكرة الشراب وكان المنافس الدائم لمحمد طه، وكان يدخن بشراهة حتى أثناء المباراة. كان يقف دائما بجوار الخط من الداخل يدخن وحين تصله الكرة يرمي السيجارة لواحد من أصدقائه خارج الملعب ويستلم الكرة، وما أن يمرر الكرة لزميل أو يصوبها تجاه مرمى الخصم حتى يعود إلى صاحبه، ويأخذ منه السيجارة، وهكذا طوال المباراة). أحمد نفسه بدأ التدخين مبكرا جدا، لكنه كان مدمن ضرب المدرسين والمدرسات. في سنة أولى ضرب مدرسة الموسيقى، وفي سنة سادسة ضرب الأستاذ حامد مدرس اللغة العربية والدين الذي جرى وراءنا في شوارع توريل بالعجلة بعد أن قفزت الشلة كلها من فوق السور. وقد عمل أحمد بأصله وأخلف أخيه الأصغر عبد العزيز على زعامة شلة توريل بالمدرسة.

المحزن في الأمر هو فشلي الدائم في مصاحبة هؤلاء الأشرار الذين كنت أنظر لهم بإعجاب شديد. كان أبناء الكفر لا يعتبرونني واحدا منهم، ربما لأنني أسكن في الشارع الرئيسي، الجزء الغير عشوائي من الحي، السطح الأكثر قربا للمدينة، بعيدا عن الحواري الضيقة المسدودة. أنا نفسي لم أكن أعتبر نفسي من سكان الكفر، بل وكنت أميل لمصاحبة أبناء توريل الذين كانوا، في الوقت نفسه، ينظرون لي باعتباري من سكان الكفر. وكان الفريقان معا ينظرون لي باعتباري مجرد دودة ورق تافهة. الأول على المدرسة: ططظ، إيه يعني، أي واحد ممكن يبقى الأول

على المدرسة، المهم إنك تبقى راجل والعيال يعملوا لك حساب. وظللت مترددا طوال سنوات بين الشلتين. وكانت كل محاولة للتقرب منهما تنتهي إما بخيبة ثقيلة أو علقة ساخنة.

في الصيف الفاصل بين رابعة وخامسة ابتدائي اكتشفت بمناسبة حصول أخي الأكبر على الثانوية العامة أن تاريخ ميلاده هو ١/ ١/ ١٩٥٤. ياه، يا لها من مصادفة سعيدة أن نولد نحن الاثنين في التاريخ نفسه وإن بفارق سبع سنوات كاملة. لكن، الفأر الذي يسكن في عبي دفعني لمزيد من التقصي. فاكتشفت أن أخي الأصغر مولود في ١/ ١/ ١٩٦٧. إذن، المسألة فيها إن؟ لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة سعيدة، ولا يمكن أيضا أن تكون لعبة بيولوجية موفقة. وبمزيد من التقصي تبين أنه ولا واحد منا نحن الثلاثة قد ولد في الأول من يناير من أي عام من الأعوام المذكورة. وأن أبي كان يقوم بقيدنا في سجل المواليد في هذا التاريخ، لكنه لم يفعل ذلك مع أخواتي البنات، بل قام بقيدهم في يوم ميلادهم الحقيقي. إذن لماذا تلاعب في تاريخ ميلاد الذكور؟ هل يرجع ذلك لتفضيله الذكور على الإناث فاختار للذكور تاريخا مميزا؟ أم أن للمسألة علاقة بالتجنيد مثلا؟ لا أعرف، وهو لم يقل لي سببا مقنعا لهذا الفعل. فحين سألته عن تاريخ ميلادي الحقيقي قال: ما أعرفش اسأل أمك؟ وحين سألت أمي قالت: مش فاكره، جايز قبلها بشهرين أو ثلاثة. يا نهار أسود: لم أفقد تاريخ ميلادي المميز فقط ولكن فقدت تاريخ ميلادي كله. كيف أعيش دون أن أعرف تاريخ ميلادي الحقيقي؟ كيف أحدد عمري بالضبط؟ كنت أتباهى بتفوقي المدرسي على أقران أكبر

مني عمرا. بشهور قليلة، نعم، لكنهم أكبر مني. الآن ربما أنا اكبر منهم وبالتالي من المنطقي أن أتفوق عليهم. لالالا أنا في مثل عمرهم وأتفوق عليهم، كانت هذه فكرة مريحة بالطبع. بل أكثر راحة من ذي قبل: لست مميزا لاعتبارات قدرية تتعلق بتاريخ ميلاد مميز، ولكني مميز لأني كذلك، ولتذهب تواريخ الميلاد جميعا إلى حيث ألقت. لكن يبدو أنني ودون أن أدري كنت مصرا على إضفاء نوع من الكونية على الحكاية كلها، رغم أنها بدأت كلعبة مسلية. في هذه الأيام كان أبي يرسلني لشراء جريدة الأهرام يوم الجمعة من «ع الكوبري» (طبعا لم يكن هناك كوبري في ذلك الوقت، لكن، وبعد ثلاثين سنة، عرفت أنه كان هناك كوبري أخضر اللون يربط الكفر بالمنصورة، عابرا الترعة المنصورية المعروفة بالبحر الصغير تمييزا لها عن البحر الكبير أي النيل. وقد تم ردم البحر الصغير وصار مكانه شارع الجيش، اكبر شوارع المنصورة، مع تحويل مسار البحر الصغير إلى خارج المدينة) ليستمتع بقراءة مقال «بصراحة» الذي يكتبه محمد حسنين هيكل، وفي يوم السبت يشتري هو أخبار اليوم ليتابع يوميات أنيس منصور. أما أنا فكنت أتابع أبواب حدث في مثل هذا اليوم، وغرائب وطرائف، وحظك اليوم رغم أنني لم أكن أعرف الفرق بين الدلو والحوت، ولا أعرف برجي الحقيقي. وقررت أن أمتع نفسي بأكبر قدر من الحرية. كنت أقرأ الحظوظ كلها واختار ما يرضيني. فإذا كان أفضلها برج الأسد أكون أسدا، وإذا كان أفضلها العقرب أكون عقربا، وهكذا. لم يقتصر الأمر على الأفضل مثل «هناك ثروة في الطريق إليك» أو «تنال اليوم رضا الحبيب»، بل تطور

الأمر إلى اختيار ما يتفق و«المود» بناعي. فإذا كنت رائقا ومزاجي حلو وكان حظ السرطان، مثلا، مبشرا بيوم جميل ورائق أكون سرطانا، وإذا كنت مكتئبا وكان الثور مكتئبا أقول لنفسي: «الثور اليوم يناسبني». وكان طبيعيا، في سياق اللعب والتسلية، وبمرور الوقت، أن أنتبه إلى أن تاريخ ميلادي المزيف يضعني في خانة الجدي. فاقتصرت مطالعتي لباب حظك اليوم على قراءة الجدي فقط. ورحت أمارس اللعبة نفسها مع الجدي: إذا كان الحظ حلوا أكون جديا، وإذا كان غير ذلك أقلب الصفحة مطمئنا أنني لست من مواليد الجدي. ومثلما بدأت اللعبة انتهت، ولم أعد ابحث في الجرائد عن هذا الباب أصلا.

خامسة ابتدائي

كان صيف ١٩٧٠ سيئا على جميع المستويات. كان أخي الكبير قد حصل على الثانوية العامة بمجموع لا يؤهله لدخول كلية الطب وهذا في حد ذاته، بالنسبة لأبي، كارثة كبرى وخيبة ما بعدها خيبة. كان أخي متفوقا في الرياضيات أكثر من تفوقه في العلوم. وكان يرغب في دخول كلية الهندسة بشدة ومجموعه يؤهله لدخولها بكل بساطة. ولم يكن هذا مرضيا لأبي على الإطلاق. وتخيل أبي حين اكتشف أن مجموع أخي يؤهله لدخول كلية الصيدلة جامعة الأزهر أن هذا يمكن أن يكون تنازلا مقبولا من جانبه. وظل يحايل أخي أن يدخل كلية الصيدلة جامعة الأزهر، باعتبار أن الصيدلة فيها من رائحة الطب مقدار، وفي نهاية الأمر سيكون الدكتور فلان. إلا أن أخي ظل متمسكا بموقفه: إما الهندسة وإما لا. كان أيلول أسودا في بيتنا. خناقات ليل نهار: هندسة لأ، صيدلة يعني صيدلة.. صيدلة لأ، هندسة يعني هندسة. كانت أمي تقف بجانب أخي، وتحايل أبي في أن يرضخ لرغبة أخي في دخول كلية الهندسة. وكان أبي يبتلع أول خيبة له في أبنائه بصعوبة شديدة. لم يكن يتصور أن يكون أبناءه جميعا إلا أطباء، وهذا هو أول الخارجين على أحلامه.

كان أبي يتابع معركة الهندسة/ الصيدلة الدائرة في بيتنا بكل ما أوتي من غضب، ويتابع أحداث أيلول الأسود في الأردن بكل ما أوتي من حزن. انتهت المعركة الأولى بقبول الأمر الواقع، والتحاق أخي بكلية الهندسة جامعة القاهرة. وانتهت أحداث أيلول الأسود بمؤتمر للقمة عقد في القاهرة. في هذا الصيف، ومثل كل صيف، كانت غرفة نوم أبي تنتقل إلى الغرفة البحرية التي تفتح على البلكون الدائري الطويل، وهو ما يعطي أبي فرصة متابعة النمو الطبيعي للبط والفراخ. وتصادف في هذا الصيف الساخن أن أمي كانت تربي مع البط ديوكا رومية. وتصادف أن واحدا من هذه الديوك كان مريضا ومات. في الليلة التي مات فيها الديك الرومي كان أبي جالسا في موقعه المفضل على السرير يتابع نشرة أخبار التاسعة الشهيرة، وكان عبد الناصر يودع الرؤساء والملوك العرب في مطار القاهرة بعد نهاية المؤتمر. وكنت أنا نائما على بطني على الكليم الأخضر وأمامي واحد من ألغاز المغامرين الخمسة أقرأ فيه، وأمي جالسة على يمين أبي الذي التفت إليها قائلا: الراجل ده ـ يقصد عبد الناصر ـ شعر راسه وقف زي الديك الرومي بتاعنا، باين عليه هيموت هوه كمان. وفي اليوم التالي أعلن عن موت الزعيم، وخرجت البلد كلها في جنازته المهيبة.

مع بداية سنة خامسة وقفنا في الطابور كالعادة. كان الطابور حزينا. لم تظهر الناظرة الأسطورية شفيقة البنا في الطابور بعد أن وصلت إلى سن المعاش وحلت مكانها أبلة وداد. لكن العلم نفسه ارتفع وانتهى الطابور مثل كل يوم دراسي سابق بتحية العلم: تحيى الجمهورية

العربية المتحدة، تحيى الجمهورية العربية المتحدة، تحيى الجمهورية العربية المتحدة. لم يكن هناك زعيم نهتف بحياته، ولم نكن ندرك أيضا أن الجمهورية العربية المتحدة التي نهتف بحياتها كان قد مر على نهايتها عشر سنوات كاملة، ولم يكن قد بقي منها سوى هذا الهتاف الصباحي.

.. بعد أيام قليلة من بداية سنة خامسة انتقل أخي الكبير إلى القاهرة طالبا بكلية الهندسة. وبدأ أبي يلتفت أكثر إلى الصف الثاني وبحرص أكبر حتى لا يخيبوا مثل كبيرهم، أو حتى لا يخيب أمله هو فيهم مثلما خاب مع كبيرهم. لكن البيت صار متسعا وربما فضفاضا بعد أن فقد اثنين من ساكنيه:أختي الكبيرة وأخي الكبير. كلاهما يدرس في جامعة القاهرة، وأنا أتعرف على عالم جديد. شهدت سنة خامسة نهاية مدرس الفصل الذي يقوم بتدريس جميع المواد للتلاميذ. كانت أول مرة يتولى التدريس لنا مدرسين مختلفين: الأستاذ أحمد الشامي ذو الشارب الكث والبذلة الكاملة والكرافتة للغة العربية والدين، الأستاذ أسامة القفاص للحساب، أبله ليلي السمينة القصيرة للتاريخ والجغرافيا (لم تكن تستطيع الوقوف لفترة طويلة لذا كانت دائمة الجلوس متيحة لنا مشاهدة أكبر مساحة ممكنة من أفخاذها البيضاء والتباري في معرفة لون سروالها الداخلي)، وأبله سامية الجمل السمراء الطويلة للعلوم، والأستاذ وحيد المعقد (كان يعمل في العريش حين وقعت نكسة ١٩٦٧) للتربية القومية. كانت البداية مربكة فبعد أن كان يدرس لنا مدرسة واحدة يسهل التعامل معها وإرضائها، بات مطلوبا إرضاء عدد

من المدرسات والمدرسين مختلفي السمات. الأصعب كان التعامل لأول مرة مع مدرسين ذكور خشنو الطباع يفضلون التعامل بالعصا ويتفننون في العقاب. فالمرة الوحيدة التي وقفت فيها ووجهي للحائط ورافعا ذراعي إلى أعلى كانت عقابا من الأستاذ وحيد ودون سبب واضح. والأستاذ أحمد الشامي كان يعايرني دائما ـ بسبب وبغير سبب ـ بقصر قامتي رغم أنه هو نفسه لم يكن طويل التيلة. في الوقت نفسه كانت أبله سامية الطويلة تكرر كلما أجبت على سؤال منها: أصغركم جسما وأكبركم عقلا، وهو ما كان يشعرني أني أطول واحد في المدرسة. أما أبله ليلى فكانت تكافئني دائما على جمال الخرائط التي أتفنن في رسمها وتلوينها. لذا كان طبيعيا أن أحب الجغرافيا والتاريخ أكثر من اللغة العربية، وأن أحب العلوم أكثر من الحساب.

ومثلما كان واضحا أني أحب العلوم أكثر من اللغة العربية، والتاريخ أكثر من الحساب، يبدو أنه كان واضحا جدا أنني كنت أميل إلى شلة توريل أكثر من ميلي إلى شلة الكفر. ويبدو أنه كان واضحا جدا أنني أعاني بشدة من خيبتي المتكررة وفشلي الدائم في أن أكون عضوا فاعلا في هذه الشلة. ويبدو أن غيظي كان واضحا جدا لدرجة أن سيد فهمي لم يبذل جهدا في إقناعي بعمل فضيحة كبيرة لهؤلاء العيال المتعالين على الناس كلهم. وملخص هذه الفضيحة أن صبيان وبنات شلة توريل ـ لم يكن في شلة الكفر ولا بنت واحدة ـ غارقون في الحب وهذا الأمر غير مقبول إطلاقا، فكيف نفضحهم؟ لم أكن مهتما بحكاية الحب بقدر رغبتي في أن أغيظ هؤلاء العيال. بمساعدة سيد وقفت على كتفي

محمد عزت بينما باقي الشلة يتفرج ويراقب الطريق في الوقت نفسه. وكتبت على حيطة المدرسة وبجوار المدخل الرئيسي، حتى تكون واضحة للجميع لحظة دخولهم المدرسة، بالطباشير الملون وبالبنط العريض: أحمد وعلاء يحبون مها ومنى. نزلت من على كتفي محمد فخورا بما فعلت، وبينما كنت أتأمل اللافتة الكبيرة اختفى الجميع، ولبسني الخوف. بعدها بيومين وأثناء الفسحة وجدت علاء يمسكني من كتفي اليمين وأحمد يمسكني من كتفي الشمال ويقودونني إلى مكان اللافتة الكبيرة: أنت اللي كتبت الكلام ده؟ لم أستطع الإنكار، طيب اطلع امسحه. إزاي؟ زي الناس، زي ما طلعت كتبته تطلع تمسحه. وفجأة ظهر أشرف الجمل ومعه سلم خشبي لا أعرف من أين جاء به. وبينما كنت أصعد درجات السلم دس أحمد في يدي قطعة زجاج مكسورة لأكشط ما كتبت. كشطت اسم أحمد وكشطت اسم علاء، وقبل أن أبدأ في كشط الباقي ظهر محمد عزت ورفاقه يجرون باتجاه السور ويقفزون واحدا وراء الآخر والأستاذ حامد، مدرس اللغة العربية والدين المخبول، يجري وراءهم. ولما لم ينجح في الإمساك بأي منهم ركب دراجته وراح يجري وراءهم في شوارع توريل وهو يسب ويلعن. في اللحظة نفسها اختفى أحمد وعلاء وأشرف، ونزلت من على السلم وجريت تاركا باقي العبارة دون كشط: يحبون مها ومنى. وبقي نصف العبارة في مكانه صامدا لشهور طويلة دون أن يفكر أحد في كشطه، لكنه اختفى من تلقاء نفسه في العام التالي حين تم طلاء جدران المدرسة.

لم اشعر بالمهانة، في حياتي القصيرة السابقة، ولا حياتي الطويلة بعدها، مثلما شعرت بها وأنا واقف على السلم أكشط ما كتبت. لكن هذه المذلة وهذه المهانة تضاعفت حين عرفت أن المقلب كان مدبرا من البداية، وأنني كنت لعبة بين الطرفين. فسيد ومحمد اتفقا عليّ. اتفقا على إقناعي بالكتابة ثم استداروا وابلغوا شلة توريل أنني الفاعل. لم افهم وقتها لماذا يعمدون إلى التلاعب بي وإهانتي بهذا الشكل. حكيت لأبي، كعادتي دائما في أن أحكي له كل أحداث اليوم الدراسي وغير الدراسي، وكانت إجابته هي نفسها التي اسمعها منه كل مرة: العيال دول بيكرهوك، بيغيروا منك، وعاوزين يحطموك، ابعد عنهم ومالكش دعوة لا بدول ولا دول خالص. أما عادل عبد العزيز، الذي يسكن في البيت المقابل لبيتنا، ويذهب معي يوميا إلى المدرسة نفسها، ويجلس معي في الفصل نفسه، لكنه منعزل نسبيا وليس صديقا قريبا لا لي ولا لأي أحد ثان فقال: دي غلطتك، شلة الكفر عاوزينك معاهم، وانت مش معاهم وما ينفعش تبقى معاهم، لأنك مش زيهم ولأنك عاوز تبقى مع ناس تانية انت مش فارق معاهم. بصراحة انت شخصيتك ضعيفة ومالكش موقف ثابت، وأنا مش فاهم ليه لازم تبقى مع شلة من الاثنين، أحسن ليك تعمل زيي وتبقى مع نفسك وبس.

لا أعرف من أين جاء عادل بكل هذه الحكمة الكبيرة في هذه السن الصغيرة. لكن صادفت كلماته هذه هوى في نفسي، وقررت أن أكون مثله بلا شلة وبلا جماعة أنضم إليها وأن أكون مع نفسي فقط. وطبعا لم يستمر هذا الموقف طويلا لكنه طبع حياتي كلها بصيغة واحدة: السعي

إلى الآخرين بحذر، وعدم القدرة على الانخراط في جماعة.

لم تكن سنة سادسة سوى استمرار لسنة خامسة. حتى الفصل كان هو هو، على غير عادة المدرسة في الانتقال إلى فصل مختلف عن السنة السابقة. فالمدرسة مكونة من ثلاث طوابق يحتل طابقها الأول سنة أولى وسنة ثانية، ويشغل طابقها الثاني سنة ثالثة وسنة رابعة، وفي الطابق الثالث سنة خامسة وسنة سادسة. لم ننتقل من الفصل الذي كنا نشغله في سنة خامسة لكنهم غيروا اللافتة بدل من سنة خامسة وضعوا لافتة أخرى مكتوب عليها سادسة/ ثان. جلست في التختة نفسها التي كنت أجلس عليها في سنة خامسة ومع الشريك نفسه. كانت التختة في الصف الملاصق للشباك المطل على مدرسة التجارة الثانوية بنات. ومع توافد المدرسين والمدرسات تبين أنهم جميعا نفس مدرسي العام السابق. الاختلاف الوحيد كان في المناهج التي يدرسونها لنا، واختفاء محمد عزت من المدرسة وتفكك شلة الكفر نهائيا.

بعد أقل من شهرين من بداية العام الدراسي، وفي منتصف الحصة الثانية دخلت أبله وداد ناظرة المدرسة إلى فصلنا وبصحبتها فتاة تلبس مريلة تيل نادية مثلنا، وتحمل حقيبة كتب جلدية مثلنا، لكنها لا تقل عن أبله وداد في الطول ولا سنتيمتر واحد، ولها ثديان أكبر من ثديّ أبله وداد نفسها، ولها تسريحة الشعر نفسها. ممكن تقول أختها الصغيرة مثلا. وممكن تقول أنها مدرسة متنكرة في زيي تلميذة صغيرة. لكن لا يمكن أن تقول أنها تلميذة مثلنا في الصف السادس الابتدائي مثلما قدمتها لنا أبله وداد: زميلتكم الجديدة أمل منقولة من مدرسة

البحر الصغير. كان في فصلنا بنات نعرفهم من سنة أولى، اعتدنا على وجودهن معنا في الفصل لدرجة أننا لم نلحظ علامات الأنوثة الأولى على أجسادهن الصغيرة. لكن أمل هذه ليست مثلهن، إنها أنثى كاملة الأنوثة بشعرها البني المائل إلى الشقرة وعينيها الملونتين وتفاصيلها الهائلة. أجلستها أبله وداد في الصف الأول في منتصف الفصل بالضبط رغم طولها الواضح بالنسبة للجالسين والجالسات خلفها. ومنذ اللحظة الأولى لدخولها الفصل لم أستطع أن أرفع عيني عنها. وهو ما يعني أنني أصبحت أجلس معوجا، وإذا كنت مضطرا إلى النظر قدامي تذهب عيناي من تلقاء نفسها إلى حيث تجلس. حتى في الفسحة التي جرى تخفيضها من ساعة ونصف الساعة إلى نصف ساعة فقط كنت أبحث عنها في الحوش الواسع، وحين أجدها أظل واقفا أتأملها من بعيد لبعيد دون كلمة واحدة. وإذا نظرت هي إليّ حولت عيني بعيدا عنها خجلا ومرتبكا. لم أفكر مرة واحدة في أن أقول لها ولا كلمة، بل لم يدر في بالي أصلا أنه يمكن أن يكون هناك أي كلام ممكن أن يقال. وفي البيت كنت أقضي ساعات طويلة أحاول أن أرسم صورة لها من خيالي بالقلم الرصاص أحيانا، وبألوان الشمع أحيانا، ولم يكن التصوير أقل سذاجة من التأمل البعيد. وأيضا لم أفكر مرة واحدة أن أريها لوحاتي!! ولم أفهم أبدا لماذا كنت أتصرف بهذا الشكل. ولم اسأل نفسي أبدا لماذا هي على وجه التحديد. فهي ليست أجمل بنت في المدرسة، وليست أشطر واحدة في المدرسة، فما الذي جذبني فيها إلى هذا الحد، وفي هذه السن التي لم أكن أعرف فيها الفارق بين الولد والبنت؟

قبل أن ينتهي العام الدراسي تم اختيار مجموعة من التلاميذ للمشاركة في مسابقة أوائل الطلبة. وبدأت التصفيات داخل المدرسة أولا لاختيار الفريق الذي سيمثل المدرسة في المسابقة. تم الاستقرار على الفريق وتم اختياري كمتحدث باسم الفريق بعد التشاور مع الزملاء. كانت المباراة الأولى لنا مع مدرسة طلخا الابتدائية وفي عقر دارهم. كان يوما شتويا مطيرا، وكان علينا أن نمشي في طابور طويل بصحبة المدرسين وفريق المشجعين من آخر توريل إلى الكورنيش. وأن نعبر كوبري القطار إلى الجهة الغربية للنيل، ثم نخترق الحقول لكي نصل إلى المنافس مبتلين وفي أقدامنا كميات هائلة من طين الحقول. ورغم هذه الظروف فزنا عليهم وصعدنا إلى الدور الثاني، وكنت فارس المدرسة المتوج. وفي الدور الثاني سارت الأمور أيضا لصالحنا حتى مارست هوايتي في الاستخفاف، وأجبت إجابة متسرعة وخاطئة ودون تشاور مع زملائي أخرجتنا من المسابقة كلها. كنت في غاية الخجل من نفسي ليس لأنني تسرعت، وليس لأنني أخطأت، وليس لأنني خذلت أبله وداد والمدرسة كلها، لكن لأن هذا الموقف يمكن أن يهز صورتي في نظر صاحبة العيون الملونة؟!

المهم حصلت على الشهادة الابتدائية. لم أكن الأول على المدرسة مثل كل سنة، طلعت الثالث. أما الأول على المدرسة فكان هو الأول على المحافظة كلها، لم يكن زميلا لنا من سنة أولى لكنه انتقل إلى مدرستنا قادما من السويس في سنة سادسة فقط. أما الثاني فكان المنافس الدائم لي وتفوق عليّ لأول مرة بدرجة واحدة فقط في الأمتار

الأخيرة، وكلاهما ـ الأول والثاني ـ كانا من فصل سادسة/ أول. لم أشعر بالفرح بقدر ما شعرت بالخيبة، فبعد أن خذلت المدرسة في أوائل الطلبة خذلت سادسة/ ثاني في معركتها التاريخية مع سادسة / أول. وعندما تسلمت الشهادة تضاعف شعوري بالخيبة ليس لأني نقصت خمسة درجات كاملة في اللغة العربية وحدها بل لأني خسرت أربع درجات في الرسم وهو ما لم أتوقعه. أما أبي فكان سعيدا لأول مرة بنتيجة واحد من أبنائه السبعة، ليس لأن المجموع كان كبيرا فقط لكن لأنني كنت التاسع على المحافظة كلها وهو ما لم يتحقق من قبل.

بعد أسابيع قليلة من بدء العام الدراسي التالي وبدء مرحلة الملك الصالح الإعدادية فاجأتني أختي التي تكبرني بعام واحد وتدرس في الصف الثاني بمدرسة المنصورة الإعدادية بنات قائلة: النهارده كان فيه واحدة في سنة أولى بتدور عليّ، قلت لها وإيه يعني، قالت لي بتدور علي عشان أنا أختك، قلت لها بزهق وبعدين، فردت علي بمكر: أمل بتسلم عليك.

بعد ارتجاج المخ

قبل أن يغادرنا أخي الكبير إلى القاهرة ترك لي ألبوما طوابع بريدية وتذكارية، واحد كبير وواحد صغير. لم يقل لي كلمة واحدة، ولم ينصحني بالحفاظ عليهما، فقط دسهما في يدي وقال بهدوء: خذ، قلت: هات. كانت فرحتي بهما أكثر من طاغية. فحتى أمس فقط لم يكن مسموحا لي إلا بالفرجة على الطوابع عن بعد، دون أن أفكر في لمس الألبوم المفتوح وإلا كان نصيبي شخطة عظيمة تنهي العرض كله. كانا معا كنزه الثمين الذي لا يسمح لأحد بمعرفة مكانه أو لمسه إذا أخرجه من مكمنه لإعادة ترتيب الطوابع، أو لتبادل المكرر منها مع واحد من أقرانه يشاركه الهواية نفسها. أخيرا، أصبح هذا الكنز ملكي. أخيرا، سأتمكن من لمس هذه الطوابع المبهرة وإعادة ترتيبها بنفسي يوميا. وسأمارس نفس الحظر على الجميع: سأريهم طوابعي من بعيد لبعيد، ومن يمد يده ليلمس طابع واحد منها سأكسرها له. لكن، ومثلما سرقت مني الطائرة التي تعمل بالبطارية، والتي أهداني إياها واحد من أصدقاء أبي كان يعمل في الكويت، حين أخذتها معي إلى الشارع لأول مرة وعدت باكيا من دونها. ومثلما حدث للكرة الكبيرة التي أهداني إياها

الصديق نفسه (عمي حسني، والذي أطلق أبي اسمه على أصغر أخوتي)، في العام التالي لسرقة الطائرة، حين أخذتها لألعب بها مع أصحابي لأول مرة فدهسها دولاب سيارة نقل كبيرة وانفجرت، وعدت باكيا وأنا احمل أشلاءها الممزقة بلا أمل واحد في إصلاحها، سرق الألبوم الصغير من يدي فيما كنت أتباهى بطوابعي الجميلة أمام أصحابي. هذه المرة كنت قد كبرت. انطلقت خلف السارق الذي لا أعرفه والذي خطف الألبوم من يدي بخفة ومهارة، وانطلق بسرعة الطائرة النفاثة مختفيا في حواري الكفر العميقة. ووجدت نفسي في حوار لم أكن قد طرقتها من قبل، فخفت، ونظرت خلفي فلم أجد ولا واحد من أصحابي يشاركني في هذه المطاردة الخائبة، فخفت أكثر، ورجعت. كانوا جميعا في مكانهم الذي تركتهم فيه، كانوا يعرفون النتيجة سلفا، فتحاشيتهم وانطلقت إلى البيت دون ألبومي الصغير ودون دموع أيضا. لكن ما حز في نفسي ووضعني على حافة البكاء تقريبا أنه في اللحظة التي كنت انحرف فيها إلى مدخل حارتنا سمعتهم يقولون في صوت واحد، وبصوت عال: عشان تحرّم.

قضيت أياما في البيت لا أغادره إلا لقضاء بعض الطلبات التي تكلفني بها أمي أو يكلفني بها أبي. كنت أفكر في شيئين: الأول هو فشلي الدائم في الحفاظ على أشيائي، والثاني هو كيف أشتري ألبوما جديدا فارغا أملأه بطوابع تخصني، طوابع أجمعها بنفسي وأحافظ عليها. لم أكن واثقا تماما في قدرتي على خوض هذا التحدي لكنني بدأت. بدأت بإقناع أصحابي أن لعب (الصده/ رده) في الحارة أصبح

مملا ولابد من التجديد، لابد من وجود حافز. كنت أعرف أن مهارتي في هذه اللعبة تفوقهم جميعا، خاصة بعد التدريبات العنيفة التي تلقيتها على يدي أو على قدمي فتحي إسماعيل، فاقترحت أن يكون اللعب على طوابع لكي تكون اللعبة مثيرة وجدية. وبدأنا. بعد أسبوع واحد كان في حوزتي عشرين طابعا بعضها جديد لامع وبعضها قديم بالي، وبعضها مكرر. كنت أحتفظ بالجديد بعيدا عن العيون، وألعب على الطوابع القديمة والمكررة فقط. لم أكن ألعب بجدية، بل بغل، كنت أتفنن في إرسال كرات قوية تحف في الحائط فيعجز المنافس الخائب عن صدها. وكنت ألعب بخبث أيضا، لا أخسر إلا عامدا، وحين تكون الطوابع المراهن عليها من جانبي قديمة أو مكررة وأرغب في التخلص منها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أغري المنافس بإمكانية أن أخسر وبالتالي لا يتراجع عن اللعب ضدي.

في نهاية الصيف الأول كان لدي خمسين طابعا جديدا. كانت الطوابع الليبية والجزائرية أجملها. كانت كبيرة الحجم، رائعة الألوان، بعضها مذهب أو مفضض، وكلها من النوع المصقول، كأنها لم تعد أساسا لكي تلصق على خطابات البريد، بل لكي توضع في ألبومات الهواة الحقيقيين، وليس الهواة العابرين من أمثالي.

في الصيف الثاني لبدء التحدي، اشتريت ألبوما جديدا أكبر من الألبوم المسروق. كان أخي يرتب الطوابع بحيث لا تكون هناك فراغات، طابع كبير جنب طابع صغير جنب طابع أصغر أو أكبر حسب الموقف في الصف أو الصفحة. أما أنا فكنت أرتب الطوابع حسب

قوميتها، طوابع كل دولة لوحدها، حتى لو كان في الصفحة كلها طابع واحد. لم أكن مهتما بملء الصفحة قدر اهتمامي بطابعها الجمالي، أحيانا ارتب الطوابع بحيث تأخذ شكل المثلث المتساوي الأضلاع، أو شكل المعين مثلا، أو أي شكل هندسي آخر يتناسب وعدد الطوابع وحجم كل منها. كنت سعيدا جدا بالشكل الجديد لألبومي الجديد. كان أصحابي أكثر حماسا مني لبدء دورة صيفية جديدة، كانوا يرغبون في تعويض خسائر الصيف الماضي، وكنت أسعى لملء الصفحات الفارغة في الألبوم الذي حصلت عليه بشق الأنفس. ولم ينته الصيف إلا وقد امتلأ الألبوم عن آخره، وبات مطلوبا شراء ألبوم جديد للصيف التالي.

لم يكد الصيف الثالث يبدأ، وتشتعل معه المباريات حتى نشبت بيني وبين يسري - أصغر أبناء الحاج محسن عمار الذي يسكن في الطابق الثالث فوقنا - معركة عنيفة، ضربته فيها بكل ما فيّ من غل حين رفض أن يعطيني الطوابع التي راهن بها وخسرها في المباراة بيننا. نجحت في تخليص الطوابع منه بعد أن قطعت جيب بيجامته. جري هو إلى فوق، ووقفت أنا على باب الحارة مزهوا بنصري، واضعا يديّ في جيبي بيجامتي، وملقيا بنظرة فخورة على شارع الإمام الليثي، ثم درت ومشيت بهدوء قاصدا الصعود إلى شقتنا. وفي اللحظة التي كدت أعبر فيها باب البيت سقط حجر كبير على رأسي، صرخت صرخة هائلة نبهت، مع صوت الارتطام القوي للحجر بجمجمتي، كل سكان البيت والبقالين والعابرين بشارع الإمام. كنت غارقا في دمي، نظرت إلى أعلى، فرأيته

من خلال الدم واقفا على سطح البيت. صعدت السلالم دفعات سريعة، وأنا أهتف بعلو صوتي والله يا بن الكلب ما أنا سايبك، ولحقت به على باب شقتهم المقفول. كان يطرق بابهم مفزوعا، أمسكته من قفاه ورحت اضرب جبهته في حديد الباب حتى فتحت أمه وسقطنا بين ذراعيها. هو ينزف من جبهته المفتوحة وأنا فاقد الوعي أنزف من رأسي ووجهي.

لا أعرف المدة التي قضيتها غائبا عن الوعي، لكن وجهي، كما رأيته في المرآة، بعين واحدة، كان مخيفا. كان نصف وجهي الأيمن متورما بشكل فظيع، وعيني اليمنى مختفية تماما في الورم الذي يحيطها وفي التجمع الدموي الذي تشكل حولها. قالوا أن يسري صعد إلى سطح البيت واختار كتلة من الخرسانة، وزنها لا يقل عن ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات، من بقايا هدم حجرة التخزين الخاصة بالحاجة أسما، وتركها لتسقط فوق رأسي لحظة دخولي البيت. وستر ربنا وحده هو الذي جعلها تنحرف فلا تسقط على أم رأسي، وإلا كانت جمجمتي انفجرت وتطاير مخي، ومت في الحال. وقالوا أن الحجر سقط على الجانب الأيمن الأمامي لجمجمتي الناشفة فلم تنكسر، لكن مخي أصيب بارتجاج نتيجة الصدمة العنيفة، كما قال الأطباء في طوارئ مستشفى المنصورة الجامعي.

مرت أيام كثيرة وأنا قابع في بيتنا، جالس قرب الشباك الموارب على كرسي أسيوطي الطراز معظم الوقت، لا أغادر إلا بصحبة أبي - يوميا - إلى الوحدة الصحية المدرسية الكائنة بالطابق الثاني لعمارة موافي على ناصية شارع المديرية القديمة لتغير الضمادة التي تلف رأسي المفتوحة.

وكان الحاج محسن عمار ينتظرنا يوميا على باب ورشته التي تقع في البناية نفسها، تحت الوحدة الصحية، مكررا اعتذاره وأسفه لما حدث، راجيا ألا تعكر شقاوة العيال علاقة الكبار وحسن الجوار.

لم تكن هذه هي الإصابة الوحيدة التي لحقت برأسي، فقد سبقتها إصابات كثيرة، بالجبهة تحديدا، وكلها ناحية اليمين، فوق العين أو تحتها. كنت في السابق أصاب بواحد من هذه الجروح، ويخاط وأعود من المستشفى، لا أصعد إلى البيت بل أبقى في الشارع أواصل اللعب فخورا بالبقعة الحمراء التي تتوسط الشاش الأبيض. كأن هذه العُصابة البيضاء شارة تفوق أو علامة امتياز أحتفظ بها حول رأسي حتى بعد أن يلتئم الجرح. لكن هذه الإصابة كانت أكثر عنفا وأشد قسوة من كل الإصابات السابقة. ولم يكن ذلك نتيجة لفداحة الجرح نفسه، وليس لأن صوت ارتطام الحجر بجمجمتي ظل يدوي داخلي لأيام كثيرة، وليس لأن النيازك البيضاء شديدة الإبهار والتي برقت أمامي لحظة الصدمة ظلت تبرق في النوم كما في اليقظة، بل لأن فكرة الموت بهذه الطريقة، وفي هذا العمر، كانت كفيلة ببث الرعب في كياني كله. قضيت ساعات طويلة ساكنا قرب الشباك الموارب أفكر في كيف يتحول الواحد إلى وحش. لا أقصد يسري فقط، أنا نفسي كنت أضربه بغل وكان من الممكن أن أقتله، مثلما كان ممكنا أن يقتلني، من أجل أربعة طوابع بريدية تضاف إلى ألبوم جديد أو قديم. قادني ألبوم الطوابع إلى ألبوم صور العائلة. لم يكن لدينا ألبوم صور بالمعنى المعروف بل حقيبة خضراء يحفظها أبي بعناية شديدة في دولاب الملابس الكبير في

حجرته. كان يحتفظ داخلها بالصور العائلية والخطابات المهمة التي تلقاها، وبنسخ خطية من خطابات أرسل أصولها إلى آخرين. داخل هذه الحقيبة نفسها كان لي صور مع العائلة، وصور صغيرة منفردة. تجولت بخيالي داخل الحقيبة، التي تسللت إليها خفية مرات كثيرة، كانت صوري كلها ناعمة الملامح، مليئة ببراءة، وربما بخبث طفولي ساذج، لا علاقة لها بالكائن الجالس تحت الشباك الموارب الآن. فلماذا لم يظل الواحد على حاله؟ لماذا تخشوشن الملامح، وتتوحش الطباع؟

قرب الشباك الموارب بدأ الورم حول عيني يقل تدريجيا، وبدأت عيني اليمنى تتحول من شق صغير في كتلة دموية زرقاء إلى عين يابانية عجيبة، ثم إلى عين كاملة مزينة بجرح جانبي صغير وجرح آخر في الجفن السفلي. ثم بدأ التجمع الدموي داخل بياض العين نفسها في الاختفاء تدريجيا. من مكمني الجديد سمعت أبي يقول لأمي أنه لن يدعني ألعب مع أولاد الشوارع مرة ثانية، لأنه إذا كان ربنا سلم وستر هذه المرة فلا أحد يعرف ماذا سيحدث في المرة القادمة. وسمعته يقول أنه بمجرد أن أشفى سيأخذني كل يوم إلى مكتبة المحافظة أقضى فيها اليوم كله. وبعد أكثر من ثلاثة أسابيع كاملة لم أتوجه مع أبي إلى الوحدة الصحية المدرسية بل إلى مكتبة ديوان عام المحافظة. قضيت النهار كله هناك موزعا بين القراءة وبين السرحان مع صورة النيل الذي يسهل تأمله من شبابيكها الزجاجية الكبيرة. وعدت مع أبي في آخر النهار متعبا. وفي اليوم التالي وجدني أبي جاهزا من قبله. ونزلنا معا، هو إلى مكتبه

الذي يبعد خمس خطوات عن المكتبة وأنا إلي داخلها. المكتبة نفسها مقسمة إلى ثلاث مساحات كبيرة: في الوسط، في مواجهة بابها الكبير، المساحة الأصغر، ويتوسطها مكتب ضخم وبعض الكراسي التي تشغلها أمينات المكتبة الجميلات. وعلى اليسار قاعة كبيرة للمطالعة غطيت جدرانها بالرفوف المليئة بكتب الأطفال والنشء وفي وسطها طاولة كبيرة جدا حولها أكثر من عشرين كرسي مريح للقراءة، وحائطها الذي في المواجهة عبارة عن نوافذ زجاجية جرارة، بطول الحائط كله تقريبا، تطل على حديقة صغيرة مليئة بالورود الحمراء والصفراء والبنفسجية وحوض مائي كبير معمول بشكل فني وملئ بالأسماك الملونة وكل هذا ينام في حضن مبنى المحافظة الجديد، ومن وراء هذا يمكن أن ترى النيل. وبطول هذا الحائط تمتد طاولة رفيعة مقسمة إلى أجزاء متساوية لا يزيد طول أي منها عن متر واحد وربما أقل، كأنها طاولات منفصلة، وأمام كل جزء كرسي مريح لمن يريد القراءة وتأمل المشهد الخارجي في الوقت نفسه. أما القسم الأيمن من المكتبة فهو أكبر الأقسام جميعا، لكنه على الرغم من كبر مساحته خافت الإضاءة على العكس من القسمين الآخرين. كانت له نافذة كبيرة جانبية لكنها أصغر من النافذة التي في الواجهة، نصفها تقريبا. والرفوف الضخمة جدا التي تغلف الجدران من الأرض إلى السقف مليئة بكتب كبيرة الحجم ذات كعوب سوداء بعضها كالح قديم وبعضها جديد يلمع عليه اسم الكتاب مذهبا. وفي وسط هذه المساحة الكبيرة ربما خمسة رفوف أخرى أو أكثر، تمتد أيضا من الأرض إلى السقف، مليئة بكتب

كبيرة وكثيرة تمتص الإضاءة غير الكافية أصلا، كأنها تخبئ نفسها في العتمة من قراء محتملين لا يعرفون قيمتها.

الرواد قليلون جدا، وأمينات المكتبة الجميلات منهمكات في أحاديث طويلة خافتة أحيانا وبصوت مرتفع غالبا، وإبر التريكو تعمل لوحدها دائما.

ظللت لأيام كثيرة أحضر يوميا، أحرك في القسم الذي على اليسار، وعيني على العتمة التي في اليمين. على الجهة التي يحج إليها رجال كبار يتأمل الواحد منهم الكتب بتمهل، يمد يده يأخذ واحدا منها يتصفحه ثم يعيده إلى موضعه، وهكذا حتى يستقر على كتاب يضعه تحت إبطه ويواصل التصفح بنفس الهدوء حتى يحصل على ضالة أخرى يضمها إلى ما تحت إبطه، ويأخذ الضالتين معه إلى البيت على سبيل الاستعارة كما قال لي أبي حين سألته. كنت ألقي بنظرة متعالية على «سمير» و«ميكي» ، تتبعها أخرى نصف متعالية على «تختخ وشركاه»، تستقر في الأخير على مجلد ضخم لـ«مجلة العلوم» المصورة. كنت أقيس الكتب بحجمها. وكنت أقرأ بسرعة ونهم، كأن علي واجب التهام هذه الكتب الصغيرة قبل الدخول في عتمة الكتب الكبيرة. لكن الخطة لم تنجح.

وجدت نفسي في أحد الأيام ودون تخطيط سابق في ركن الكبار. ورحت أفعل كما يفعلون، أسحب كتابا وأتصفحه ثم أعيده. كم مر من الوقت وأنا ضائع في هذه المتاهة لا أعرف على أي كتاب ممكن

أن استقر: بين القصرين ولا عبقرية محمد، السهول البيض أم أرخص ليالي، يا طالع الشجرة ولا زينب؟ لا أعرف. لكن فجأة وجدت واحدة من أمينات المكتبة تضع يدها على كتفي وتقول لي: بتعمل إيه هنا، إنت لسه صغير على الكتب دي، روح هناك أحسن، وأشارت إلى قسم الصغار. لم اذهب إلى هناك، بل ذهبت إلى مكتب أبي الذي فوجئ بحضوري قبل الموعد. كانت حيرتي واضحة، قال لي: مالك، قلت له: مش عارف، عاوز أروح، قال لي: ليه، حد زعلك، قلت له: لا، بس زهقت ومش لاقي حاجة أقراها، قال لي: كل الكتب دي ومش لاقي حاجة تقراها. تعرف تروح لوحدك، قلت أعرف، قال لي روح بس خلي بالك من العربيات، وتطلع البيت على طول ما تلعبش مع العيال في الشارع.

ذهبت إلى البيت مباشرة، واختفيت في مكمني تحت الشباك الموارب، غير قادر على إزاحة الكتب الكبيرة من دماغي. لم تشعر أمي بعودتي، ولا بوجودي في البيت، إلا حين عاد أبي لوحده من شغله، فسألته الواد فين؟ قالها هو ما جاش، قالت له لأ، خرجت من مكمني وقلت: أنا هنا من بدري. قال لي تعال ووضع يده على رأسي وأخذني إلى غرفته، وأجلسني على طرف السرير إلى جواره وقال لي: ناريمان (أمينة المكتبة) قالت لي على اللي حصل النهاردة، يا «خلو»، إنت لسه صغير على نجيب محفوظ والعقاد والناس دي. قلت له طيب أقرا إيه، زهقت من الكتب التانية دي، دي كتب عيال صغيرين، وأنا كبرت عليها خلاص. كانت سعادته واضحة، فقال لي: طيب بكره نشوف، قلت له:

بكره مش رايح المكتبة، قال لي: هاجي معاك وأسيبك تختار اللي انت عايزه، قلت: ماشي.

ألف ليلة وليلة

بدأ صيف ١٩٧٣ بارتجاج في المخ وانتهى بارتجاج من نوع آخر.

تعلمت المشي في وسط الشارع آملا ألا يسقط شيء آخر على دماغي. وتعلمت الدوران حول نفسي بهدوء لأن التفاتة للجنب أو للوراء بسرعة كانت كفيلة بإرسال شحنة قوية من ألم كهربائي عميق، مصدرها موقع الإصابة السابقة، تسري بسرعة الضوء في كياني كله محدثة شللا لحظيا في نصف وجهي المصاب. توقفت عن مد يدي على أختي الصغيرة وهو ما كان يشكل متعة سرية غامضة في السابق. وفقد شعري نعومته الطفولية وصار إلى الخشونة أقرب. أصبحت عكاز أبي، وتسليته. تمتصني الكتب، التي أستعيرها من المكتبة، طول النهار دون أن افهم منها سوي القليل، ثم أتلوها عليه في آخره. يعتدل في جلسته على سريره الكبير وأنا على كرسي شبه مكسور قبالته. يحاول أن يفهمني ما لم افهم وأناقشه، ثم يتحول النقاش إلى نقار، والنقار إلى جدال عنيف ليس المقصود منه سوى أن يثبت أحدنا للآخر أنه لا يفقه شيئا. ثم ينتهي المشهد بطردي من الغرفة لأنه زهق مني ويريد أن ينام. وبعد دقائق معدودة يناديني ويطلب مني أن أعمل له شايا، أو أن أفتح له

التلفزيون، أو أن أغلق الشباك، أو أن أفعل له كل ذلك مع بعضه. وهو ما كان يعني بداية نقار جديد لأن الشاي لن يعجبه، وبعد فتح التلفزيون سينادي علي من جديد لأقفله، وبعد فتح الشباك من سيغلقه غير الذي فتحه، وهكذا. حتى تفزع أمي من نومها غاضبة ومدلية بتصريحها اليومي المحفوظ: حرام عليكم بقى كل يوم نفس الموال، روح يا واد من هنا، ونام بقى يا سيد أفندي، وتضع رأسها على المخدة غارقة في نومها الثقيل بسرعة كأنها لم تفزع منذ قليل. أحيانا كان السيد أفندي يستجيب وينام، وغالبا لم يكن هذا سوى جزء من العرض الذي يجب أن يستمر حتى يغلب النوم الجميع.

كان هذا هو العرض اليومي الداخلي، أما العرض الخارجي فيبدأ بعد منتصف الليل بقليل، وربما يتأخر حتى الثانية صباحا حسب ظروف أصحابه. وغالبا ما تكون إشارة البدء نداء قوي وممطوط يصدر من البلكونة التي تعلونا مباشرة، ومن علي أبو العز صاحب الصوت الجهوري تحديدا: يا نعـــــــــــــناع. وقبل أن ينهي علي أبو العز نداءه يفتح «أبو حسن» شباكه ، كأنه كان جاهزا وعلى أتم الاستعداد لاستلام الإشارة، بعنف محدثا ضجة كبيرة ومنطلقا بوابل من السباب البذيء علي صاحب النداء المجهول والذين أنجبوه لأنهم لم يحسنوا تربيته. ثم يغلق أبو حسن الشباك ويخيم الصمت على شارع سيدي عبد العزيز من جديد. وعندما يتأكد الشباب أن الصمت أصبح كاملا ينطلق صوت محمود عمّار الناعم والمنغم من البلكونة الأخرى: يـــــا نعناعععععععععععععع. فينفتح شباك أبو حسن بنفس العنف السابق،

وينطلق لسانه بنفس السباب البذيء السابق: والله يا بن الكلب يا واطي يا منحط لأكسر رجلك ورجل اللي خلفوك ونسوا يربوك، يا منحرف يا صايع .. لو انت راجل بصحيح وريني نفسك يا فاشل وأبقى مره إن مالبستك طرحة يا.... . وطبعا لا يستطيع أبو حسن أن يفعل أي شيء مما قال ليس فقط لأنه رجل كبير وضعيف، لكن لأنه أيضا مصاب بشلل رعاش ولا يستطيع المشي في الشارع دون مساعدة من الجدران التي يستند إليها.

لم يكن شباك أبو حسن هو الشباك الوحيد الذي يفتح في هذه الساعة المتأخرة من الليل بل شبابيك أخرى كثيرة، تطل منها وجوه كثيرة لساكني شارع سيدي عبد العزيز من مختلف الأعمار كأنهم جميعا لا يستطيعون النوم دون حضور هذا العرض الليلي الغريب. لم يكونوا جميعا مشاهدين صامتين. كان البعض يشارك في المشهد، طالبا من الشباب أن يكف، ومن أبو حسن أن يهدأ وألا يرد على هؤلاء الشبان الفاشلين. وكان العرض يزداد إثارة حين يخطئ المتدخل، عن سهو أو عن قصد، فيستبدل النعناع بـ «أبو حسن». لكن الإثارة كانت تصل إلى مستويات غير مسبوقة حين تتدخل واحدة من النساء: خلاص بقى يا علي سيب النعناع ينام. فينطلق لسان النعناع تجاه مصدر الصوت: حتى أنت يا مره يا واطية يا بنت الكلب ياللي مش لاقية راجل يلمك......، وهنا يتدخل زوج المرأة أو أخوها، ويتدخل حسن وأخوات حسن، وتشتعل الشبابيك بالصفير والتشجيع وصب المزيد من الزيت على النار المشتعلة حتى أذان الفجر.

لا أعرف الاسم الحقيقي لـ«أبو حسن»، ولا أعرف، ولا أحد تقريبا يعرف، لماذا كان هذا النداء الغريب يثيره إلى هذا الحد. فهو لم يكن يزرع النعناع على طرف نافذته، ولم ير يوما دافعا بعربة يد عليها نعناع مبلل يبيعه في الطرقات، ولا أعتقد أنه كان مغرما بوضع أوراق النعناع في كوب الشاي، هذا إذا كان يشرب الشاي أصلا. الشيء الوحيد الذي كان أبو حسن يفعله هو المشي المترنح المرعوش مستندا إلى أي حائط، وبين كل خمس خطوات و الخمس التي تليها يتوقف مستندا بجسده كله على الحائط مستغرقا في حديث علني مع نفسه أو مع كائنات لا يراها سواه. ولا يقطع هذا الاستغراق إلا طفل شقي يتسلل في هدوء إليه زاعقا فجأة وهو يفر من جانبه: يا نعناع، فينتفض أبو حسن مذعورا وزاعقا هو الآخر بكلمته الشهيرة: يا منحرف. ثم يكمل مسيرته باتجاه البيت الذي يسكنه ويملكه أيضا وعلى شفتيه ابتسامة ليس لها معنى محدد، حتى يستقر على بسطة السلم التي أمام شقته إلى جوار زوجته الوقورة العمياء وبينهما حسن غارقا في سمنته المفرطة وبلاهته التي لا حدود لها. كان ثلاثتهم، إذا اجتمعوا، ظلوا صامتين كأنهم في صورة تذكارية، ولا يقطع صمتهم سوى نداء حسن على واحدة من أختيه طالبا منها أن تسعفه بساندويتش جبن أبيض لأن روحه راحت.

الغريب في الأمر أنني حين وقعت على الجزء الأول من الطبعة الكاملة لألف ليلة وليلة في مكتبة المحافظة لم أستطع، حين وصلت إلى الليلة الثالثة والتي تحكي فيها شهرزاد حكاية الصياد والعفريت قائلة: بلغني أيها الملك السعيد أنه كان رجل صياد وكان طاعنا في

السن وله زوجة وثلاثة أولاد وهو فقير الحال وكان من عادته أن يرمي شبكته كل يوم أربع مرات لا غير.. سوى أن أتخيل أبو حسن النعناع وزوجته العمياء وبنتيه وولده حسن مكان هذا الصياد العجوز وأسرته. وكان طبيعيا أن أغرق في الضحك وأنا أتخيل «النعناع» برعشته الهائلة صيادا عجوزا، يرمي شبكته في النيل، فيعلق فيها حمار ميت مرة، وزير كبير مليء برمل وطين مرة، وأخيرا قمقم من نحاس أصفر ملآن وفمه مختوم برصاص عليه طبع خاتم سيدنا سليمان. وحين يطلع له العفريت من القمقم يرتعش ويسقط في المياه الضحلة صارخا: الحقوني يا هوه .. حد يطلعني يا منحرفين ياولاد الكلب. ولم افلت من موجة الضحك إلا بظهور بديل لأبي حسن. ولم يكن البديل الذي يمكن أن يلعب دور الصياد العجوز في مخيلتي سوى المعلم توفيق ابن عم أبي. والمعلم توفيق هذا كان يعمل نجارا، أي انه الوحيد في العائلة الذي لم يكن فلاحا أو موظفا لذا فهو «معلم». كان رجلا طويلا على خلاف أبي وأعمامي، وأكثر نحولا منهم، خزقت شظية خشب طائرة عينه اليمنى، وامتصت سجائر اللف خديه فصار مومياء مثالية. ما هي العلاقة بين المعلم توفيق وصياد الليالي العجوز لا اعرف، لكنني حين اكتشفت، في خيالي، أن المعلم توفيق هو الشخص الوحيد الذي اعرفه ويشبه صورة جدي «علي» المعلقة في بيت العائلة حتى كففت عن استحضاره في خيالي نهائيا، متمسكا بأبي حسن النعناع صيادا عجوزا يحتال على العفريت ويحبسه في قمقم مختوم.

لم تكن أمي، رغم قدرتها على تمضية ساعات طويلة مستغرقة في

سرد التاريخ الخفي لكفر المياسرة،عائلة عائلة، وفردا فردا، تحكي لنا أي نوع من الحواديت. ربما يعطي هذا انطباعا أنها متخصصة في التاريخ الحي، أو أنها تتعالى على حواديت قبل النوم البائسة، لكن الحقيقة أنها كانت تغرق في النوم من بعد المغرب مباشرة، والحواديت لا تحلو إلا بعد العشاء. الوحيدة التي كانت تحكي لنا حواديت كانت خالتي «علية»، طنط لولو، أصغر خالاتي. لكنها لم تكن تعرف من الدنيا سوى حدوتة المعزات الثلاث (المعزة مأمأ والمعزة سأسأ والمعزة علبة العطار) وحكاية أمنا الغولة، وجزء من حكاية الشاطر حسن، تعيدها علينا كل صيف. ولحسن الحظ تزوجت طنط لولو، وانتقلت إلى بلدة أخرى قريبة من بلدنا، قبل أن نعلن زهقنا من حواديتها المعادة.

لم تكن خالتي علية، بطولها الفارع ونحولها الخالي من التفاصيل الأنثوية المعتادة، تصلح لارتداء سروال من الحرير أو الشيفون المشقوق بطول الساق ولا الصدرية التي تحرض النهود الكبيرة المخنوقة على الفرار كما يليق بأيقونة الحكايات «شهرزاد». كان العثور على من تلعب هذا الدور أصعب كثيرا من تصور حائط ينشق، وتخرج منه صبية مليحة تكلم السمك الملون الموضوع على النار وتؤشر عليه بسيخ معدني فيتفحم في التو واللحظة، وفاء منه لعهد غير مفهوم قطعه على نفسه. كيف يمكن تعيين امرأة لها هذا الخيال ـ الذي يأخذك من يدك ويتركك غارقا في حكاية، خرجت من حكاية، لتدخلك في حكاية ـ في شكل محدد، وكيف امتلك شهريار الصبر على تأجيل بقية الحكاية حتى الليلة التالية؟ ألم يكن من الأفضل أن يقتلها شهريار مثلما قتل

غيرها ويريح نفسه ويريحنا من هذا الالتهاب الخيالي؟ هكذا استمرت حكاية الصياد أبو حسن النعناع مع العفريت من الليلة الثالثة حتى الليلة التاسعة. وقبل أن أهنأ بالنهاية السعيدة، وعودة السلطان، الذي كان يشتري السمك الملون من النعناع، إلى عرشه بعد غياب طال لأكثر من سنة، ووجد عرشه في انتظاره. ثم زواجه من حسنيه السمينة بنت النعناع، وتعيين أخيها الذهل خازندار، حتى دخلنا في الليلة التاسعة نفسها إلى حكاية «الحمال مع البنات». صحيح أن شهرزاد تملك قدرة خاصة على شحن أجواء الحكاية بقدر كبير من التوتر الجذاب، وقدرة أكبر على إثارة الفضول بغية الحصول على المزيد من المتعة إلا أنها في النصف الثاني من الليلة التاسعة شحنت الحكاية بجو جنسي شفاف، تطور بسرعة إلى جنسي صريح وغريب لم أستطع سوى التوقف عنده طويلا. **فبعد جولة مطولة في السوق وجلب ما لذ وطاب ووقوف الدلالة والحمال أمام دار مليحة قدامها رحبة فسيحة وهي عالية البنيان مشيدة الأركان بابها صنع من الأبنوس المصفح بصفائح من الذهب الأحمر، وبعد أن دقت دقا لطيفا وانفتح الباب بشقيه ونظر الحمال إلى من فتح الباب فوجدها صبية رشيقة القد قاعدة النهد ذات حسن وجمال وقد واعتدال جبين كثفرة الهلال وعيون كعيون الغزلان وحواجب كهلال رمضان وخدود كشقائق النعمان وفم كخاتم سليمان ووجه كالبدر في الإشراق ونهدين كرمانتين وبطن مطوي تحت الثياب كطي السجل للكتاب.** طبعا لم استوعب وصفا واحدا من هذا الوصف التفصيلي المطول لجماليات الصبية التي فتحت الباب فأنا لا أعرف كيف هي عيون الغزلان، ولا ماهية شقائق النعمان ناهيك عن

خاتم سليمان، وكيف يكون طي السجل للكتاب. ورغم ذلك أحسست أن هناك شيئا مختلفا وأن هذا الوصف الذي لا استطيع تخيله وراءه شيء آخر، وترسخ هذا الإحساس عندما ظهرت الصبية الثالثة. المهم، بعد أن نجح الحمال في إقناع البنات بأهمية أن يبقى معهن باعتبار أنهن ثلاثة والمنارة لا تثبت إلا على أربعة، وأنه لا يكمل حظ النساء إلا بالرجال **قامت الدلالة وشدت وسطها وصبت القناني وروقت المدام وعملت الخضرة إلى جانب البحر وأحضرت ما يحتاجون إليه ثم قدمت وجلست هي وأختها وجلس الحمال بينهن وهو يظن أنه في المنام. ولم يزل الحمال معهن في عناق وتقبيل وهذه تكلمه وهذه تجذبه وهذه بالمشموم تضربه وهو معهن حتى لعبت الخمرة بعقولهم. فلما تحكم الشراب معهم قامت البوابة وتجردت من ثيابها وصارت عريانة ثم رمت نفسها في تلك البحيرة ولعبت في الماء وأخذت الماء في فمها وبخت الحمال ثم غسلت أعضاءها وطلعت ورمت نفسها في حجر الحمال وأشارت إلى فرجها وقالت ما اسمه قال كذا قالت لا فقال كذا فقالت لا إلى أن قالت اسمه حبق الجسور. فقامت الثانية وخلعت ثيابها ورمت نفسها في البحيرة وفعلت مثل الأولى وطلعت ورمت نفسها في حجر الحمال وأشارت إلى فرجها قائلة ما اسمه قال كذا قالت لا فقال كذا قالت لا فقال كذا قالت لا ثم قال اسمه حبق الجسور قالت لا ثم قالت له اسمه السمسم المقشور. ثم قامت الثالثة وخلعت ثيابها ونزلت تلك البحيرة وفعلت مثل من قبلها ثم لبست ثيابها ورمت نفسها في حجر الحمال وأشارت إلى فرجها وقالت ما اسمه فقال كذا قالت لا فقال كذا قالت لا فقال اسمه السمسم المقشور قالت لا اسمه خان أبي منصور. ثم بعد ساعة قام الحمال ونزع ثيابه ونزل**

البحيرة وأخذ يسبح في الماء وغسل مثلما غسلن. ثم طلع ورمى نفسه في حجر سيدتهن ورمى ذراعيه في حجر البوابة ورجليه في حجر الدلالة وأشار إلى ذكره قائلا ما اسمه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح. وفي الليلة العاشرة: قالت لها أختها دنيا زاد: يا أختي أتمي لنا حديثك قالت حبا وكرامة: قد بلغني أيها الملك السعيد أنهن مازلن يقلن كذا وكذا وهو يقبل ويعانق وهن يتضاحكن إلى أن قلن له وما اسمه قال: اسمه البغل الجسور الذي رعى حبق الجسور ويلعق السمسم المقشور ويبيت في خان أبي منصور فضحكن حتى استلقين على ظهورهن ثم عادوا إلى منادمتهم ولم يزالوا كذلك إلى أن أقبل الليل عليهم فقلن للحمال توجه وأرنا عرض أكتافك.

لم أتعب في اختيار شخوص حقيقيين أعرفهم لتحل محل شخوص شهرزاد الخيالية. فليس هناك حمال أفضل من عزت المكوجي الحريص على إبراز عضلاته المفتولة والمرسومة بعناية من قضى نصف عمره في صالات رفع الأثقال وكمال الأجسام. والدلالة، الملتفة بإزار موصلي من حرير مزركش بالذهب وحاشيتاه من قصب، وعيونها سوداء بأهداب وأجفان وهي ناعمة الأطراف كاملة الأوصاف، هي «فايزة» بنت صالح القهوجي التي كانت أول جسد أنثوي عار في حياتي. رأيتها مصادفة وأنا أجلب شيئا من على حبل الغسيل طلبته أمي، وكانت هي عارية تستحم ناسية أو تاركة شباك الحمام مفتوحا، فأخذت غرضي وفررت خجلان. وبعد دقائق قليلة، لم أستطع خلالها أن أطرد صورة جسمها من خيالي، تسللت إلى البلكونة لأراها من جديد لكنها كانت قد أنهت حمامها وذهبت. أشعلت اللقطة العابرة نارا حامية في جسمي الذي لم

يكن قد نضج بعد، نار أجبرتني أن أكمن لها في اليوم التالي في الموضع نفسه وفي الموعد نفسه حتى هلت وبدأت تخلع ثيابها. خلعت قميصها البيتي القصير ورمته وهي تنظر من شباك حمامها المفتوح تجاهي، كنت مختبئا ومتأكدا أنها لا تراني، فخيل إليّ أنها تسمع صوت تنفسي المضطرب، أو دقات قلبي التي تدوي في صدري مثل الطبل البلدي. ثم خلعت السوتيان واندلق نهدان قويان يتناسبان حجما وشكلا مع تفاصيل جسمها البكر المشدود. كان بإمكاني متابعة التصلب التدريجي لحلمة نهدها البنية المرسومة باعتزاز على قمة مخروط يندفع إلى أعلى وإلى الخارج معا موسعا المسافة بين نهديها فيكون بالإمكان أن يتقلب بينهما قط هائج. ثم خصر نحيل وصرة عميقة تحتها مثلث رهيب من الشعر الأسود الغامض. وحين استدارت تحت الدش ولمع انسياب الماء على ظهرها المشدود، وازداد لمعانا لحظة ارتطامه بردفين كاملي الاستدارة فأطلقاه نافورة نصف دائرية رائقة، أغمضت عيني قابضا على الشق العميق بين جبلي الحلم واللحم مرة وإلى الأبد لأنها بعد أن أنهت حمامها ولفت جسمها ببشكير كحلي كبير مدت يدها في هدوء وأغلقت الشباك. في اليوم التالي كان الشباك ما يزال مغلقا، وفي الأيام التالية أيضا، كأنه لم يعد هناك من يفتحه، أوكأنها كانت تقدم عرضها الأخير لمتفرج خيالي وحيد. كان الشبان الكبار يقولون عن فايزة وهي تخطر في الشارع بشعرها الأسود الطويل أنها «فرسة جامدة قوي»، وخيل إلي أن دلالة شهرزاد لا يمكن أن تكون سوى فرسة جامدة قوي مثل فايزة. وهو ما يعني أن فايزة والدلالة اختارت كل منهما الأخرى

دون تدخل مني. إذن من تكون البوابة ومن تلعب دور صاحبة البيت. نظرت من فرجة الشباك الموارب لأجد، في مواجهتي تماما، سامية بنت أبو النجا الحلواني تمسح بلاط المدخل الباهت، منحنية كانت ومؤخرتها القوية تملأ فرجة الشباك، ثم استدارت دون اعتدال وراحت تعصر الخيشة المبلولة كاشفة عن مساحة كبيرة من نهدين متوسطي الحجم. وحين قرفصت لتمسح زاوية عميقة في المدخل، مغلقة ساقيها، جاءت ركبتها اليمنى تحت ثديها الأيمن فعصرته وطردته من مكمنه فكاد يخرج بكامله، ثم سقط خيط حمالة صدرها الرفيع متسللا من تحت حمالة قميصها البيتي على ذراعها البض في هدوء كامل ومبتذل. يا إلهي، سامية تمسح بلاط المدخل يوميا وفي ذات الوقت تقريبا فكيف لم أر هذا المشهد من قبل؟ أو كيف كنت أرى هذا العرض كل يوم؟ هل فتحت شهرزاد عيني على الشارع بطريقة مختلفة؟ قبل هذه اللحظة كانت سامية مجرد بنت بائسة تنتظر عريسا بائسا مثلها، فشلت في الحصول على دبلوم التجارة المتوسطة، مجعدة الشعر، يصل فستانها إلى ركبتيها بالكاد ويكشف عن ذراعيها بالكامل ثم تبذل محاولات فاضحة ومفضوحة في تغطية ما كشفه الفستان. الآن يمكنها ببساطة أن تلعب دور البوابة في حكاية الحمال مع البنات.

كنت مازلت خلف الشباك الموارب وسامية تنهي عملها، وترمي مياه المسح في الشارع، حين انتبهت إلى أزيز ماكينة التريكو القادم من الطابق الذي يعلو سامية مباشرة. ماذا تفعل أمينة في هذا الحر؟ أمينة هذه عروس جديدة، كانت دخلتها في هذا البيت القديم، وفي هذه الشقة

التي تواجه شباكي مباشرة، والتي كانت تقيم فيها صاحبة البيت العجوز والتي ماتت عشرين مرة قبل أن تموت فعليا في المرة الواحد والعشرين. كان يكفي أن أرفع عيني إلى مستوى النظر مباشرة لأرى أمينة جالسة إلى ماكينة التريكو، وقد انحصر قميصها القصير جدا والخفيف جدا كاشفا عن كل فخذيها تقريبا. وكان يكفي أن تقوم أمينة من مكانها وتعبر الغرفة لكي أتأكد أن سروالها الداخلي أسود، وأنه صغير جدا ومحشور بين ردفيها الضامرين. وكان يكفي أن تتحرك قليلا باتجاه باب البلكونة المفتوح لأرى بوضوح ارتجاج نهديها الممتلئين والحلمات البنية الكبيرة تلعب تحت القميص وتلاعبه. إذن هي، بشعرها البني المخنوق تحت ربطة ذهبية غامقة وقمصان نومها الكثيرة، المكشوفة الكاشفة، صاحبة الدار المليحة ذات الرحبة الفسيحة في حكاية شهرزاد.

منذ أعوام قليلة كنت إذا ارتكبت خطأ كبيرا، وهددني أبي بالضرب ملوحا بأي شيء قريب من يده، أجري، مفتعلا البكاء، وأختبئ تحت السرير الكبير في غرفتنا نحن العيال. بعد وقت قليل أعتاد العتمة الشفيفة، وأعيش مع نفسي، أحكي لها بصوت مهموس حواديت من صنعي، ممسكا بعالم كامل من الكائنات الملموسة تحت سقف واطئ يخصني. كان تحت السرير عالم آخر، خارج البيت، خارج المكان، وداخله، أنسى فيه كل شيء، وينساني أهلي فأنام بعمق، مسندا رأسي على حذاء قديم، وقابضا على خيط عنكبوت. وكان دولاب الملابس الكبير في غرفة أبي البديل المثالي لـ«تحت السرير» خاصة جزءه الأوسط ذو الضلفتين الكبيرتين والتي لا يمكن غلقهما تماما أبدا. كنت

أدخل الدولاب متسللا والغرفة خالية، وأجلس جلسة متمكنة على طبقات الثياب المرصوصة في قعره. مختفيا بين بدلات أبي المتدلية على علاقاتها، وغارقا في مزيج مدوخ من رائحة الثياب المعتقة والعتمة المبهرة، أتلصص على كائنات خيالي وهي تمشي على الحيطان. هكذا، صارت الليالي دولاب ملابس كبير اختبئ فيه، صارت «تحت السرير» لكن بسماء عالية وبعيدة. وهكذا حولت الليالي شباكي الموارب إلى دولاب ملابس كبير أتلصص منه على كائنات «سيدي عبد العزيز» وهي تمضغ الكسل وتنشر الغسيل.

توقعت حين دخل الرجال « العور بالعين الشمال »، وتبعهم هارون الرشيد ـ الذي كنت قبل وقت قصير أخلط بينه وبين شهريار دون سبب واضح ـ ووزيره جعفر أن تستمر لبلة الحظ التي لا تعوض، لكن البنات خيبن أملي حين أحضرن كلبتين من الكلاب السود ورحن يضربهن بالمقارع ويجلدهن بالسياط. لم أشارك الرشيد قلة صبره ورغبته في معرفة أصل وفصل الكلبتين السود، ولماذا تجلدهن البنات بالسياط وتضربهن بالمقارع، ثم يعانقهن وينخرطن في النحيب. ولم أجد في حكايات الرجال العور المتعة التي حصلتها في « حكاية الملك يونان مع الحكيم رويان» الداخلة في «حكاية الصياد مع العفريت». صحيح أن شهرزاد كانت، كل ليله، تهد العالم وتبنيه من جديد، وصحيح أنها كانت تجعل من كل شخص في لياليها، تقريبا، حكاية تحكيها هي وراوي يروي حكايته بنفسه، أي أن كل شخص هو حكاية وراو في آن معا. لكن أيضا في كل حكاية نساء خائنات ورجال قليلي الحيلة،

حتى العفاريت. فدائما تخون المرأة زوجها النبيل مع عبد أسود أو مع عفريت دميم، أو تخدع العفريت الدميم مع عابر سبيل. هل تريد شهرزاد أن تقنع شهريار أن المسالة كلها عادية، وأنه ليس الرجل الوحيد الذي خانته زوجته مع عبد أسود؟ أم تريد أن تعفيه من ذنب العذراوات اللواتي فض بكارتهن ثم قتلهن باعتبارهن مشروع نساء خائنات؟ أم أن شهرزاد كانت تحكي لشهريار ما يريد هو أن يسمعه ويؤكده لنفسه؟ أم أنها كانت فقط تلهب خياله وتوقظ «متاعه» فتنتهي الليلة بعناق وتقبيل بعد أن بدأت بخيال وتخييل، ومن ثم يسرقه الوقت ويؤجل الموت؟ كل ليلة تحذره من كيد النساء، أليس كيدها هي شخصيا يفوق كيد نسائها جميعا بما يجعلها أكثر استحقاقا للقتل من كل العذراوات الساذجات من ضحايا شهريار؟

في المساء، ومن فرجة الشباك الموارب، كانت أم محمود زوجة أبو النجا الحلواني تفرش مؤخرتها الكبيرة على بلاطة مريحة، مسندة ظهرها إلى الحائط وحولها سامية بنتها، وأم منير الصعيدية التي تسكن هي وعيالها وزوجها في حجرة واحدة مقتطعة من شقة أم محمود، وبصحبتهن امرأتين من حارة أخرى. يشربن الشاي ويوسعن دائرة النميمة المشفوعة بضحكات نسائية رقيعة وممطوطة تصل إلى آخر الكفر البعيد. أم محمود نفسها لا تستطيع أن تكمل جملة واحدة دون «شخرة» عفوية عميقة، ودون أن ترعش وسطاها المتمكنة خاصة في وجه زوجة ابنها محمود - راقصة الأفراح البلدي سابقا. على شمال أم محمود بيت من طابق واحد تسكنه زبيدة الشهيرة بأم وجدي وبنتها

سعدية السمراء ذات الطول الفارع والشعر المجعد، والتي تشبه أخاها البكري «وجدي» في الطول والنحول والسمرة، وأربعة أبناء آخرين ورثوا وسامتهم من أمهم. زبيدة وسعدية لا يجلسن على عتبة الباب مثل أم محمود وبنتها سامية بل يجلسن على السلم المؤدي إلى السطح البلا سور بحيث تبين رؤوسهن فقط. قليلتي الكلام، يتلصصن مثلي على الأخريات، وينتظرن خروج «وجدي» من السجن الحربي الذي دخله عقب هروبه المشين من الجيش أثناء حرب الاستنزاف. قدام بيت زبيدة المنكسرة بيت عجيب من الخشب والطين، نصفه تحت الأرض، وعلى عتبته تجلس أم ممدوح السوداء وابنتها الحبلى دون زواج ومعهن «سيدة» الفحلة زوجة العربجي المسطول والمعروف عنها أنها ترقع زوجها كل يوم علقة ساخنة في الصباح ومثلها في المساء، ويشيع الأشرار أنها لا تلبس سراويل داخلية أبدا وهو ما مكنهم من رؤية فرجها مرة ومرات، وأن فرجها هذا واسع جدا من كثرة النوم مع الحمار. ورابعتهن فتحية بركات أشهر دلالة في كفر البدماص. في منتصف الأربعين وهي القائد الفعلي لهذه الشلة التي تتخذ من بيت «أم ممدوح» مقرا شبه دائم. وخامستهن سامية ابنة فتحية والتي تعمل مع أمها وترعى طفلين من زوجين مختلفين، لم يصمد أي منهما طويلا، ومنذ طلاقها الثاني تشارك «سيدة» في محبة الحمير. هذا الخماسي لا يكف عن شد «الجوزة» ليل نهار، وإطلاق سحابات كثيفة من دخان أزرق عميق، ولا يسلم عابر أو عابرة من لسانهن الفالت، ويفتخرن بأفخاذهن العظيمة وأثدائهن الكبيرة، ولا يبذلن أي جهد في تغطية أجسادهن المعروضة

باعتبار أن ما يبين من أجسامهن هو مجرد «زكاة» عنهن وكلما بان أكثر كان الثواب أكبر كما تقول سامية بركات. وعلى يسار زبيدة بيت آخر يشبه بيت أم ممدوح السوداء من حيث التصميم لكن بابه لا يفتح على شارع سيدي عبد العزيز بل على حارة واسعة وقصيرة تؤدي إلى خرابة أوسع تؤدي مباشرة إلى الشارع العمومي الكبير المعروف باسم «قناة السويس». هذا البيت تسكنه امرأتين شقراوين بعيون خضر، واحدة منهن اسمها وردة وهي زوجة ميكانيكي متخصص في إصلاح «جرارات الحرث» التي تملئ الخرابة، والثانية اسمها تفاحة وتعمل بائعة خضار في سوق الكفر الكبير. وردة وتفاحة ليس لهما في الدنيا أعداء سوى المؤخرة الكبيرة جدا لـ« طرب » ذات الرداء الأحمر، والتي يقال إنها تعمل مصممة أزياء في مسرح المنصورة القومي. طرب لا تمشي على الأرض مثل الخلق بل تترجرج على طريقة بائعات الهوى في الأفلام المصرية القديمة. وهي تسكن في بيت يشبه القلم الرصاص، تملكه يطل على الخرابة، وتطل هي منه على الدنيا التي في الأسفل. وردة تسلط عيالها على مؤخرة طرب. وطرب تعرف أنها ستدفع الثمن إذا غضبت، والثمن دائما هو خناقة حريمي غير متكافئة، بين أرستقراطية طرب التمثيلية وسوقية تفاحة ووردة الحقيقة، تنتهي بتجريد طرب من ثيابها ورفع سروالها الداخلي الأحمر الكبير على يد مقشة خشبية طويلة تطوف الشارع من أوله لآخره.

تحول تلصصي اليومي إلى عادة تكشف لي من خلالها أن بيت الجيار الذي نسكنه كان بيتنا من طابق واحد بابه الرئيس يفتح على

شارع سيدي عبد العزيز. ومع إعادة تخطيط الكفر وتطويره إلى ما يعرف اليوم بحي الناصرية أقام الحاج صاحب البيت سورا عاليا يفصله عن الشارع، ورفع البناء إلى عدة طوابق وعمل له مدخلا آخر يفتح على شارع الإمام الليثي. ومع تحكم العادة، تبين أن شبق سيدي عبد العزيز المنفلت يكاد يختنق بين صفين من البيوت الحديثة الصارمة تفصلانه عن شارع قناة السويس الكبير، وبين صفين آخرين من البيوت الحديثة، أكثر صرامة، تفصلانه عن شارع الإمام الليثي. وتبين لي أيضا أنني لست المراهق الوحيد الذي يتلصص على نساء سيدي عبد العزيز الشرسات، وأن هناك مراهقين تجاوزوا التلصص إلى الانفراد بفتياتهن وزنقهن في عتمة عبد العزيز المغرية. حتى الكلاب كانت تهرب من علانية قناة السويس، وجهامة الإمام الليثي، إلى شهوانية عبد العزيز المسترة حيث يمكنها أن تحيي طقوس سفادها المتوحش في أريحية تامة.

لم يكن التخلص من شهرزاد سهلا، لكن «الملك الصالح» الإعدادية فتحت بابها الذي أغلقته الحرب سريعا. وقعدنا في البيوت: في تمام الساعة الثانية والنصف من يوم السادس من أكتوبر نجحت قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس ورفع العلم المصري على خط بارليف المنيع الذي سقط في أيدي قواتنا الباسلة في ست ساعات فقط. نسمع أغاني العبور وننتشي، وننتظر البيانات العسكرية بلهفة ثم نعيد إذاعتها لبعضنا: أسقطنا لهم ثلاثة وعشرين طائرة من طراز فانتوم، دمرنا لهم مائتين وخمسين دبابة في أكبر معارك الدبابات في التاريخ، وأسرنا منهم....... رأيت بعيني رأسي، من شباك بيتنا، الطائرات تطارد بعضها

في سماء المنصورة، ورأيت طائرة معادية تشتعل فيها النيران وتهوي في الحقول البعيدة. ولمست بيدي حطامها المعروض في موضع النصب التذكاري قدام مديرية الأمن القديمة. لماذا لم أحصل على قطعة منها للذكرى مثلما فعل آخرون؟ لا أدري. حتى سامية بركات ذهبت بمنشار حديدي ونشرت قطعة كبيرة علقتها على باب البيت مطلقة مئات الزغاريد. الكبار لا يصدقون. وصدق حدسهم حين عبرت قوات العدو إلى الضفة الغربية للقناة وتمركزت في الدفرسوار.

في ليالي الحرب توقف الشبان عن التحرش بأبي حسن النعناع، وهدأت كركرة الجوزة أمام بيت أم ممدوح، حتى الكلاب توقفت عن السفاد.

انتهت الحرب وفتحت المدارس أبوابها من جديد، ولا أخبار عن شباب الشارع المجندين. بعد أيام كنت راجعا من المدرسة وحين وصلت شارعنا وجدت كل رجاله جالسين على كراسي مرصوصة في صفوف، والحاج محمد الجيار مسنود على أبنائه الكبار، والحارة المؤدية لبيتنا مقفولة تماما بعشرات من النساء الغارقات في السواد والبكاء، تتوسطهم الحاجة أسما وبناتها. مات نقيب الصاعقة. نبيل محمد الجيار. ابن صاحب البيت. صاحبي، الذي كنت أنتظره أسبوعيا في أول الشارع، أحمل حقيبته، ويضع البارية الأحمر المميز على رأسي الصغيرة ونصعد معا إلى شقتهم في الطابق الأخير. نجلس في شرفتهم العالية نشرب الشاي وأحكي له أسرار الشارع. نمت أسبوعا كاملا، وحين صحوت كان «محسن كسبة»، صاحب أخي الكبير، وبيتهم على

رأس حارتنا، قد مات وفقدت أمه عقلها في التو واللحظة. كانت أمه، التي اعتادت القعود خلف شباك موارب يطل على الحارة وعلى شارع الإمام الليثي معا منتظرة قدومه في الأجازات، توقف أي شخص يدخل الحارة وتكلمه عن محسن. لم يصل جثمان نبيل الجيار ولا محسن كسبة، لكن جثثا أخرى وصلت وشقت طريقها إلى المقابر في آخر شارع الإمام، وسط صمت شامل.

بعد شهور قليلة ظهر « وجدي» ابن زبيدة في شارع سيدي عبد العزيز بعد أن أفرج عنه بشكل مفاجئ. وفي اللحظة نفسها اختفت شلة « أم ممدوح « كأن الأرض شقت وبلعتهن. وقبل أن يستوعب شارع سيدي عبد العزيز صدمة اختفاء أم ممدوح فوجئ بطلاق «ثريا»، التي تسكن في الطابق الأخير من «البيت العالي»، الذي يحجب الرؤية عن بيتنا، من زوجها ضابط القوات المسلحة المهذب الذي يحمل على كتفه نسرا زادت عليه نجمة بعد معركة العبور. مصمصت النساء جميعا شفاههن في أسى، فهن لم يعلمن من قبل عن وجود مشكلات بين ثريا وزوجها، خاصة أنها تخلت عن طفليها لأبيهما الضابط مقابل الطلاق. كان بينهن من تعتقد أن المسألة فيها «إن». ولم يطل انتظارهن ولا انتظارنا. بعد شهور العدة بقليل تزوجت ثريا من الجندي الهارب من حرب الاستنزاف، وهبطت بكل أنوثتها المتفجرة من البيت العالي إلى ذلك البيت الضيق ذو الطابق الواحد لكي تقيم مع زوجها الجديد وأمه وأخواته الخمسة جميعا. وكان تعليق أمي: ده ولا في الأفلام. أما الست أم محمود وبرصيد خبرتها العميق والمكتسب من قعدتها الطويلة قدام

باب بيتها فقالت: ده حتى في الأفلام بيعملوها أحسن من كده. ولأن هذا هو ما حدث فعلا، وبهذه الركاكة المحزنة، يمكن القول أن أمي كانت، بإضافة خبرتها الريفية إلى ثقافتها المنزلية البسيطة، تتفق مع «أم محمود» بشعبيتها الثقيلة في أن الحياة تقلد الأفلام. لكن أم محمود كانت تذهب إلى أبعد أو أعمق من أمي إذ ترى أن التقليد هذه المرة كان رديئا.

لم يكن هبوط ثريا إلى العالم السفلي سوى إعلان بسيط عن هبوب عاصفة جديدة من شبق طازج يوقظ الحجر ويعلق شباب «الجيار» ـ باستثناء علي أبو العز ومحمود عمّار، بعد أن عقدا العزم على الخروج من نفق الثانوية العامة الطويل ـ جميعا في الشبابيك والبلكونات. وهو ما جعل الذكور ينسون فعلتها العجيبة مقدرين ـ رغم قلة خبرتهم الفعلية ـ أن هذه العجينة الأنثوية الخالصة لا تستطيع البقاء طويلا تحت خيمة عسكرية. وهو السبب نفسه الذي حرمها من غفران نساء سيدي عبد العزيز اللواتي خسرن مجدهن. وبينما كنا منشغلين بحركات ثريا المهيجة، والكشف عن مغامرتها القديمة مع وجدي الميكانيكي، قبل دخوله الجيش وهروبه منه، وزواجها من الضابط، اشترى صالح القهوجي البيت العجيب الذي كانت تسكنه أم ممدوح في نفس الوقت الذي كان يعلن فيه عن افتتاح مقهاه الجديد الكبير في قلب شارع قناة السويس. وقبل أن يكف الكبار عن طرح السؤال الطبيعي: من أين لصالح كل هذه الفلوس؟ كان القهوجي يهدم بيت أم ممدوح مطلقا طوابير هائلة من الفئران على بيت الجيار والبيوت المجاورة.

هرمونات قابلة للاشتعال

كأنني نمت وصحوت فوجدت شعرا خشنا تحت إبطي وفوق عانتي.

لم أنتبه للزغب الأسود تحت أنفي الكبير، ولم أنتبه لاتساع جبهتي وتراجع خط الشعر في رأسي من على الجانبين، ولم ألحظ أن شعري الناعم قد فقد قدرا من نعومته وصار إلى الخشونة أميل، رغم أن كل هذا يحدث منذ سنة تقريبا. ولم أهتم حين اكتشفت أمي أنني أصبحت طويلا وغالبا سأكون مثل خالي «فتحي» الذي هو فارع الطول، ولم أحزن حين خيبت ظنها وبقيت على حالي قصيرا مثل باقي عائلتي. ولم أعرف هل أحزن أم أفرح كلما رآني واحد من أقاربي وقال لي إنني أصبحت نسخة من أبي، لكن أذاني كانت تشتعل وأنا أبتسم في خجل مثل البنات، وأضع وجهي في الأرض. طوال عمري وأنا مزيج من الخجل والعنف، وحيث أن علاقتي بالشارع صار لها سنين مقطوعة، أصبح المجال الوحيد لممارسة العنف والتنفيس عن الغضب الذي لا أعرف من أين يأتي ولا متى ينفجر هو البيت. لا أعرف ما الذي كان يضايقني بالضبط لكنني كنت أشعر أن عالمي ضيق وأنني مخنوق. لم

يكن لي أصدقاء. فقدتهم جميعا واحدا وراء واحد. كنت كلما اقتربت من زميل في المدرسة وحكيت عنه لأبي، الذي كنت أحكي له كل شيء بالتفصيل، يقول لي: الواد ده هيضيعك ما تمشيش معاه تاني. وفي اليوم التالي مباشرة أجد نفسي مبتعدا عن هذا الزميل عملا بنصيحة الوالد. حتى أصبح هو صديقي الوحيد، وعالمه هو الآخر أضيق من عالمي فصار كل منا يخنق الثاني. هو يحبني دون شك، لكن حبه قاس، وأنا عنيف. وصار كل ما بيننا تمرين على الغضب، ميدان رماية بالذخيرة الحية. كل ما يقوله خطأ، و «لا» هي الإجابة الوحيدة على أي شيء يطلبه مني. ولم يفلح أي شيء في تهدئتي: لا الرسم ولا تعلم الرقص ولا كتابة الشعر.

في يوم من تلك الأيام قمت عن النوم مبتلا. فزعت، وتهيأ لي أنني تبولت على نفسي. تحسست الفراش من تحتي فوجدته ناشفا. إذن ما الذي حدث؟ مددت يدي داخل سروالي، كان الشيء الذي بللني لزجا. كان من عادتي حين أصحو من النوم أن أقفز خارج السرير مباشرة، الآن علي أن أتمهل. قربت أصابعي المبلولة من أنفي فلم أجد رائحتها بولا بل رائحة أخرى غامضة، لا أعرفها ولم أشمها من قبل. تأكدت أن بنطلون البيجامة غير مبلل، وأن البلل طال سروالي الداخلي فقط، فقمت من السرير متثاقلا. تسللت إلى دولاب الملابس، وأخذت سروالا نظيفا خبأته تحت ملابسي ودخلت الحمام. لبست السروال النظيف، ودفنت المبلل وسط الملابس المتروكة للغسيل وفي رأسي سؤال بلا جواب: ما الذي ستقوله أو ستفعله أمي حين تجد سروالي

على هذه الحالة يوم الغسيل. لم يكن لدينا غسالة، وهي تغسل كل الملابس على يديها، وبالتأكيد ستأخذ بالها. لكن ما حدث في اليوم التالي كان أسوأ. لم أصحو من النوم من نفسي كالعادة، بل كان هناك من يهزني. قمت مفزوعا. كنت أحلم، وكانت « فايزة» تستحم في دماغي. كان سروالي مبلولا وبين فخذي شيء صلب. فتحت عيني فلم أجد في الغرفة غيري، نزلت من السرير بهدوء وجسمي كله مقوس ومائل إلى الأمام يداري خيمة في البنطلون. لم أجد في الدولاب سراويل داخلية نظيفة، وفي البيت تنتشر رائحة البوتاس بما يعني أن الملابس الداخلية البيضاء تغلي على النار وأن في بيتنا حفلة غسيل. ما العمل؟ لا ما مفر من البقاء هكذا.

طوال اليوم وأنا أختلس الفرصة وراء الأخرى لأختلي بنفسي متابعا، بشغف خجول، تحولات البلل في ثيابي، حتى أخذت الفضيحة شكلها الكامل: بقعة صفراء ناشفة تغطي مساحة كبيرة من سروالي الداخلي. وفي الوقت نفسه كان شغفي الخجول يتحول بهدوء إلى فخر عجائبي كامل. فضيحة خاصة ولذيذة، لا يحق لأحد أن يطلع عليها، فكيف أحتفظ بها لنفسي؟ لا يمكن الاحتفاظ بالسروال نفسه، يعني لازم أغسله أنا بنفسي؟ شعور غريب بالضياع تملكني وأنا أفكر في أن الطريقة الوحيدة للاحتفاظ باللذة هي أن تمحو آثارها.

بعد العصر بقليل، كان البيت كله نائما، تسللت إلى البلكونة وأخذت سروالا داخليا نظيفا ودخلت الحمام. وقفت تحت الدش عاريا إلا من سروال الفضيحة. غسلت نفسي وغسلته. وقبل أن أخلعه كان ذكري

ينتفخ بسرعة الصاروخ. وحين خلعته كان ذكري منتصبا بقوة. لم يكن عموديا على جسمي، بل موازيا له، مقوس بشدة، يشير إلى أعلى، إلى السقف، إلى السماء. كان تصلبه الشديد يتحكم في جسمي تماما، يجبر جذعي على التقوس، ويجبر ساقي على الانفراج. حاولت تهدئته بالماء البارد ولم أفلح. تجاهلته ورحت أدعك جسمي بالصابون بهدوء تارة وبعنف تارة أخرى ولم أفلح. كأن له دماغ وحده، دماغ ناشفة، أنشف من دماغ صاحبه. فجأة رأيت « فايزة » في عريها الكامل تستحم أمامي، تستحم معي، ويدي الغارقة في الصابون تتسلل إلى ذكري المنتصب تدلكه بهدوء، بحذر، من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى. وجسمي كله يتحرك على الإيقاع نفسه، لوحده. كنت في عالم آخر، في لا مكان، في لا زمان، بلا وعي، جسد فقط يحرك نفسه بنفسه، للخلف وللأمام، يدفع ذكري داخل قبضتي المضمومة عليه ويخرجه. هذا السحر يجب ألا ينتهي. لكن الحركة تزداد قوة، تتسارع، تنفلت وتنفلت وتنفلت بأكثر من آهة تكتمها عضة على الشفة السفلى، وماء أبيض يندفع إلى بعيد في دفعات مقوسة متتالية ما تكاد تصل إلى البلاط حتى تبتلعها المياه الجارية. مستندا إلى الحائط والجسد يرتخي في غيبوبته الكاملة. وفايزة تخرج بعريها الكامل من شق وهمي في الحائط المقابل. أفتح عيني على التئام الحائط المتآكل وحرقة الصابون في جلد ذكري، وفتحة البول الملتهبة تشعلها رغبة لا تقاوم في تبول عصبي لاسع. أكملت حمامي بارتباك وبرغبة خفية في الفرار من الحمام. خرجت منتعشا ومفككا تاركا سروالي المبتل معلقا خلف باب الحمام. وحين

رأته أمي وسألتني عن سر تعليقه بهذا الشكل، ادعيت سقوطه عفوا أثناء استحمامي فتركته هكذا لكي يجف.

مر الجزء الثاني من اليوم عاديا، باستثناء أنني كنت أقل عصبية من اليوم الفائت، عملت لأبي الشاي مرتين ـ وفي المرتين أعجبه، وفتحت له التلفزيون خمس مرات وأغلقته برضا تام. وبين كل فتح للتلفزيون وإغلاقه حديث ودي سريع لا يخلو من تحرشات متبادلة ومتعمدة كأن أحدنا يجر «شكل» الآخر، والآخر لا يستجيب.

كلما تقدم الليل وزاد الهدوء في الخارج زاد توتر أصابعي. فشلت تماما في النوم. أرداف كثيرة تتحرك في الظلام، أفخاذ مفتوحة على الحائط، ونهود تتدلى من السقف. وكلما أغلقت عيني زادت الصور وضوحا. كنت أتقلب على نار غير هادئة تشتعل في سريري. أفتح عيني وأغلقها كالبروجيكتور. والصور الخليعة تأتي وتذهب لتأتي بغيرها: بزاز فايزة .. تك، طيز ثريا .. تك، كيلوت أمينة .. تك. تك تك تك. ساعة، ساعتين، كأن الليلة لن تفوت، وأن «عشرة «واحدة في اليوم لا تكفي. رميت الغطاء الخفيف، وقفزتُ خارج السرير عرقانا. مررتُ على الثلاجة وشربتُ لتر ماء بارد دفعة واحدة. ثم انطلقتُ إلى المطبخ، لا أعرف لماذا المطبخ الآن؟ في الحوض كم كبير من الأواني والأطباق والملاعق الغير نظيفة. انهمكت في غسلها ـ دون تفكير ـ بهدوء وتوتر من يفعل شيئا ما للمرة الأولى. ووضعت كل نوع في مكانه كما تفعل أمي بالضبط. ثم مسحت البلاط، ووقفت في وسط المطبخ مزهوا بنفسي. وحين شعرت أنني أصبحت مرهقا بالفعل ذهبت إلى فراشي،

لكن النوم ـ بعد كل هذا ـ لم يأت. كأن الصور التي هربت منها، وتركتها معلقة في أركان الغرفة الأربعة، كانت مصرة على البقاء مجمدة في مكانها منتظرة عودتي كي تواصل عرضها الفاضح. هذه المرة لم أقاوم كثيرا، ومددت يدي إلى الخيمة التي في بنطلوني وفعلتها مرة ثانية، وقبل أن يرتخي جسدي كنت غارقا في نوم عميق. صحوت من النوم قرب الظهر، غسلت وجهي وعملت شايا، واربت الشباك وبصيت على سيدي عبد العزيز، كان غارقا في شمس ساخنة، وأمي في البلكونة تؤكل البط وتحكي لواحدة من الجارات عن العفاريت التي غسلت لها الأطباق ومسحت لها المطبخ وهي نائمة بالليل.

لم تكن العفاريت التي تغسل أطباق أمي في الليل تتركني في حالي بالنهار. كنت أستغرق ساعات طويلة في القراءة دون أن أقرأ شيئا، أو في الرسم دون أن أرسم سوى نهد واحد كبير بحلمة كبيرة يقطر منها اللبن. كان اليوم كله يضيع إما في التلصص على النساء من الشبابيك ـ ربما كان هناك من تبدل ثيابها، أو من تنشر غسيلها، أو من تمسح البلاط ـ أو في تدبير زمان ومكان الخلو إلى النفس وممارسة العادة السرية. مرة ومرتين وثلاثة وربما أكثر في اليوم الواحد. وبين مرة ومرة يكون شعور حارق بالندم. وبين مرة ومرة يكون القسم أنها ستكون آخر مرة. ولا أعرف حتى الآن ما الذي يربط اللذة بالأسى.

كان توتري يزداد، وأعصابي أسلاك كهربائية عارية بانتظار أي لفحة هواء عابرة لكي تلامس بعضها مشعلة حرائق لا تجد ما تأكله، فتأكل نفسها. غضب على غضب. كل شيء تافه، وكل الناس كذابين. النوم

عصي. وإذا نمت سقطت في الحلم من سطح « البيت العالي » في هوة ليس لها قرار، وقمت من النوم مفزوعا. بقيت أخاف من النوم بالليل، وبقيت كما يقول أبي «خفاش». أمي التي تترك الأطباق للعفاريت تغسلها كل ليلة قالت أنني محسود وأنه معمول لي عمل، وطاوعها أبي، فذهبت إلى البلد خصيصا لزيارة شيخ هناك مكشوف عنه الحجاب فأكد لها صحة تشخيصها وعمل لي عمل مضاد.

انتهى الصيف لكن النار لم تبرد. في مدرسة الملك الكامل الثانوية استقبل الزملاء العام الدراسي بحديث مثير عن «ضرب العشرات». كل واحد تقريبا كان يحكي بفخر عن حجم عضوه الذي قاسه ـ منتصبا ـ بالمسطرة، وعن الطريقة التي يمارس بها عادته السرية. وكل واحد كان يدعي أن عضوه ـ بالمسطرة ـ أضخم من الثاني، ثم يستغرب طريقة الآخرين قبل أن يسترسل في شرح طريقته هو. سمير كان يحضن المخدة ويحك نفسه فيها حتى ينزل، عادي. وماجد يعملها في الحمام، عادي، لكنه في مرة من ذات المرات عمل خرما في بطيخة قرعة وعملها مع البطيخة قبل أن تخرطها أمه للبط، يخرب عقلك. أما مدحت فكان يعملها جالسا على كرسي المكتب فاتحا مجلة جنسية، تدخل في دائرة أملاك أخيه الكبير، بعد أن يكون قد قطع ورقة بيضاء من كشكول مدرسي قديم وعملها قرطاسا يضعه بين رجليه وعضوه في يده دون صابون أو كريم حتى يقذف منيه في القرطاس. ثم يقفل القرطاس ويرميه خلف السرير الذي يؤكد أن تحته الآن عشرات القراطيس، وأن رائحة حجرته أصبحت مريبة وأن أمه تشك في شيء ما لكنها لم

تعرف حتى الآن من أين تأتي هذه الرائحة. كنت أشارك في الحديث بالاستماع، وحين جاء علي الدور لكي أحكي ادعيت أنني لم أجرب بعد، وقلت إنهم مجرد عيال وسخين. وحين رجعت إلى البيت انتهزت فرصة تبديل ثياب المدرسة ووقفت أمام المرآة الكبيرة التي تبطن باب الدولاب لكي أقيس عضوي مثلهم لكن دون مسطرة.

الأيام تتوالى ووتيرة المشاحنات بيني وبين أبي، الذي بدأ غضبه يتزايد من استغراقي في قراءة الروايات والكتب الأخرى أكثر من استغراقي في المذاكرة، في ارتفاع مستمر. وتصادف في هذا الوقت أن علاء ابن عمي (علي الثالث) كان يقيم عندنا. لاحظ علاء توتري الدائم، فنصحني بالصلاة وقراءة القرآن. قلت لنفسي ربما يكون هذا حلا. على الأقل سأحافظ على نظافة جسمي وطهارته. وبدأنا نصلي معا، هو إمامي وأنا خلفه. تقبل الله يا شيخ إبراهيم، منا ومنكم يا شيخ علاء. قل يا علي اسمي علي وليس علاء. ويفتح كل منا مصحفا صغيرا ونقرأ شيئا من القرآن. كنت أصلي في خشوع حقيقي. أطيل الركوع والسجود حتى تؤلمني ركبتاي خاصة ركبتي اليسرى التي تبين فيما بعد أن حولها عدد من الزوائد العظمية الكبير؛ تعيق حركتها. وبدلا من يوسف إدريس استغرقت في قراءة الأدعية والأحاديث التي ينسخها ابن عمي بخطه الجميل في كشاكيل محاضراته. لم يكن علي الثالث قد أطلق لحيته بعد، ولم تنبت لحيتي أصلا لكي أطلقها. أدخل الحمام بالشمال متمتما اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث، وأخرج باليمين متمتما الحمد لله الذي اذهب عني الأذى وعافاني. وأغمض عيني واضعا وجهي في

الأرض إذا ظهرت راقصة في الفيلم الذي يعرضه التلفزيون.

لم يقل توتري، ولم تتوقف النساء عن مطاردتي في الصحو وفي النوم. كنت أراقب الناس وأبي يراقبني. عم «طلبة» البقال الذي يغلق دكانه مع كل آذان، ويذهب إلى مسجد «أبي دبوس» القريب من أجل الصلاة، يعامل الناس بقرف شديد، يبيع لهم بضاعة تالفة ويرفض بكل صلف أن يردها أو يرد ثمنها. وعم «توفيق» البقال الثاني في شارع الإمام الليثي، يصلي في دكانه معطيا ظهره للشارع، يبدو طيبا جدا مقارنة بعم «طلبه» لكنه يغش في الميزان. الغالبية العظمى من البقالين والجزارين تفعل مثل ما يفعل طلبة وتوفيق. أمي، بكل بساطة، تقول أنها أخلاق بقالين، وإلا ما كانوا شيدوا بيوتا تسد عين الشمس، والشيخ علي يقول من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له. كنت أميل إلى رأي أمي. وبدا لي أن أمي التي لم أرها تصلي ولا مرة واحدة أكثر تماسكا وأكثر جدية من كل الآخرين حتى من أبي نفسه. كان أبي يصلي لكن كان بإمكانه أن يسب العالم كله وهو واقف على سجادة الصلاة. كان رجلا طيبا، نعم. لكن ما كان يشغلني وقتها هو التناقض. ليس تناقض الآخرين فقط، بل تناقضي أنا: بين تغميض العين ووضع النظر في الأرض إذا ظهرت في الفيلم راقصة، وبين استدعاء صورتها وحركتها المثيرة وقت الاستمناء. بين رجفة رومانتيكية الطابع، تهزني حتى مشارف البكاء، في لحظات تحقق حلم بطل الفيلم حتى لو كان تافها وبين رغبتي في ضرب أستاذ الرياضيات، البغل الذي يحشر نفسه في عربة فولكس فاجن قديمة، حتى الموت. وبعد أن أقتله وأعلقه من

قدميه كذبيحة في دكان الجزار أمتلئ بخواء عظيم. خواء من ليس لديه حلم يسعى وراءه، أو حكاية محزنة يعيش مخلصا لها. صحيح أن جزء كبير من مشكلتي مع أبي أنني كنت أعني لا عندما أقول لا وأنني كنت أعني نعم حين أقول نعم، إلا أن هذا لم يكن يعني أنني متسق وصادق مع نفسي. لكنني كنت أتصدر في الهيافة، يعني عندما تكون لا أو نعم بلا معنى، أما في الموقف الجد فكنت أفعل ما يطلب مني، وأعيش الدور المرسوم لي دون اعتراض حقيقي، أو موافقة جادة. كنت أريد أن أضحك، أن أبتسم حتى، لكن عضلات وجهي لم تكن تطاوعني. من أين تأتي هذه الكآبة كلها؟ ربما كانت أدعية المراحيض تطرد الشياطين من الحمام فعلا لكنها لم تكن كافية لزحزحة الوسواس الخناس من صدري. كانت كل حواسي تعمل لوحدها وعلى مدار الساعة تفتش عن السر وراء ذلك. لماذا يقول الناس شيئا ويفعلون شيئا آخر؟ لماذا يكذب الواحد على نفسه وعلى الآخرين؟ ما الذي افعله هنا، في هذه الحياة؟ لماذا نعيش؟ وأين نذهب حين نموت؟ ولماذا نموت أصلا؟

بدأت أزوغ من الشيخ علي وقت الصلاة متعللا ببرودة الماء في الشتاء بينما يعدني هو بزيادة الثواب. وبدأت أنفر من الشجاع الأقرع ووسائل التعذيب الأخرى في القبر. كأن العذاب الذي أعانيه هنا لا يكفي؟.

حتى كان يوم ١٧ يناير ١٩٧٧. أدخل عمي عبد الخالق إلى قسم الأمراض الباطنية عنبر رقم ٣ بمستشفى جامعة المنصورة مصابا بنزيف حاد من دوالي المريء. ذهبت مع أبي لزيارته. كان عمي شاحبا جدا

بعد أن نزف كميات كبيرة من دمه. وكان أبي متأكدا أن أخيه سوف يموت فعدد الذين نجوا من هذا النزيف قليل كما يقول. رائحة المكان التي هي مزيج من الديتول والقيء الدموي كريهة جدا. والأسرة التي كان لونها أبيض لم يعد لها لون محدد من كثرة الدم والبول الذي سال عليها. والبشر الذين غابت عيونهم المصفرة في محاجرها، المعلقة حياتهم بخرطومين: واحد يدخل من الأنف واصلا إلى المعدة، والآخر مثبت في الذراع ينقل الدم من كيس معلق في الهواء إلى جسد جفت أطرافه وانتفخت بطنه لا يستحقون هذا العذاب. شعرة واحدة غاية في الرقة تفصل الواحد منهم عن النهاية التي يمكن أن تكون أكثر رحمة بهم من هذه الحياة. الغريب أن الممرضات كن يتحركن ببلادة غير مفهومة بل ويتبادلن الضحكات، كأن ما يحدث لا يعنيهن، أو كأنهن ملائكة الجحيم، في فيلم أبيض وأسود، تحصي الجثث وهي تمضغ اللبان. لم ينم أحد في بيتنا تلك الليلة، فكيف يمكن للواحد أن ينام بعد معاينة هذا الخراب وهذا العبث.

في اليوم التالي اندلعت المظاهرات. ورغم حظر التجول، تمكنت العائلة كلها من عقد آخر اجتماع لها حول سرير عمي. كان هم أبي أن الأطباء لن يستطيعوا الوصول إلى المستشفى من أجل القيام بعملهم في إنقاذ أخيه. لكن قلقه في اليوم التالي، رغم استمرار المظاهرات، كان أقل. مر يومي القلق، لم ينزف عمي خلالهما ونقل له ما يكفي من الدم وأصبح بالإمكان نقله إلى البيت، والحديث عن المستقبل.

مر الشتاء وأنا أصلي خلف الشيخ علي مرة وأتخلف مرات. لم أكن متأكدا من أي شيء، والشيخ علي باله طويل، يطمئنني بأنها نوبات من ضعف الإيمان علاجها في الصلاة والمزيد من التقرب إلى الله. في نهاية العام الدراسي كانت درجاتي أقل من المعتاد وهو ما كان يتوقعه أبي لكنه لم يتقبله. كان حلمه في أن أكون طبيبا ينهدد. وأنا لا أعرف ما الذي يمكن أن أكونه بالضبط. بعدها بقليل جرت واقعة برطمان العسل التي ورد ذكرها في سيرة علي الثالث في الفصل الأول. قلت في نفسي: حتى أنت يا مولانا. هل هذا مجرد فصل في ضعف الإيمان، أم أن هناك شيء آخر يتحكم في البشر.

أوقفوا العالم: أريد أن أنزل

لم يكن نجاحي في الثانوية العامة، مثلما كان في الشهادتين السابقتين، مبهرا، لكنه كان كافيا لاستمرار العمل وفق السيناريو الذي تم تفصيله على مقاس طفولتي المشرقة. والظاهر أنني كنت مرتبطا بالقاعدة العلمية التي تزعم أن كل الأطفال أذكياء، وأن النسبة الغالبة من هؤلاء الأذكياء تبعثر معدل ذكائها ببذخ وغباوة، فينخفض تدريجيا كلما تقدم بهم العمر وارتفعوا عن مستوى الأرض. وفي الوقت نفسه كان أبي متمسكا بالاستثناء الذي يؤكد القاعدة، وربما ينفيها في مناسبات أخرى حسب الهوى والغرض، والذي يفيد أن بعض هؤلاء الأذكياء يحتفظ بمعدل ذكائه المرتفع من المهد إلى اللحد، بل أن بعضهم تتفتح مواهبه الكامنة، لدرجة أن يوصف بالعبقرية، في مراحل متأخرة من العمر. كان مصرا أن ما حدث ليس سوى كبوة جواد ربما تكون أهانت الفارس لكنها لم تسقطه. وآه لو عرف أن فارسه المهان كان يذهب بفلوس الدروس الخصوصية إلى السينما، وأنه كان يقضي الليالي في صحبة «ذباب» سارتر و«أم» مكسيم جوركي، هذا إذا لم يكن فاتحا كتاب «الطبيعة» على صفحة ما يتأمل فيها جثته الغارقة في خدر أحلام اليقظة اللذيذ.

المهم، دخلت كلية الطب دون رغبة، وطوال سنوات الدراسة، وربما بعدها أيضا، كنت أدعي أنني دخلتها رغم أنفي. والحقيقة أنه لا علاقة لأنفي بالموضوع. والحقيقة أيضا أنه لم تكن لي رغبة لا فيها ولا في غيرها. لم أكن أعرف ماذا أريد أن أكون لا على وجه التحديد ولا على وجه التقريب أيضا، فتركت الكبار يدبرون لي مستقبلي، وتركت نفسي تنفذ هذا التدبير كأنها حياة شخص آخر. وبمرور الوقت أصبحت كائنا بروحين. واحد حاد، متجهم، يقرأ الكتب، ويكتب شعرا لا يلقيه إلا على دائرة الأصدقاء الضيقة، ولا ينشره إلا في مجلات الحائط - دون أن يفكر مرة واحدة في أن يرسل أي من هذه النصوص التي يكتبها إلى أي من المجلات الأدبية خشية أن توضع في بريد القراء وتنجرح صورته المتغطرسة. أما الثاني فكان يحضر المحاضرات التي يزوغ منها الأول، ويدخل المشرحة خانقا أنفهما معا برائحة الجثث الغاطسة في الفورمالين. ويبدو لي أن الثاني، على الأقل في البداية، كان أكثر تسامحا من الأول. فهو غالبا ما يترك له العام كله يعيش فيه ضلالاته المزمنة حول فهم العالم، والحلم بتغييره، ويكتفي بشهر واحد فقط قبل الامتحانات يستعيد فيه ما ضيعه الأول، ومن ثم ينجح، وبشكل جيد، يقنع الأول أنهما معا على الطريق الصحيح. يعني واحد حالم وواحد عملي، واحد خيالي والثاني واقعي، واحد طائش والثاني يلجمه. وطبيعي أن يضيق الحالم الخيالي الطائش بالعملي الواقعي الذي يلجمه، لكنه لم ينجح ولا مرة واحدة في أن ينزله من على أكتافه المتخاذلة. ربما لم تكن المحاولة مخلصة بما يكفي لإنزاله، وربما كان يشعر بحاجته إلى وجوده المنقذ؟

وربما، أيضا، كان كل منهما يعتقد أنه يجمل صورة الآخر، ليظهرا معا أمام الناس في شكل الحالم بعمق، الطائش بعقلانية، الخيالي الملتزم، الخ. وغير معروف أيهما كان يضحك على الآخر ويقنعه بجماليات هذه الصورة البائسة. صورة كائن لا يعرف ماذا يريد، ولا ما يحب أو من يحب، وكانت صورته الكئيبة تنطبع على وجهي يوما بيوم، وكنت أعي وجوده لكنني لم أستطع أن «أفرد» وجهي، أو أن أضحك من قلبي مرة واحدة طوال سنوات. ورغم أنني لم أستطع بلع دموعي وأنا أذوب في صورة «دوريان جراي» المتوحشة، ورميت الرواية من شباكي المطل على «سيدي عبد العزيز»، حتى لا أكره أوسكار وايلد، إلا أنني لم أقدر أبدا أن أكون واحدا.

المهم، قبل أن نلتحق بجامعة المنصورة في نهاية السبعينيات من القرن الفائت، كنا نسمع ما يشبه الأساطير عن طلابها الناشطين سياسيا وثقافيا. عن النادي الديمقراطي والنادي الناصري: الأول أسسه الشيوعيون والثاني أسسه الناصريون بالطبع. وعن الندوات التي قاموا بتنظيمها وحاوروا من خلالها المفكرين الكبار، المعارضين لنظام السادات خصوصا، والمجلات الحائطية التي حرروها والمظاهرات التي قادوها فقادتهم إلى السجن، قبل وبعد أن هزوا كرسي الرئيس في يناير ١٩٧٧. وحين التحقنا بالجامعة في العام ١٩٧٩ لم نجد أثرا للنادي الديمقراطي، وشاهدنا وحيدا على النادي الناصري. الحوائط خالية من المجلات إلا مجلة وحيدة لأسرة «الصورايخ»، وإعلان كبير لنفس الأسرة عن رحلة إلى الأقصر وأسوان. أما اتحاد الطلاب فكان في

قبضة الجماعة الإسلامية، التي تعمل بهمة في تصوير الكتب والمراجع وبيعها للطلبة بأسعار زهيدة، وفصل البنين عن البنات، وترغيب «الإناث» في لبس الحجاب. الكثير من الناشطين اليساريين كان قد تخرج من الجامعة بالفعل. وحمل البعض منهم حقائبه واختفى، بعيدا عن الوطن (الاتحاد السوفيتي، الجزائر، ليبيا، لبنان...)، ومن بقي في الداخل بقي مكتئبا أو منكفئا على شأن خاص يعالجه. أما الذين لم ينهوا دراستهم بعد (خاصة في كلية الطب) فقد حول أوراقه إلى كلية طب بنها أو الزقازيق حيث إمكانية التخرج بتقدير مرتفع أكبر في هاتين الكليتين منها في طب المنصورة. باختصار كانت الأساطير تتخلى عن تفاصيلها الجاذبة وأجنحتها المفرودة لتحط على أرض الواقعية الصلبة ناشرة قدرا لا بأس به من الإحباط في نفوس الحالمين من الطلبة الجدد. في هذه الأجواء التحقنا (عبد الحكم سليمان وأنا) بكلية طب المنصورة. كنا أصدقاء من ثانوي، يجمع بيننا الكثير من الأشياء أهمها إقباله على الحياة وكآبتي. كنا وحيدين تماما وبلا عون حقيقي من الجيل السابق مباشرة، وربما كان هذا في صالحنا، فهذا الجيل تحديدا كان عارا حقيقيا على الجامعة، وعلى نفسه، قبل أن يكون عارا على اليسار. كان علينا أن نبدأ من نقطة الصفر تقريبا: مجلة حائط هنا، وحلقة نقاش حولها، تضيق أحيانا وتتسع أحيانا، وهكذا. وفي العام التالي صرنا ثلاثة، وفي العام الذي بعده صرنا خمسة ثم سبعة ومن حولهم بعض المشجعين المتحمسين والقليل من الأنصار. ولا أدعي أن هذه الزيادة العددية كانت ثمرة جهود أي شخص، أو أي جهة، بل مجرد تناسل

طبيعي أو عشوائي فرضته الظروف والأحوال. وكان بينهم ، شيوعيين، وماركسيين، وناصريين، وليبراليين، وناقمين.

مع بداية العام الأول في الجامعة، أي في إعدادي طب ـ السنة الدراسية التي ألغيت بعدنا بدفعة واحدة أو دفعتين على أقصى تقدير ـ والذي بدأ بالنسبة لي متأخرا لأسباب سترد في حينه، تبين لي أن هناك أكثر من ثلاثين طالبا وطالبة تزاملوا معا في مدرسة النيل الابتدائية المشتركة. وكان من بينهم «أمل»، وبحكم الحروف الأبجدية كانت زميلتي في السكشن. لم يعن الأمر لي في البداية أي شيء، لكن مع نهاية العام تبادلنا، وبالمصادفة، خمس جمل ناقصة. خمس جمل قطعها أحد الزملاء وانصرفت الصبية. خمس جمل كانت كافية لمحو ست سنوات ونصف، تصور، وإعادتي إلى الصف السادس الابتدائي. لكن هذه المرة لم أكن أبحث عنها في حوش الكلية بقدر ما كنت أهرب في النهار منها. كانت تملك علي الليل بطوله. وكنت أقضي الليل صاحيا: غدا سأقول لها أنني أريد أن أتكلم معها، غدا سأقول لها أنني أحبها. ثم أرد على نفسي: هذا ليس الحب، يجب علي أن اقترب منها، أن نكتشف بعضنا أولا ثم نرى. ثم أنقلب على جانبي الآخر: هل هذا طبيعي، هل كنت أحبها طوال السنوات الماضية، من سادسة ابتدائي حتى الآن، لا لا هذا ليس حبا، هذا مرض نفسي، وغدا سأعالج نفسي من هذا المرض، سأواجهها وأقول لها عن معاناتي: إما نعم وتبدأ القصة وإما لا وينتهي كل شيء. وبالنهار كان مجرد ظهورها في الكادر كفيل بتوليد شحنة من الخجل العصبي كافية لإيقاف قلبي عن العمل. وما بين غياب النهار

ودخول الليل كنت أفلسف حالتي مدعيا أننا لا نحب الشخص بل القصة التي نعيشها معه، الأسطورة التي نخلقها حوله. لم يكن يفوتني أن القصص ليست سوى مجموعة من التفاصيل. وكان علي اختراع ما يلزم لجعل الأسطورة حية: اليوم كانت واقفة مع صاحبتها وكنت مارا بالصدفة نظرت لي بطريقة كأنها تريد أن تقول شيئا، اليوم كانت تقرأ قصيدتي الجديدة المنشورة في مجلة الحائط، اتجهت نحوها لكي اكلمها لكن زميلا أوقفني ليقول رأيه في القصيدة، وقبل أن يكمل كلامه كانت قد انصرفت، وطبعا اصب اللعنات على هذا الفسل الذي ضيع علي فرصة لا تعوض. وطبعا أصبت المقربين من أصحابي بالملل من كثرة ما كررت على مسامعهم « لا تفاصيل» هذه القصة المريعة. تخيل ثلاث سنوات كاملة من التقلب على الجانبين، وتكرار نفس الجمل بحذافيرها كل ليلة، ثلاث سنوات كاملة من الخجل العصبي كل نهار. وتخيل أنه طوال هذه السنوات لم نتبادل سوى هذه الجمل الخمس الناقصة وعشر دقائق في المشرحة، مصادفة، تذاكرنا فيها تشريح عضلات الوجه على جثة غير كاملة. كان الانتقال من الاستمناء البدني إلى الاستمناء العاطفي مجرد فصل في اكتمال الخراب.

ولما كانت السنة الرابعة، وانتبه بعضنا إلى أن العدد صار كبيرا، تأسست أسرة (الأدب والفكر). لا أعرف بالضبط من كان وراء تأسيسها، ولا أعرف هل كانت فكرة شخص، أم يقف وراءها تنظيم سري، يهدف إلى إحياء النادي الديمقراطي بعد سنوات على وفاته أو اختفائه. والحقيقة أنها كانت أسرة ديمقراطية فعلا، فبعد عدد من الاجتماعات

المطولة في القاعة المخصصة لاتحاد الطلبة، ثم إعلان بيانها التأسيسي، بدأت نشاطها بعرض عضويتي أنا وعبد الحكم للمساءلة. كان هناك فريق، أو قل شخصين على وجه التحديد، من الأعضاء المؤسسين يرى ضرورة فصلنا من الأسرة، باعتبارنا شيوعيين(كأنهم ليسوا كذلك)، ووجودنا معهم سيضر بسمعة الأسرة كلها، ويضعها في خانة محددة، وهم لا يرغبون في ذلك. أما باقي الأعضاء فكان يرى ضرورة أن تجمع الأسرة، باعتبارها ديمقراطية، جميع الاتجاهات الموجودة في الساحة من شيوعيين وناصريين وليبراليين، الخ. وبناء على الاقتراح المقدم من الزملاء المؤثرين الذي طرحوا الموضوع، ولكي يؤكدوا على ديمقراطيتهم، تنازلوا عن رغبتهم في فصلنا مباشرة ورضخوا لفكرة التصويت التي طرحها الآخرون. وكالعادة كنت أتفرج على المشهد الساخن كأنه لا يعنيني. وجاءت النتيجة مخيبة للفريقين، أي لنا ولهم، وبقينا في أسرة الأدب والفكر. بعدها نظمت الأسرة عددا محدودا من الحفلات الثقافية والفنية ذات الطابع الخاص والمتميز بما يجعلها علامة هامة وفارقة في السيرة الذاتية للقائمين عليها، بل وفي السيرة الذاتية لكلية طب المنصورة ذاتها، رغم نهايتها المؤسفة ككل ما سبقها من أشكال الفعل الطلابي الأخرى.

المهم أننا خضنا، في هذه السنوات، تجربة انتخابات اتحاد الطلاب: لم ننجح في المرة الأولى، وفي المرة الثانية لم يوافق الأمن على ترشيحنا، وفي المرة الثالثة كانت الظروف مواتية، حيث تعرضت الجماعة الإسلامية لضربة أمنية عنيفة عقب اغتيال السادات، فنجح

أصدقاؤنا وتسلموا رئاسة اتحاد كلية الطب ورئاسة اتحاد الجامعة.
في غمرة هذا النجاح البسيط، المشوب بقدر من الحذر، وقدر من الثقة في إمكانية تغيير العالم، وقدر أخير من انعدام ثقة الحلقات الصغيرة في بعضها البعض تجرأ احد أفراد الحرس الجامعي وقام بضرب احد طلاب كلية الهندسة. كان ذلك في آخر النهار من يوم الخميس الأخير من شهر ديسمبر سنة ١٩٨٣. فحدث ما لم يكن يتوقعه أحد: اندلعت المظاهرات في اليوم نفسه على استحياء، ثم بقوة في يوم السبت التالي مباشرة، وأعلن الإضراب العام بالجامعة حتى نهاية الأسبوع، وبمشاركة كل طلبة الجامعة تقريبا. اتسعت حلقات النقاش الضيقة لتضم العشرات في كل حلقة، ثم صارت هذه الحلقات استراحة بين مسيرتين داخل الجامعة. كان المشهد عجيبا ومؤثرا: البداية من هندسة، والقيادة من طب، والجميع في المظاهرات، والطلبات بسيطة: تعديل اللائحة التي تنظم النشاط الطلابي، إلغاء إشراف أعضاء هيئة التدريس على هذا النشاط، عدم تدخل الأمن في انتخابات الاتحاد وإلغاء الحرس الجامعي (بعد عقدين كاملين من هذه الأحداث سيشكل أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية حركة ٩ مارس رافعين الشعارات نفسها وراغبين في إحداث التعديلات نفسها !!). بالطبع عقدت مفاوضات بين الطلبة المضربين وإدارة الجامعة. قاد المفاوضات من قبل الجامعة جنتلمان حقيقي هو الدكتور فاروق عزت عميد كلية الطب وقتها (رقي بعدها مباشرة إلى منصب نائب رئيس الجامعة لشئون الطلاب !!) وفي الطرف الآخر وفد من الطلاب على رأسه علاء سلطان (طالب بكلية

الطب وقتها ومواطن أمريكي منذ عشرين عاما!!). وبعد لقاءات مطولة في المنصورة وفي القاهرة، واجتماعات مفتوحة واجتماعات مغلقة ولجان متابعة، وشد من هنا وجذب من هناك توقفت المظاهرات فجأة وانفض الإضراب دون نتيجة تذكر.

هدأت الرياح تماما، وحط الكثير من الغبار الذي تعلق بأحذية المتظاهرين على الأرض، وحط الكثير من الوجوم على الوجوه، التي كانت منذ يوم واحد مليئة بالحياة وبالعزم على تغيير العالم، فتوارت في المدرجات وكشاكيل المحاضرات. وانقسمت القيادات الطلابية على نفسها. كان كل فريق يرى في نفسه صاحب الفضل في النصر الذي لم يتحقق، وبالتالي يكون من حقه أن يحصل على النصيب الأكبر من تلك الكعكة الحجرية المتوهمة. تملك بعضهم شعور غريب بأنهم صاروا نجوما بالفعل، نجوما حيث لا حفل ولا كاميرات تضوي ولا سجاجيد حمراء تبسط تحت أقدامهم الخفيفة، فيما امتلأ بعضهم الآخر بالخيبة المزمنة. لكنهم جميعا، نجوما وخائبين، ساروا على نفس الطريق الذي شقه الذين من قبلهم، وبدلوا طريقتهم في الحياة وبدلوا طريقهم فيها، حتى الذين لم يبدلوا رؤاهم نفسها. فهل كنا مجرد أشباه مخلصة للجيل السابق (جيل السبعينيات)؟ ربما لم نكن ندرك أصلا أننا نشبههم، مثلما لم نكن ندرك أننا لا نقف على مسافة بعيدة بما يكفي من أنقاض حلمهم هم، فلم نعرف كيف نصوغ حلمنا نحن. وهكذا، فعلنا مثلما فعلوا، حلمنا على طريقتهم، وخرجنا مثلما خرجوا، لكننا كنا أكثر جرأة إذ عبرنا البحرين: الأحمر والأبيض، بل فينا من امتلك من الشجاعة ما

يكفي لعبور الأطلسي الكبير والاستقرار نهائيا في بلاد الهنود الحمر سابقا. المهم، بعد كل ما حدث وبالمصادفة قابلت الصديق محمد المخزنجي (كان وقتها طبيبا للأمراض النفسية بمستشفى المنصورة العام وقاصا شهيرا). كان على علم بالتفاصيل الصغيرة لكل ما حدث، وكان وجهي معبرا بما يكفي، فلم ينتظر لأقول له: تظاهرنا وأضربنا مدة أسبوع كامل، لم نكن نعرف بالضبط ماذا نريد، فقدنا الطلبة إلى لا شيء، بل باغتني هو بسخريته العميقة المدهشة: قدنا الناس في مظاهرات ١٩٧٧ حتى اقتحموا بيت المحافظ، وبعدها لم ندر ماذا نفعل بهم ولهم، ولم ندر إلى أين يمكننا أن نذهب معهم، فعدنا بهم إلى الجامعة وهناك قبض عليهم وعلينا.

بعد شهرين، ربما أكثر قليلا، عكفنا (عبد الحكم وأنا) على صياغة مجلة حائط جديدة (كانت الأخيرة) بطول مترين من الورق الأسود الكبير والمقوى. كان عبد الحكم ـ إضافة إلى ما يكتبه بهذه المجلات الحائطية ـ يقوم بمهمة الإخراج الفني لها وكان بارعا في هذا الشأن لدرجة أن تسأله لماذا لم يفكر يوما في أن يكون تشكيليا. احتلت مقالتي أقل قليلا من نصف هذا السواد العريض واخترت لها عنوانا يليق برومانسيتي الخائبة: أوقفوا العالم أريد أن أنزل. كان عنوانا مستعارا على أي حال، لكنه كان يتردد بداخلي منذ سنة حتى أحسست أنه «بتاعي» (اعتقد أنه كان عنوانا لمسرحية أمريكية قرأت عرضا لها بمجلة صباح الخير). ولكي تعلق هذه المجلة على الحائط يجب أن تحصل على موافقة الرقابة. والرقابة هنا هي السيد الأستاذ الدكتور

عضو هيئة التدريس رائد أو رئيس اللجنة الثقافية. كان المعني بهذا الأمر وقتها هو الدكتور رفعت النحاس أستاذ ورئيس قسم الفسيولوجي. كان طويل القامة نسبيا، نحيلا وله أذنان كبيرتان وعريضتان، وعينان غائرتان في وجهٍ تمّ تجريده بغير مهارة، وإن بكثير من الصبر الريفي، من أي انفعالات بشرية. لا يعني هذا أنه كان يدرب نفسه على الحياد، فالنحاس كان إسلاميا متشددا واشد حرصا على فصل الذكور عن الإناث في المدرج من حرصه على «وظائف الأعضاء» التي يمليها علينا بطريقة تجعله أكثر قربا إلى عريف الكتاب منه إلى أستاذ بالجامعة. ولا أعرف هل كانت رئاسته للجنة النشاط الثقافي اختيارا شخصيا أم إملاء بحكم توزيع الأدوار في إطار تحالف ما بين النظام والإسلاميين. وفي الحالين ليس هناك اختيار أفضل من النحاس الإخواني للوقوف في وجه النشاط الثقافي، اليساري غالبا. انتهينا من إعداد المجلة وسلمناها للنحاس. بقيت المجلة في مكتبه أسبوعا كاملا، لا يسمح لنا بالدخول عليه، ولا يسمح للمجلة بالخروج من عنده. وحين سمح قال لنا بصوته الأملس أنه سيوافق على المجلة بشرط واحد هو إزالة مقالي بالكامل. دار بيننا حوار قصير جدا انتهى بأن أخذنا مجلتنا دون توقيعه بالموافقة أو الرفض، ونزلنا إلى «حوش الكلية» وناقشنا الأمر مع الزملاء، واستقر الرأي انه إذا كان الحائط لهم فالشارع لنا. وفردنا المجلة على الأرض مثبتين أطرافها بقطع كبيرة من الحجارة كي تبقى مفرودة من جهة وكي لا تطيرها رياح آخر الشتاء من جهة أخرى. والتف الطلاب حول المجلة وتحلقوا وبدأت حلقة القراءة والنقاش تتسع، وبعد وقت غير طويل

انقض علينا قائد الحرس وعساكره، وكانت معركة صغيرة صودرت في إثرها المجلة التي اختفت ولا اعرف إلى أين ذهبت حتى الآن.

في نفس اللحظة التي اختفت فيها المجلة السوداء، نزل الوسيط الذي أرسلته إلى أمل، بعد يئست تماما من أنني سوف افعل ذلك بنفسي، إلى حوش الكلية وقال لي: أمل بتقول لك أنها تعرف متى أحببتها، ومتى تحولت هذه المشاعر إلى أزمة، وتعرف أنك لا تشبه الآخرين، وتعرف كم أنت مختلف ولهذا هي لا تستطيع أن ترتبط بك. يا إلهي، لم أكن أنا نفسي أعي اختلافي إلا في إطار أنهم يفعلون وأنا أتفرج عليهم، أنهم يعيشون حياتهم التي اختاروها واختارتهم، وأنا قابع في حوش الكلية لا أعرف سوى متعة الفرجة وعذابها. كنت أعتقد أنني المتفرج الوحيد في هذا العالم، وإذا بي أجدها تتفرج عليّ!! لم يقف العالم، ولم أنزل. لكنني مشيت من كلية الطب إلى سينما أوبرا، غرقت في الظلمة الملونة لأكثر من ثلاث ساعات، وخرجت. تجولت في الشوارع وحدي، لم أكن أفكر في أي شيء، لا في خيبتي العاطفية الثقيلة، ولا مرارتي السياسية الخبيثة. فقط، مررت على بيتها للمرة الأخيرة، ثم عدت ونمت بعمق.

مرت الأيام، وتوالت السنوات، ونسيت المجلة السوداء، وبقي عنوانها في ذاكرة البعض، يصرح به كلما تذكر سنوات الشغب بالجامعة، وأتذكره أنا كلما وقعت في مطب يؤكد لي خيبتي، وكلما حلت بالعالم كارثة تؤكد أن العالم الآن - وربما منذ زمن طويل - ليس مكانا لائقا بالبشر. ورغم أنني لا أذكر كلمة واحدة من هذا المقال إلا

أنني واثق أن العالم الذي كنت أرجو أن يقف لكي أنزل منه كان صغيرا جدا، وضيقا جدا، وسطحيا أيضا. ربما لهذا نُسي المقال وبقي العنوان المستعار لجماليات تخصه هو مما شجع الأصدقاء القدامى على جعله عنوانا لقصيدة لم أكتبها. ولم يعد يفاجئني، بعد سنوات الغياب الطويلة: أن ألتقي شخصا لا اعرفه، يكون قد سمع بي صدفة من صديق قديم، وبعد قليل من تعارفنا، أن يسألني بحماس خجول أن اسمعه قصيدتي القديمة التي عنوانها: أوقفوا العالم أريد أن أنزل.

فأحكي له الحكاية، تقريبا، كما رويتها الآن.

أساطير الآخرين

فشل كلوي عام

بعد ست سنوات من الدراسة النظرية، سنة سابعة من التدريب العملي، يسمونها سنة الامتياز. وينقسم هذا التدريب العملي إلى عشرة شهور إجبارية، يمر خلالها المتدرب على أقسام الجراحة العامة، والأمراض الباطنية، والأطفال، والطوارئ والتخدير، والنساء والتوليد، بمعدل شهرين في كل قسم. ومن حق المتدرب أن يختار فرع التخصص الذي يقضي فيه الشهرين الباقيين، إما أحد فروع الجراحة أو أحد فروع الأمراض الباطنية. وغالبا ما يجتمع أوائل الدفعة للتشاور فيما بينهم حول هذه الفروع الخاصة، حتى لا تتضارب الاختيارات حول الوظائف الجامعية المحدودة العدد والنوع. وحين أبلغت بزمان ومكان الاجتماع اعتذرت عن الحضور لأنني حسمت قراري دون اجتماعات ودون مشاورات. فعلى الرغم من أن الثاني منا هو الذي اجتهد، وهو الذي نجح إلا أنه ترك الأول يختار له فرع التخصص. وكان طبيعيا أن يختار الحالم الخيالي ست الحسن (مركز الكلى والمسالك البولية) بغض النظر عن موقعه في ترتيب طالبي القرب منها.

وشاءت الصدف العجيبة أن يكون أول شهرين لي في سنة الامتياز

هذه بمركز المسالك البولية. كنا أربعة متدربين، قسمنا إلى مجموعتين. وتبعا للجدول المعد توجه اثنان إلى جناح العمليات، وبقي اثنان في الأقسام الداخلية. كان كل شيء يلمع: الأرض الرخامية، الأبواب والشبابيك الزجاجية، الآلات، الممرضات، الأطباء، أسرة المرضى، حتى المرضى بزيهم الأزرق الفاتح فوق أسرتهم التي لها اللون نفسه كانوا يلمعون. وفي اليوم التالي توجهت وزميلي إلى جناح العمليات. كانت المرة الأولى التي ألبس فيها زي العمليات الأخضر، وأدخل فيها إلى حجرة عمليات. قائمة العمليات معلقة على الحائط، ليست قائمة واحدة بل ثلاث. واحدة للعمليات التي تجرى بالمناظير وواحدة للعمليات التي تجرى بالشق الجراحي. كل هذه عمليات ستجرى في يوم واحد، أكثر من خمسة وعشرين عملية. أما القائمة الثالثة المنفصلة فكانت لحالة نقل كلى. قلت لزميلي هذا مصنع عمليات وليس جناح عمليات، كيف سينتهون من كل هذا الحالات في يوم واحد، قال زميلي الظاهر أننا وقعنا في سلخانة، يخرب بيوتهم. فجأة ظهر أحد الأطباء المقيمين وقال دون أن يعرفنا بنفسه، تعالوا، فسرنا خلفه مسحورين. قال لزميلي: أدخل هنا، سوف تساعد في عملية استئصال كلى المتبرع، وأنت في الغرفة الثانية ستساعد في عملية زرع الكلي للمستقبل. قلت: حلمك علينا شويه، نحن لم ندخل غرفة عمليات من قبل، وهذه هي أول مرة. قال: وإيه يعني، هو انت اللي هتزرع انت هتساعد بس، ادخل ادخل. ودخلت. وقبل أن أدخل بكاملي، وقفت على الباب مبهورا، هذه سفينة فضاء. كان المريض ممدا على طاولة العمليات، وطبيب

التخدير يضع أنبوب التنفس الصناعي في قصبته الهوائية. تلقفني طبيب مقيم آخر، بعينين خضراوين يبرقان من فوق الماسك، وقادني عبر باب داخلي إلى غرفة التعقيم، وقال افعل مثلما أفعل. ضغط زرا فاندفع الماء من الصنبور، وصدر من السقف صوت متقطع كصفارة إنذار، وأنارت لمبة حمراء فوق رأسه. تناول فرشاة مغلفة، فتح غلافها وبانت فرشاة بحجم الكف، لها وجهان واحد إسفنجي ناعم والثاني إبري خشن. الوجه الناعم للكف والساعد، والوجه الخشن للأصابع وأطراف الأنامل لتنظيف ما بين الجلد والأظافر. الفرشاة في يمينه، وبضربة خفيفة من كوعه الأيسر على يد معدنية، موصولة بعلبة مستطيلة من الزجاج الشفاف ملتصقة بالحائط، اندفع سائل البتادين البني على الفرشاة وبدأ يغسل يديه وذراعيه إلى الكوع. فعلت مثلما فعل بالضبط، فقال تظل تغسل يديك بنفس الطريقة حتى يتوقف صوت الإنذار ويتحول الضوء الأحمر إلى اللون الأخضر ـ وبينهما لمبة صفراء تنبهك إلى ضرورة الإسراع بغسل يديك ، مثل إشارة المرور ـ لحظتها سيتوقف الماء عن التدفق من تلقاء نفسه، وبذلك يكون تعقيمك قد اكتمل. بعد ما يقرب من خمس دقائق توقف الماء عن التدفق وتوقف الإنذار عن العمل وأضاءت اللمبة الخضراء. رفع ذراعيه أمام جسمه، بحيث يشكل التقاء الذراع مع الكتف زاوية حادة والتقاء الذراع مع الساعد زاوية منفرجة، وفعلت مثله. دفع الباب بقدمه فانفتح، ودخلنا إلى سفينة الفضاء، هو أولا وأنا خلفه. أعطت الممرضة، التي غسلت يديها قبلنا وارتدت ثياب العمليات الكاملة، لكل واحد منا فوطة صغيرة

خضراء يجفف بها يديه أولا ثم ذراعيه وفي اتجاه واحد. ثم ألبست كل منا مريلة العمليات الطويلة من الأمام كأنها تأخذه بالحضن، وأحكمت ربطها من الخلف ممرضة أخرى. وجاء دور القفازات المطاطية، فعلت مثلما فعل معلمي، هي تفتح القفاز وهو يدس يده فيه بقوة محسوبة، وبحركة شبه دائرية من أسفل إلى أعلى فتطلع يده مغطاة بالقفاز. كانت هناك طاولة جانبية صغيرة تتحرك على عجلات، فرشت عليها فوطة خضراء، وفوقها قطع مربعة الشكل من الشاش الأبيض الناصع، وبعض أوعية دائرية صغيرة، واحدة مليئة بالبتادين البني، وواحدة بها محلول ملح، وواحدة بها كحول طبي شفاف. وبدأ المقيم، يعقم بطن المريض بالكامل، مع التركيز على مكان العملية الذي هو في المربع السفلي الأيمن من البطن. كنت أراقب ما يفعل بحواسي كلها. وحين انتهى من تعقيم بطن المريض وتثبيت القسطرة البولية، ساعدته في تغطية كامل المريض بالفوط الخضراء، بحيث لا يظهر إلا مكان الشق فقط. وما إن انتهينا حتى دخل علينا من باب غرفة التعقيم طبيب آخر، رافعا يديه في الهواء، لبس ثياب العمليات بحسم، ودون كلمة واحدة. وقف الجراح الذي دخل مؤخرا على يمين المريض، إذن هو الجراح ووقفت الممرضة إلى يمينه، ووقف المقيم قبالته على يسار المريض، إذن هو المساعد الأول، وأنا المساعد الثاني على يسار المساعد الأول. كانت الكلمة الوحيدة التي نطق بها الجراح، بعد أن ضبط وقفته أمام المريض المخدر فوق طاولة العمليات، موجها كلمته إلى طبيب التخدير الواقف عند رأس المريض خلف حاجز أخضر: نبدأ، فرد عليه الثاني:

تفضل. امسك الجراح المشرط مثلما يمسك الواحد منا القلم، وصنع شقا طوليا، على الحد الخارجي لعضلة البطن الأمامية بادئا من مستوى الصرة إلى أسفل، ثم بدأ ينحرف بشكل دائري متجها إلى منطقة ما فوق العانة. قال لي المقيم هذا اسمه شق رازفورد. الجراح يعمل في صمت والمقيم يشرح لي بصوت خفيض ما يفعل الجراح. كان الجراح يقوم بتشريح وتخليص الأوعية الدموية التي تنام على الجدار الخلفي للبطن مما حولها بحيث تصبح جاهزة لتوصيل الأوعية الدموية للكلى التي يجري استئصالها في الغرفة الأخرى. وكان كل دوري أن أمسك بمبعد معدني مقوس اسحب به العضلات الخارجية حسب رغبة الجراح لكي أفتح له الجرح وأفسح المجال أمام عينيه لتريا بوضوح، وأمام أصابعه لكي يعمل بشكل مريح.

بعد ما يقرب من ساعتين، همست الممرضة في أذن الجراح، وهمس المقيم في أذني: الباشا وصل. قبل أن أسأل الباشا مين؟ دخل الباشا بقامته الفارعة، وبذلة عمليات لونها أزرق سماوي بخلاف الجميع الذين يلبسون اللون الخضر. وقف دقيقة واحدة خلف الجراح، ومن فوق كتفه ألقى نظرة فاحصة على الموقف، ثم خرج من باب جانبي صغير. بعد عشر دقائق تقريبا عاد من نفس الباب الجانبي، لابسا مريلة العمليات الطويلة، وبين يديه صحن معدني، كلوي الشكل، وبداخله الكلى التي تم استئصالها من المتبرع في الغرفة الأخرى. جلس في ركن من الغرفة واضعا الصحن الكلوي أمامه، وأوصل شريانها بجهاز محاليل، وراح يغسلها من الداخل، وحين تأكد أنها أصبحت

خالية تماما من دم المتبرع ونظيفة، حملها بين يديه ووضعها في بطن المستقبل. أفسح الجراح مكانه للباشا (الدكتور غنيم)، وخرج من غرفة العمليات. وباستخدام خيوط جراحية رفيعة جدا مصنوعة من البرولين قياس خمسة/ صفر، قام بتوصيل الشريان الأصلي بشريان كلى المتبرع، والوريد الأصلي بوريد كلى المتبرع، في أقل من عشرين دقيقة، رفع الكلامبات التي تشبه كلاب البول دوج، وتحمل الاسم ذاته، من على الأوردة والشرايين سامحا لدم المستقبل بالسريان إلى الكلى التي تمت زراعتها في جسده. كان تحول الكلى المنقولة تدريجيا من اللون البني الباهت إلى اللون الأحمر عبر حالة من التورد الخفيف مذهلا. وبعد أن تأكد الباشا من دقة ما قام به، استرخى وبدأ فاصلا طويلا من النكات والتريقة على الجميع وخصني، باعتباري وجه جديد، بكم لا بأس به من هذه المسخرة التي ضحك منها ولها الجميع، فيما العرق يسيل على ظهري، أما وجهي فكان ممكنا أن تقلي عليه بيضة.

بعد انتهاء أول مغامرة لي في حجرة العمليات، جلسنا في الأنتريه الملحق بها، نأكل سندوتشات جبن ومربى ونشرب الشاي، تعرفت على المقيم الذي اتبعته، كان هو الدكتور حسن أبو العينين مدير مركز الكلى والمسالك البولية الآن، أما الجراح الذي جهز للباشا موضع العملية فكان الدكتور أحمد بيومي رئيس جامعة المنصورة الآن.

المهم، ومثل كل شخص انطباعي بحب ويكره من النظرة الأولى، سقطت في غرام زراعة الكلى. وطوال ما تبقى من اليوم، ومن الأيام التالية، كنت سائرا في منام طويل ملخصه أنني لن أكون إلا جراحا

متخصصا في هذا النوع من العمليات. وفي الأسبوع التالي ساعدت في عملية استئصال للمثانة وتحويل البول، عبر وصلة صغيرة من الأمعاء الدقيقة، إلى جدار البطن ومن ثم تصريفه إلى الخارج في كيس يعلقه المريض على وسطه بعد تمام شفائه. ومن جديد سقطت في غرام هذه العملية الجراحية الطويلة جدا والمركبة. بين هذين الجراحتين كنت قد ساعدت في عمليات أخرى كثيرة، كاستخراج حصاة من الكلى أو الحالب، أو توصيل الحالب بالمثانة من جديد بعد استئصال جزء متليف وتالف من الأول، لكن لم يجذبني أي منها. وخلال المدة الباقية لي في المركز كنت يوميا في العمليات إما أساعد في نقل الكلى أو في عمليات سرطان المثانة المركبة، وهو ما كان زملائي يتهربون منه. ولم يتخصص أي من أربعتنا في المسالك البولية إلا أنا.

بعد أقل من عامين على دخولي العمليات لأول مرة، تم خلالها دعكي جيدا في عيادة أحد الأساتذة، عملت بمستشفى المطرية التعليمي وهو ما أتاح لي استعادة غرامي الأول بزراعة الكلى. كان قسم المسالك بالمطرية قد جهز فريقا لزراعة الكلى، تم تدريبه بمركز المنصورة. وتم ضمي لهذا الفريق، وهو ما أتاح لي بدء الغرام من أوله. كانت مساعدتي في زرع الكلى بالمنصورة أشبه بدخول مسرحية ما من الفصل الثاني والخروج منها بعد نزول ستارة هذا الفصل مباشرة. فلم يكن لي علاقة بهؤلاء المرضى لا قبل العملية ولا بعدها. وحيث أنه لا يمكن اختزال هذه الدراما الطويلة جدا في أربع ساعات فقط على طاولة العمليات يصبح كل هذا الغرام لا معنى له سوى الانبهار السطحي

بجماليات العرض في ذروته القصوى. وكان بدء الموال من أوله صعبا. وكان الفصل الأول هو أصعب الفصول جميعا. فمن المعروف أن مسألة زراعة الكلى يتولى التحضير لها، ولشهور طويلة، فصيل من المختصين بأمراض الكلى، ويظهر الجراحون في غرفة العمليات فقط لحظة نقل الكلى من المتبرع إلى المستقبل، فيلتهمون التورتة كلها إلا قليلا. وباعتباري أصغر عضو في فصيل آكلي التورتة، كان علي أن أكون عسكري مراسلة بين « الكلويين» والجراحين. أشارك أخصائي الكلى في تحضير الحالات، ومتابعتها قبل العملية الجراحية، وأساعد الجراحين أثناء العملية نفسها، ثم اخرج مع المريض من العمليات إلى العناية المركزة وأشارك في متابعته مع فصيل الكلويين بعد الجراحة، وحتى خروجه من المستشفى. وكنت أقوم بكل هذا مدفوعا بالحلم الذي حلمته أول مرة.

لا استطيع الادعاء بأن هذا العمل كان منظما كما يليق بهذا النوع المركب والمعقد من الطب. كان هناك متبرعون يظهرون فجأة ويختفون فجأة، وبشكل مريب. ولم يكن لدينا معمل أنسجة ومناعة مجهز لمثل هذه النوعية من التحاليل الدقيقة والمعقدة، فكانت التحاليل تذهب إلى مراكز خاصة، تبين فيما بعد أنها تملك قوائم طويلة لبشر يعرضون كلاهم للبيع. ولم يكن الأداء الجراحي على طاولة العمليات نموذجيا، وهو ما كان يتسبب في عدد من المشاكل بعد العملية يرهق طاقم العمل. ويبدو أن هذه كانت مشكلتي، أنا الذي رأيت ست الحسن في كامل حسنها، فلم أتقبل حسنا أقل. وطبعا لم أكن الوحيد الذي يحب النظام

أكثر من محبته للمرضى، بل كان واضحا أن القسم يشتعل بالصراع بين فريق ضعيف ـ كالعادة ـ من محبي النظام وفريق قوي من المنتفعين بالفوضى. وكان مكاني الطبيعي مع الباحثين عن النظام، وفي الوقت نفسه لم يكن بإمكان الفريق الآخر الاستغناء عن عسكري المراسلة الوحيد بالقسم. كان وضعي في القسم شديد الهشاشة، منتدب، ومتمرد، سيكون من السهل جدا الإطاحة بي بمجرد ظهور عساكر مراسلة جدد. لكن هذه الفوضى نفسها، والتي كانت تخرق عين النظام، وتعمي من ينظر فيها مباشرة، كانت ـ دون أن يقصد المسئولين عنها ـ تكشف عن ما قد يخفيه النظام.

كجزء من الفوضى، كان مريض الفشل الكلوي والذي صدر له قرار من القومسيون الطبي بزراعة كلى لدينا، يقيم إقامة كاملة في القسم هو والمتبرع الخاص به، ولمدة غير محددة، طالت في بعض الحالات لشهور كاملة. مهنيا هذا خطأ كبير، يعرض المريض نفسه لمشاكل الإقامة الطويلة بالمستشفى، إضافة إلى الأعباء المادية المتزايدة. لكن هذا الخطأ نفسه كان يتيح للواحد منا أن يتعرف على كل التفاصيل الخاصة بالمريض، التفاصيل التي لا تظهر في العيادات. وأن يلمس بنفسه كيف تختفي تحت «الجلد الترابي» لـ «وجه القمر» المنفوخ بالماء والكورتيزون قصص الحب وقصص النذالة. لم يكن يدهشني هذا الفرح الأمومي العميق حين تتأكد الأم من التوافق التام بين أنسجتها وأنسجة فلذة كبدها المعلق بماكينة الغسيل، بقدر ما كان يربكني هذا الانكسار المذل في عين من يبيع كلاه. كانت النسبة الغالبة

من الحالات التي زرعناها تحصل على الكلى من متبرعين أقارب، من الأم غالبا، والباقون حصلوا على الكلى من متبرع غير قريب. وكانت النتائج حاسمة: نسبة النجاح الأعلى كانت في حالات نقل الكلى بين الأقارب. ودارت مناقشات نصف حامية بين الباحثين عن النظام والفريق الآخر:هل نقبل حالات جديدة لمتبرعين من الأغراب الذي يبيعون كلاهم، أم نتوقف عن المشاركة في جريمة بيع الأعضاء. ولحسم الخلاف دعا رئيس القسم لعمل اجتماع لمناقشة الموضوع من كل جوانبه. الفريق الآخر، والذي يتزعمه رئيس القسم نفسه، رفض الحجة العلمية المبنية على سوء النتائج، وأنه علينا نحن أن ندقق أكثر في اختيار البائع الأكثر توافقا مع المريض. أما الحجة الأخلاقية فليست من شأننا نحن، هذا شأن يخص المريض ومن يبيع له، مهمتنا فقط هي نقل الكلى من شخص إلى آخر بغض النظر عن درجة القرابة وبغض النظر عن المبلغ المدفوع في الكلى المباعة. وطبعا لم ينس الرئيس أن يغلف دعواه بالإنسانية التي ترفض أن يموت واحد منها لأنه لا يوجد بين أقاربه من يمنحه كلاه، وأنه لا يستطيع أن يطرد من عيادته أو مكتبه مريضا جاءه بمتبرع أجنبي، لأنه لن يستطيع النوم ليلا وقد حرم بالنهار مريضا من فرصة الشفاء، وإلى أن يتم تنظيم عملية نقل الأعضاء من الموتى سيبقى الوضع على مع هو عليه. وبالمقابل أعلن الفريق المناهض أنه لن يشارك إلا في عمليات نقل كلى بين الأقارب، أما الحالات الأخرى فلن يشارك فيها معلقا الذنب في رقبة الفاعلين.

في الليلة نفسها التي جرى فيها هذا الاجتماع، وأثناء المرور الليلي المعتاد وجدت على السرير الأول في القاعة الرابعة من القسم مريضة سمراء، شديدة السمرة، تلبس قميص نوم مكشوف، وفي يدها سيجارة مشتعلة.

ـ انت مين ؟ وبتعملي ايه هنا ؟ وإزاي تولعي سيجارة في العنبر؟

ـ بالراحة شوية يا دكتور

ـ هات السيجارة دي، وأخذت السيجارة ورميتها بعيدا وأنا أقول لها التدخين هنا ممنوع، فاهمه

ـ قالت بلا مبالاة حقيقية: فاهمه

ـ إنت مين بقى؟ والتفت إلى الممرضة فين الملف بتاع الست دي

ـ قالت الممرضة مالهاش ملف عندنا

ـ أمال الملف بتاعها فين، ودخلت هنا إزاي

ـ قالت الممرضة الملف بتاعها مع الدكتور عمرو

ـ بيعمل ايه مع الدكتور عمرو

ـ ماعرفش، هوه جابها معاه الساعة خمسة وقال خليها عندكوا لغاية بكره

ـ مستشفى دي ولا لوكانده، اسمك ايه انت بقى؟

ـ سميرة

- ومشكلتك ايه يا سميرة

- يووه ما تعدش

- مش هاعد، مشكلتك ايه بقى؟

- أسأل الدكتور عمرو

غادرت القاعة مسرعا وأنا أغلي، كلمت الدكتور عمرو في البيت، قال أن ملف سميرة عنده في المكتب، وأنها متبرعة بالكلى لمريض اسمه أحمد في جناح العلاج الاقتصادي، وأننا سنبدأ غدا في عمل الفحوص الخاصة بها. عدت إلى سميرة، لم تكن في سريرها. قالت واحدة من المريضات أن سميرة تدخن في الحمام. أكملت مروري، وقبل أن أنتهي منه ظهرت سميرة، فطلبت منها أن تلبس ثيابا لائقة وأن تلحق بي على المكتب. وفي المكتب كنت أشرب شايا وأدخن حين دخلت سميرة بثوب شرقاوي أسود وقد غطت شعرها المجعد بمنديل أحمر اللون ومطرز بالترتر

- ما انت بتدخن أهوه أمال بتاخد مني السيجارة ليه

- أنا آه، إنت لأ

- ماشي يا باشا، أوامرك

- عندك كام سنة؟

- ثمانية وتلاتين

ـ شكلك أكبر من كده

ـ الهم يا باشا

ـ بشتغلي ايه؟

ـ على باب الله

ـ كلنا على باب الله: تقربي ايه لأحمد

ـ أنا مش قريبته

ـ أمال

ـ شاب زي الورد يا بيه، عنده فشل كلوي ومافيش حد من قاريبه هان عليه يديه كلوة، صعب عليا قلت إذا ينفع أعطيله كلوتي، ده لسه صغار وعريس جديد ماتهناش بعروسته

ـ ولما انت مش قريبته عرفتي قصته منين

ـ ولاد الحلال كثير يا بيه

ـ ولاد الحلال مين يا سمرة

ـ يا بيه هيه نيابة، أهم كثير وخلاص

ـ ماشي يا سميرة، وقبل ما تبقي عل باب الله كنت بتشتغلي ايه؟

ـ كثير يا بيه

ـ قولي وأنا سامعك

ـ هات سيجارة

ـ خدي سيجارة

شدت نفسا عميقا من السيجارة، وعدلت وضعها أمامي وقالت أنها تزوجت صغيرة، وطلقت لأنها لم تنجب. ثم تزوجت من شخص آخر كان يستغلها في خدمة البيوت، وصرف فلوسها على الكيف، فطلقت منه. وأنها عملت خادمة في الأردن والسعودية حتى تعبت صحتها من الخدمة في البيوت فعادت من الغربة بلا بيت وبلا رجل وبلا فلوس.

ـ أخدت كام من أحمد

ـ لسه ماختش حاجة

ـ اتفقتوا على كام

ـ خمسة وعشرين ألف

ـ ودول كفاية يا سميرة

ـ أهي حاجة أعيش منها، والطمع وحش

ـ عملت عمليات قبل كده يا سميرة

ـ كثير يا بيه

ـ زي إيه

ـ جالي نزيف وشلت الرحم من عشر سنين

ـ وإيه تاني

ـ استكشاف بطن علشان جالي التصاق في الأمعاء من العملية الأولانية

ـ حاجة تانية

ـ شلت المرارة من سنتين

ـ كل ده

ـ الدنيا صعبة يا بيه

ـ طيب، روحي على سريرك

ـ هات كمان سيجارة

ـ خدي

ـ تصبح على خير يا باشمهندس

ـ باشمهندس يا بنت العبيطه

ـ مش قصدي يا دُكتر،

ورقعت ضحكة هائلة كشفت كل أسنانها التي لم تفلح ألاف السجائر التي دخنتها في تعكير لونها الأبيض الناصع. أغلقت الباب وراءها، فأشعلت سيجارة ثانية، وسرحت مع الدنيا التي لا تستحق.

خرجت من الجناح، ومشيت عبر الطرقة الطويلة الباردة، كاسرا الوحدة الشاملة بدقات قوية من كعب «السابو» الخشبي. كأنني أمشي في جنازة عزيز، دخلت جناح العلاج الاقتصادي ووقفت على الكاونتر،

طلبت ملف المريض أحمد من الممرضة، طالعته بهدوء، ثم توجهت إلى غرفته. وقبل أن أطرق بابه رجعت من حيث أتيت. للنهار عينان، عيون كثيرة، ويكفي ما حدث الليلة.

في اليوم التالي، أنهيت مروري الصباحي، ثم توجهت إلى وحدة الغسيل. كان أحمد، الذي لم أره من قبل، معلقا من ذرعه الأيسر في الماكينة، وإلى جواره شابة مليحة تقرأ له الجرائد. بدا أحمد شابا صغيرا في الخامسة والعشرين أو فوقها بقليل. لم يخف ثني رجليه على السرير طول قامته، وله وجه طويل يقاوم استدارة «وجه القمر» المنتفخ بالماء والكورتيزون، ربما لحداثة عهده بالفشل الكلوي، لكن جلده لم يستطع مقاومة ترسبات الأملاح والسموم فأخذ اللون الترابي المميز لمواطني دولة اليوريميا. لم يكن هو المريض الوحيد في القاعة الفسيحة، كان هناك سبعة غيره مصلوبين على الأسرة وأذرعهم معلقة في الماكينات التي تمص دمهم، وترشحه عبر فلتر خاص، ثم تعيد ضخه في أجسادهم المعطوبة. صبحت على الجميع، وطلبت من أحمد أن يعلمني حين تنتهي جلسة الغسيل ويذهب إلى غرفته. بعد الظهر بقليل، كانت الفتاة المليحة تبحث عني في قسم المسالك، قالت أنها فتحية زوجة أحمد، وأن أحمد في غرفته في انتظاري. توجهت معها إلى الجناح الاقتصادي، وطوال المسافة القصيرة بين الجناحين لم تتوقف عن الأسئلة. دخلت عليه الغرفة، كان جالسا على السرير، بادي الإرهاق من علقة الغسيل.

- ازيك يا أحمد

- الحمد لله، كويس

- بتغسل من إمتى

- من ثلاث شهور

- إنت منين يا أحمد

- من الزقازيق

- أجدع ناس، وايه اللي جابك عندنا يا أبو حميد

- قرار القومسيون، كنت عاوز أروح المنصورة، عند غنيم، لكن القومسيون جابني هنا

- مافيش حد من أقاربك كان يتبرعلك أحسن

ردت فتحية، أنا عملت التحاليل وطلعت ما انفعش، لو كان ينفع أديله عمري كله والله، وأبوه متوفي، وأمه ست كبيرة ما تتحملش، لكن أخته عملت التحاليل وكان ممكن تعطيله لكن جت في الآخر ورجعت في كلامها، منها لله بقى.

قال هو: مالوش لازمة الكلام ده دلوقت يا فتحية

ليه مش هوه الدكتور لازم يعرف كل حاجة

- ورجعت في كلامها ليه

- يعني عندها عيال وخافت يجرى لها حاجة هيه كمان

- ماشي يا أحمد، علاماتك الحيوية ممتازة، وإنشاء الله خير

خرجت، وخرجت ورائي فتحية، وقالت: العملية هاتنفع يا دكتر مش كده، قلت إنشاء الله، قالت: يارب، بس لو حد قريبه كان يبقى أحسن مش كده برضه، ولا أنا غلطانة، قلت لأ مش غلطانة، قالت منها لله أخته، ومنه لله الورث.

مررت على رئيسة التمريض، قالت أن لديها نقصا في عقار «الساندميون»، فقلت وأنا عندي نقص في الشاي، عملت لي شايا وكتبت طلبا بتوفير العقار الناقص، أخذته وتوجهت إلى رئيس القسم. سألني عن الأخبار قلت أن تحاليل سميرة أرسلت إلى المعمل في المهندسين، وأن أشعة الصبغة موعدها بعد يومين. قدمت له قائمة العمليات ليوقعها، ويوزع الأدوار، ثم قدمت له الطلب الخاص بتوفير العقار الناقص، قال من أجل من هذا العقار، قلت للمريضة «نهلة» التي زرعنا لها كلى من ثلاث أسابيع، قال: خلي أهلها يشتروه من بره، إحنا تعبنا.

في الليل تلقى الزملاء بوحدة الغسيل اتصالا هاتفيا من مستشفى آخر، تابع للمؤسسة العلاجية، قالوا أن لديهم مريضة شابة أجريت لها جراحة لاستئصال «كيس» من على المبيض الأيمن منذ يومين، ومن لحظة خروجها من العمليات وحتى الآن لم تنزل منها نقطة بول واحدة، وأن ضغطها مرتفع جدا وفشلت كل محاولات علاجه، كما أن درجة وعيها بدأت في التدهور، وأن نسبة «الكرياتنين» لديها عالية وتحتاج إلى غسيل كلى بصورة عاجلة. وطلب الزملاء سرعة إحضارها إلينا. من عربة الإسعاف إلى وحدة الغسيل مباشرة، وتم عمل غسيل عاجل لها

عن طريق كانيولا كبيرة ثبتت في الشريان الفخذي. وفي الصباح بدأنا في التقصي. قالت أمها أن البنت، والتي تبلغ من العمر واحد وعشرون عاما، لم تأتها الدورة الشهرية على الإطلاق، وداخت في عيادات الأطباء، دون نتيجة تذكر. لكن الطبيب الذي أجرى لها العملية، عمل لها تصوير بالموجات فوق الصوتية في عيادته، وقال أن عندها «كيس دهني» على المبيض، وأن هذا الكيس هو السبب في عدم نزول الدورة، وأنه يجب استئصاله. ومن ساعة العملية جرى لها ما جرى. أرسلت المريضة مع الممرضة إلى قسم الأشعة، كما هي العادة، لإجراء تصوير جديد بالموجات فوق الصوتية. بعد ربع الساعة كان أخصائي الأشعة يستغيث. تبين من الفحص المذكور أن المريضة الشابة (فيفي جرجس) ليس لديها كلى على الإطلاق، لا في الموضع الطبيعي للكلى، ولا في أي مكان آخر من بطنها، ولأن مثانتها خالية من البول فهو غير متأكد من وجود المبيضين أيضا. ملأت له المثانة عن طريق القسطرة البولية المثبتة سلفا، وأعاد الفحص من جديد، فأكد عدم وجود المبيضين. عقدت الدهشة ألسنة الجميع، كان هذا هو اللقاء الأول مع حالة كهذه، بدون كلى وبدون مبيض. علميا لا يمكن استئصال الكلى عن طريق جرح عرضي صغير فوق العانة، فأين ذهبت كلى هذه المسكينة. صعدت إلى قسمنا، كان الأخ الأصغر للمريضة موجودا، فسألته: عندما استأصل أخصائي النساء الكيس المزعوم من مبيض أخته، هل أرسلت العينة إلى معمل الباثولوجي، قال نعم، قلت أريد النتيجة فورا. وذهبت إلى رئيس القسم أطلعته على الموقف كله، فقال حضرها من أجل عمل منظار

تحت تخدير، بعد أن يضبط أخصائي الكلى أوضاعها. وفي المساء كانت المفاجآت تتوالى، أتى أخوها (عادل) بنتيجة تحليل العينة: نسيج كلى طبيعي تماما. يا نهار أسود، نسيج كلى طبيعي. التفسير الوحيد هو أن المسكينة كان لديها كلى واحدة ساقطة في الحوض، تصور طبيبها المتهور أنها كيس على المبيض، وشالها. بعد يومين كانت صفحات الحوادث بالجرائد تتحدث عن «فيفي جرجس» وعن سرقة كلاها. وأنقذ الأطباء من تهمة المشاركة في الاحتقان الطائفي أن الطبيب الذي استأصل هذه الكلى اليتيمة كان قبطيا هو الآخر. ثم أكمل المنظار سلسلة المفاجآت حين أكد وجود فتحة حالب واحدة بالمثانة، وأن قسطرة الحالب الرفيعة تتوقف على بعد ثلاث سنتيمترات فقط من هذه الفتحة، لكن المفاجأة الأكبر هي أن فيفي جرجس ليس لديها رحم من الأساس، وأن قناتها المهبلية مجرد أنبوب رفيع مغلق وغير متصل بأي شيء. هذه غالبا حالة «أنثى - خنثا كاذبة»، بالغة الندرة. أي قدر عجيب أوقع هذا الكائن في شباك الجينات المغشوشة، كأنه لم يكن كافيا أن تكون خنثا، بل جمعت الكذب مع الخنوثة. وبصيغة أخرى لا هي ذكر ولا هي أنثى ولا هي خنثا أيضا. فمن حيث الشكل الخارجي هي أنثى كاملة الأنوثة، نهدين إذا لم يكونا كبيرين فهما على الأقل متوسطي الحجم، توزيع أنثوي طبيعي لشعر الجسد، حجم البظر أيضا طبيعي وليس متضخما كما في هذه الحالات. لم يكن بالإمكان أن تحيط الشكوك بأنوثتها، لكن خطأ الطبيب كشف عن عبث الطبيعة. كيف ستواجه فيفي وآل جرجس هذا الموقف، كيف نقول لهم أنها

ليست بلا كلى فقط لكنها أصلا بلا هوية.

تعامل آل جرجس مع الموقف بقدر لا بأس به من الحكمة: هي بنت ولدت هكذا، وتربت وكبرت كبنت، وستظل هكذا، الآن هي تحتاج إلى كلى، وسيعطيها أخوها عادل كليته. وبدأنا المشوار. كان التوافق بين الأخ وأخته رائعا، ولا توجد مشاكل تمنع نقل كليته إلى أخته.

ونظرا لتأجيل بعض الحالات لظروف طارئة، جرت عادتنا على تجهيز حالتين في وقت واحد، زوج أساسي وزوج احتياطي، فإذا تأجل الأساسي لسبب ما زرعنا الاحتياطي، وإذا جرت الأمور عادية، أصبح الاحتياطي أساسيا في المرة القادمة. ووضعت قائمة العمليات: أحمد وسميرة أساسي، وفيفي وعادل احتياطي. وكانت العادة أيضا أن نقوم بهذا النوع من العمليات أيام الخميس. وفي الخميس الموعود دخل أحمد العمليات في السابعة صباحا، دون تأجيل، وتأجلت فيفي للمرة القادمة. لكن سميرة التي ظلت بالقسم ثلاثة أسابيع كاملة لم تتوقف خلالها عن الضحك والغناء ومعاكسة الجميع، والتي سبق لها أن دخلت غرفة العمليات ثلاث مرات، أصابتها حالة من الهلع الهستيري، وراحت تلطم خديها وتولول وهي جالسة على الترولليي ترفض أن تتمدد عليه. وكان المشهد مخزيا والممرضات يدفعن الترولليي تجاه العمليات، وهي تصرخ يا خرابي، يا خرابي ، حرام عليكم، مش عاوزة أموت، مش عاوزة أبيع، أنا مرة وسخة ورجعت في كلامي، خدوا فلوسكم، والنبي، والنبي، حرام عليكم، حرام عليكم، حراااام. كانت دموعها حقيقية وهلعها حقيقيا، لكن الردهة الباردة ليس لها عيون ترى

ولا أذان تسمع، ولا القلوب الباردة أيضا. لم أدخل العمليات هذه المرة لأنه لم يكن دوري بل دور زميل آخر.

بعد خمس ساعات خرجت سميرة من العمليات إلى قسم المسالك. وبعد ساعتين أخريين خرج أحمد إلى العناية المركزة. وطوال هذه الساعات الطويلة كانت فتحية جالسة القرفصاء أمام باب العمليات ويدها على خدها. طوال الأسابيع الماضية لم تفارقه دقيقة واحدة، في وحدة الغسيل، في قسم الأشعة، في الردهة، في الحمام. تطعمه بيديها، وتمسح شفتيه بطرف جلبابها، وإذا مشى تأبطت ذراعه أو تراجعت قليلا لتعدل جلبابه الأبيض. أكثر من مرة رأيتهما جالسين في الردهة وقت الغروب والشمس الحمراء بينهما، مثل البوسترات الشهيرة، وهي تمسح على شعره أو تقبل يده وتضعها في حجرها. كنت كلما رأيتهما أقول لها: يا باختك يا أبو حميد، نفسي ألاقي واحدة تحبني زي ما فتحية بتحبك كده. وكانت هي تضع وجهها الذي يحمر فجأة في الأرض، لكن خجلها هذا لم يكن قادرا على مداراة فخرها بما تفعل. وكان وضعه في العناية المركزة يعني الفصل بينهما.

مضت الأيام التالية دون شيء يعكرها سوى صمت سميرة المطبق وانطفاء عينيها الغائصتين في انكسار مذل يصيب يدي برعشة عجيبة وأنا أغير لها على الشق الكبير في خاصرتها اليسرى. وخرجت من المستشفى قبل أن ترفع الغرز، ودون أن تودع أحد.

بعد يومين من خروجها، وفي الساعات الأولى من الصباح صرخ

أحمد صرخة هائلة، جريت إلى سريره، كان يمسك بطنه موضع الكلى المنقولة، وقبل أن أضع يدي على بطنه كانت فتحية خلفي. من أين جاءت، لا أعرف وكيف اخترقت العناية المركزة، لا أدري. بدأت أجس الكلى الجديدة تحت راحتي، كانت منتفخة، متوترة ومؤلمة جدا له. وتوقف البول عن التدفق في الكيس المثبت في القسطرة. كان أحمد مذهولا وفتحية غارقة في دموعها: في إيه. قلت خير، إما رفض مفاجئ أو...، أو إيه يا دكتور. انت ايه اللي جابك هنا دلوقتي، قالت كنت نايمة شفته في الحلم بيغرق جريت على هنا. من المكتب الملحق، اتصلت برئيس القسم وأيقظته، وقلت له ما حدث، سألني عن رأيي في الحالة: قلت غالبا جلطة بشريان الكلى المنقولة ويجب التدخل بسرعة. قبل أن يكتمل طلوع النهار كنا انتهينا من التشخيص، وأخذنا أحمد إلى غرفة العمليات، وفتحنا الجرح الذي لم يكن قد التئم بعد، وفصلنا الكلى التي صار لونها بنفسجيا غامقا بعد انسداد شريانها، ورمينا بها طعاما للقطط.

خرجنا من العمليات في حال أسوأ من حال فريق كرة قدم مهزوم في نهائي الكأس. وحرص رييس القسم الذي تولى العملية بنفسه على مواساة فتحية وطمأنتها، والتأكيد على إمكانية أن يزرع أحمد كلى أخرى بعد أن تتحسن حالته. ومن ورائنا خرج أحمد على الترولي، كان باب الجناح في مواجهة باب العمليات، فدفعه العامل بسرعة إلى الجناح، وعلى أبواب الغرف المرصوصة على الجانب الأيمن للردهة الطويلة وقف المرضى يرقبون موكب المحارب المغلوب، وفي عين

كل منهم سؤال يخص مصيره هو. كانت فيفي وأمها واقفتين على باب الغرفة خاصتهما، وحين مر الموكب من أمامهما وقعت البنت مغشيا عليها. وكان على واحد منا أن يذهب إليها، وأن يعالج الموقف.

ولأن العرض يجب أن يستمر، تجاوز الفريق هزيمته بسرعة ؛ ولم يعر خروج أحمد وفتحيه من المستشفى مجروحين سوى التفاتة قصيرة، وبدأ يجهز نفسه لزرع جديد.

كان من المفروض أن تكون فيفي وأخوها عادل أول المرشحين، لكنها وقبل موعد العملية بيومين اشتكت ألما شديدا في عينها وفحصها طبيب العيون الذي وجد أنها تعاني من نزيف بشبكية العين ناتج عن ارتفاع شديد في ضغط الدم. وكانت هذه مشكلة المشاكل بالنسبة لنا ولها. فمن المعروف أن السيطرة على ارتفاع الضغط المصاحب للفشل الكلوي أصعب كثيرا من السيطرة عليه لدى المريض العادي، أما السيطرة على الضغط المرتفع لدى المريض المنزوع الكلى فمن الصعوبات التي تقترب من المستحيل. اقترحنا أن تغادر المستشفى لفترة تغييرا للأجواء، فخرجت وعادت بعد أيام قليلة وهي تعاني من ألم في صدرها مع صعوبة في التنفس. وتبين أن رئتها اليمنى تعوم في بحيرة كبيرة من المياه. فشغلت نفس الحجرة التي كانت تشغلها قبل الخروج، واستدعى الأمر جلسات غسيل أطول وباستخدام مرشحات أرقى. مرت ثلاثة أسابيع قبل أن تستقر حالتها وتصبح جاهزة للزرع. ووضعت أكثر من مرة على القائمة الاحتياطية دون أن يصيبها الدور، ودون أن يتخطاها اليأس الذي كان يرفع ضغطها العالي إلى قراءات قياسية. ورغم العناية

الفائقة التي تلقتها من الجميع، باءت كل المحاولات الجادة جدا بفشل مخجل جدا. لكن، وبعد أسابيع أخرى، عانت خلالها من تجمع المياه داخل غشاء التامور المحيط بالقلب، وأثناء غفوة قصيرة من اللعنة التي تسكن جسدها الهش، تمكنا من نقل كلية عادل إلى جسدها، وبنجاح.

مرت ستة أيام كاملة ونحن وهي وأهلها سعداء تماما بكتابة الفصل الأخير من هذه الميلودراما المملة التي رفعت معدلات ضغطنا وضغط العابرين بميدان المطرية الغارق في الزحام. وفي اليوم السابع ـ أحد الأيام المشئومة بالنسبة لسيناريو زراعة الكلى التي غالبا ما يرفضها جسد المستقبل وبمعدلات أكبر في اليوم الثالث، والسابع، والرابع عشر، والواحد والعشرين ـ صحت اللعنة من غفوتها، وظهرت على جسدها علامات الرفض. وتم علاجها بجرعات عالية من الكورتيزون. ولم تشأ اللعنة أن تهدأ دون تضحية ما، أصابها داء السكري كرد فعل لجرعات الكورتيزون العالية. لكن الهدوء لم يكن شاملا وهو ما اضطرنا إلى اللجوء إلى عقار الساندميون المتطور. وبعد أيام قليلة من تعاطي هذا العقار نبتت لها ذقن ونبت لها شارب قوي كمقدمة لحالة تشعر كاملة. كأنها لا تريد أن تترك شيئا غريبا ونادرا في كتاب الطب دون أن تجربه. استقرت الأمور وأخيرا خرجت فيفي جرجس من المستشفى، بكلى جديدة تعمل بكفاءة، وجسد مشعر، وفي يدها حقيبة كبيرة مسكونة بصيدلية هائلة.

غادرت المطرية إلى المنصورة لمتابعة أوراق تسجيل الماجستير بمركز المسالك، غبت يومين وعدت. وطوال هذه المدة القصيرة وأنا

أسأل نفسي: أي شياطين السخافة يستطيع أن يكتب مثل هذا السيناريو البغيض. لو أن هذا فيلما لمزق الجمهور الشاشة، وكسر السينما، ولو كانت رواية أقرأها لرميتها من الشباك. لكن، ومع الأسف لم يكن فيلما يحجم الواحد عن مشاهدته، ولم تكن رواية يمكن التوقف عن قراءتها بعد صفحات قليلة، وأيضا لم يكن هذا هو الفصل الأخير. لم تنجح كل العقاقير اللازمة لتثبيط جهاز المناعة وإجبار الجسم على التسامح مع الغرباء في تثبيط اللعنة التي سكنت جسدها وكلبشت في خلاياها دون أمل في الخروج.

بعد أيام قليلة من عودتي من المنصورة سعيدا بقبول تسجيلي هناك، عادت فيفي إلى المستشفى بنصف وعي، وجرح ينز، وارتفاع مخيف في درجة الحرارة. ارتمت على السرير في العناية الفائقة مثل المخدة التي تحت رأسها. وبعد دقائق كانت قد فقدت التحكم في البول وفي البراز ودخلت في نوبة تشنج صرعي أسالت دموع الممرضات. بسرعة فاليوم، إيبانوتين، محاليل، قسطرة، مضادات حيوية، مثبطات حمى، ولا فائدة. الحرارة فوق الأربعين لا تنزل، والنبض مائة وأربعين في الدقيقة ولا يتحسن، والضغط في السماء، ولا وعي، ولا استجابة ولا رغبة في العودة إلى الوعي. وظائف الكلى طبيعية تماما، صورة الدم، التصوير التلفزيوني للبطن طبيعي، التصوير الشعاعي للصدر والقلب ممتاز، فيه إيه؟ الإصابة ليست في الجسد، بل في رأس هذا الجسد. صورة الأشعة المقطعية على الدماغ مرعبة، تحول مخها إلى خراج كبير. مزارع الميكروبات كلها في البول والدم والبراز سلبية تماما.

بقي شيء واحد إيجابي وهو إصابة دماغها بميكروب التوكسوبلازما، مرض ينتقل من القطط إلى البني آدميين.

عشرة أيام كاملة بالعناية المركزة، في غيبوبة عميقة تقطعها نوبات الصرع، نائمة في سرير تحول إلى جبل صغير من الثلج، ولا تحسن، ولا شيء يشير إلى احتمال التحسن: الحمى كما هي، فوق الأربعين، كأن مركز التحكم في حرارة الجسد قد أصابه التلف، والنبض مازال مائة وأربعين في الدقيقة. عشرة أيام كاملة أتبادل النوم على كرسي بالعناية مع زميلي الأقل تشاؤما والأكثر هدوءا. وفي لحظة استراحة، قرب الفجر، كنا نشرب الشاي، كان زميلي يتحدث عن حدود التعاطف مع المريض، وعن ضرورة الاحتفاظ بمسافة ما تحول دون التورط العاطفي مع المرضى، وأن هذه المسافة هي في صالح الطرفين. قلت أن هناك حالات لا تملك سوى أن تتعاطف معها، وحالات أخرى تملك نفسك فيها، وتتمكن من الحفاظ على هذه المسافة. وقلت أن قبل أن يكون الواحد منا طبيبا أو جراحا هو إنسان، وأن ما يزعجني الآن ويزيد في ورطتي مع هذه المريضة هو شعوري بهذا الكم الهائل من «العبث» الحقيقي في هذه القصة المحزنة. ما هو المعنى الكامن وراء هذه المحنة؟ ولماذا تتعرض هذه المخلوقة إلى كل هذا العذاب الجسدي والنفسي؟ هل هو اختبار لقوة الإيمان كما يقول المؤمنون أو حتى مدعي الإيمان؟ أم هو عقاب على خطيئة ما؟ اختبار ممن ولمن؟ لها أم لأهلها؟ وأي خطيئة في الحياة تستحق هذا العقاب؟ أي خطيئة ارتكبتها وهي في بطن أمها لكي تلحقها لعنة الطبيعة وتعبث بشفرتها

الوراثية، هناك شيء ما غير إنساني بالمرة في هذه الحكاية، هناك شيء ما غير إنساني في هذه المهنة اللعينة. يدرسون لنا كل ما له علاقة بالجسم وتشريحه ووظائف أعضاءه، وأسباب تلفه وأنواع هذا التلف وطرق علاجه، لكنهم لا يقولون لنا أن الطب في الكتاب علم صلب، وفي الممارسة «ثقافة» لا تخص الطبيب وحده. كانت الأحماض تأكل جدار معدتي، وأنا اشرب الشاي وأدخن مثل كلب يلهث، وفي اللحظة التي كنت أقول لزميلي فيها: كيف يتحمل قلب بشري أن ينبض أكثر من مائة وأربعين نبضة في الدقيقة ولعشرة أيام متتالية دون أن يتوقف؟ سمعنا صوت باب العناية يفتح، وخطوات الممرضة المرتبكة، سكت للحظة ثم قلت لزميلي: فيفي ماتت. قال: يا راجل، قلت اصبر. وفي اللحظة نفسها طرقت الممرضة السمينة باب الغرفة ودخلت وقالت من خلال دموعها وأنفاسها اللاهثة: ف ي ف ي ما ت ت.

أخذت الممرضة من يدها وذهبنا إلى العناية المركزة في آخر الردهة نفسها، وبهدوء أقرب إلى البرود، رفعت من جسدها الخراطيم والقساطر التي كانت تحاول ربطه بالحياة، وأزلت أكوام الثلج من حولها، وغطيتها حتى رأسها بملاءة بيضاء جافة، ثم كتبت في ملفها الضخم ساعة وتاريخ وسبب الوفاة، وخرجت. وبنفس الهدوء دخلت حمام الغرفة الخاصة بالأطباء ضاغطا على معدتي، وتقيأت قليل من الدم وكثير من القهوة والشاي.

تزامنت هذه اللحظة مع رحيلي عن المطرية، فكانت فرصة للاسترخاء، وعلاج القرحة التي أصابت معدتي قبل أن أبدأ فصلا

جديدا من فصول الاحتقان.

لم أكن أول الفئران الهاربة من سفينة المطرية التعليمي، كان الطبيب المقيم الأقدم، السنيور، قد استقال قبل رحيلي بوقت طويل، وجلس في بيتهم يذاكر المعادلة الكندية تمهيدا للهجرة النهائية من البلد كلها، وقد فعل. وبعد رحيلي بدأ المغرمون بالـ« سيستم» في التسرب واحدا وراء واحد: واحد إلى جامعة الأزهر، واثنان إلى جامعة قناة السويس، وواحد إلى سلطنة عمان، وواحد أخير لا أعرف إلى أين. وبينما كان الحالمون يغادرون المطرية فرادى كان المنتفعون بالفوضى قد أتموا تدريبهم على زراعة الكلى بمستشفى الحكومة فانتقلوا إلى الدقي، وكان من السهل عليهم تعديل الجهة التي سيذهب إليها قرار القومسيون الطبي من ميدان المطرية إلى ميدان فيني.

وفي يوم من ذات الأيام وأنا أمر عبر صالة الانتظار الخاصة بالعيادة الخارجية لمركز المسالك، متجها إلى معمل التجارب على الحيوانات، سمعت صوتا أنثويا مألوفا: يا دكتر، يا دكتر. التفت وجدتها فتحية. لم تكن قد فقدت ملاحتها، لكنها كانت ذابلة، وعيونها شبه منطفئة.

- إزيك

- الحمد لله

- بتعملي إيه هنا

- هستنيه أحمد، بيغسل فوق

- عامل إيه دلوقتي، كويس

- الحمد لله، هيزرع قريب

- كويس، جاب كلوة منين

- أخته الكبيرة اتبرعت له

- أخيرا

- آه، بس مش ببلاش والله

- أمال

- كتبته تنازل عن نص الميراث بتاعه في أبيه

- ياه، وده كثير يا فتحيه

- كثير قوي، بس مش مهم كله فداه، المهم يزرع

- ربنا يوفقكم يا فتحيه، سلمي على أحمد كثير

- يوصل

- مش عاوزه حاجة

- تسلم.

بوست تانيل سيندروم

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أعبر فيها القناة. المرة الأولى كانت بعد التخرج مباشرة تنفيذا لقرار وزير الصحة بتكليف كل الأطباء حديثي التخرج في المناطق النائية. وجاء تكليفي مع كثيرين بشمال سيناء. وفي يوم واحد كانت عشرات السيارات تنطلق من موقف سيارات الأجرة بالمنصورة إلى الإسماعيلية، وفي داخلها عشرات من الأطباء الجدد، ومنها، بالمعدية، إلى القنطرة شرق ثم إلى العريش. كان الطريق إلى العريش موحشا، رمل كثير على الجانبين، يظهر البحر أحيانا ثم يختفي، وبقايا مدرعات صدئة تقتحم العين مهددة بظهور بقايا جثث، أو فصيل من المحاربين القدامى في ثياب مهلهلة.

كان وصولنا إلى المدينة «المستعادة» بعد نهاية يوم العمل الرسمي فبتنا في فندق «السلام»، وفي الصباح التالي توجهنا إلى مديرية الشئون الصحية. حشد كبير من الأطباء في مكتب وكيل الوزارة، يتم توزيعهم على أماكن لم يسمعوا بها من قبل: الحسنة، نخل، رأس النقب، كندا، بئر العبد، الشيخ زويد.... وجاء تكليفي بالوحدة الصحية بمعسكر كندا للاجئين برفح، أنا وأربعة آخرين. ذهبنا نحن الخمسة معا في سيارة

من طراز مرسيدس سبعة راكب، ونزلنا على أول المعسكر، ثم رحلة على الأقدام بين البيوت، وبعد السؤال وصلنا. كانت الوحدة الصحية بمعسكر كندا في مواجهة السلك الحدودي الفاصل بين رفح المصرية ورفح الفلسطينية، وبرجي المراقبة على مرمى حجر، وامرأتان تتحاوران عبر السلك بصوت عال. دخلنا الوحدة وبعد نصف ساعة خرجنا وفي يد كل منا إخلاء طرف، وكان الحوار بين المرأتين عبر السلك لا يزال قائما وساخنا.

بعد شهرين، وبعد أن تم تسريحي من الخدمة العسكرية لعدم اللياقة الطبية، توجهت إلى العريش. فتم إعادة توزيعي ليس إلى «رفح» ولكن إلى «نخل»، في وسط سيناء على طريق نويبع. وبعد شهرين في نخل، نقلت إلى «رأس النقب» ولم تطل إقامتي هناك لأسباب لا يجوز ذكرها هنا. باختصار تجولت في شمال سيناء من أعلى إلى أسفل ومن الغرب إلى الشرق دون أن أحمل لها سوى بعض الذكريات البائسة.

وبعد خمس سنوات بالكمال والتمام، من نهاية التكليف، قضيت نصفها في المطرية ونصفها الثاني في مركز المسالك بالمنصورة، حصلت على الماجستير. ونقلت إلى بورسعيد. ورغم تفوقي الواضح فشلت في التسجيل للحصول على درجة الدكتوراه، فقررت السفر، ومغادرة البلد كلها نهائيا. وبالمراسلة، وبالمصادفة السعيدة أيضا، حصلت على وظيفة مؤقتة في أحد المستشفيات الجامعية الفرنسية. في هذه الأثناء توصلت وزارة الصحة إلى نظام جديد يلزم من حصل على شهادة التخصص، ويرغب في الترقي من طبيب مقيم إلى مساعد

أخصائي، أن يقضي شهرين بأحد المناطق النائية. ومثل التكليف الشكلي بالمناطق النائية، ينتهي هذا الإلزام الشكلي بالذهاب إلى المناطق النائية بعد التخصص. يعني سيقضي الواحد منا أسبوعا في أول الشهرين، وأسبوعا في آخرهما وبعدها يحصل على ما يفيد أنه نفذ التدريب بالمناطق النائية ويترقى. وكانت بالنسبة لي فرصة، أستغل الوقت في مزيد من دروس اللغة الفرنسية بالمنيرة، وفي نفس الوقت أترقى. فاخترت جنوب سيناء، بناء على نصيحة من اختبر الطريق قبلي.

كنت قد عبرت نفق أحمد حمدي مرات كثيرة من قبل، لكن العبور هذه المرة كان له طعم آخر. كان مزاجي رائقا، وطريق الجنوب أجمل من طريق الشمال. كنا بالليل، السماء صافية ومليئة بالنجوم، والبحر أكثر قربا من الرمال. بت ليلة في سكن الأطباء بالطور، وفي اليوم التالي ذهبت إلى شرم الشيخ التي وصلتها قرب المغرب. المستشفى على بعد خمسين مترا من محطة الأوتوبيس، خلفها محطة الكهرباء، ومبنى مباحث أمن الدولة، وقدامها مباشرة منتزه كبير ومكتب لتأجير ملابس الغوص، ووراءهما الخليج. وكل هذا ينام تحت هضبة أم السيد العالية.

المستشفى كانت من الغرائب، مبناه الأساسي ليس قديما، غالبا من بقايا الاحتلال، وبجوار هذا المبنى ملحقات معمولة من خشب الكاونتر على شكل مربع ناقص ضلع. الضلع الذي في المواجهة مقسم إلى ثلاث غرف لا تزيد مساحة الواحدة على مترين في مترين: الغرفة التي على الشمال لنوم الأطباء وبها سريرين من الحديد الصدئ كل

واحد منهم بدورين، مثل أسرة السجون، وبينهما مسافة لا تزيد على نصف متر، والغرفة الوسطى هي دورة مياه تفصل غرفة الأطباء عن غرفة المخزن. والضلع الذي على الشمال مقسوم نصفين: نصفه الأول هو صيدلية المستشفى، ونصفه الثاني قسم الأشعة. أما الضلع الأخير فمبنى الإدارة.

المهم، لحظة وصولي لم يكن هناك أي من الأطباء بالمستشفى أو بالسكن، ففتح لي أحد الإداريين غرفة الأطباء التي بلا مفتاح أصلا، وقال لي إن المكان الوحيد الخالي هو السرير الأيمن العلوي، وإن الأطباء على وصول. وضعت الحقيبة على أرضية الغرفة، وجلست على السرير الأيمن السفلي، وبداخلي خليط من التعب والقرف والرغبة في الضحك والرغبة في الهروب من المكان. وضعت دماغي بين كفي وأغمضت عيني وأنا أقول لروحي: وبعدين؟ خرجت من الزنزانة وتجولت حول المكان ساعة تقريبا ولم يظهر مخلوق واحد في المكان. شعرت برغبة شديدة في التبول. فعدت إلى الملحق، ووجدت عملاقا مشعرا، واقفا بملابسه الداخلية البيضاء أمام قسم الأشعة ينشر قميصا أحمر اللون وبنطلون جينز على حبل غسيل معلق بين نخلتين قصيرتين. سألته عن دورة المياه، فأشار لي برأسه، غالبا لأن مشبك الغسيل كان بين أسنانه، وفهمت من الإشارة أنه جنب زنزانة الأطباء. هرولت إلى المكان المقصود، عالجت الباب حتى فتحته، الرائحة لا تطاق، حوض على اليمين، وبابين مفتوحين في المواجهة، واحد يفتح على مرحاض إفرنجي والثاني يفتح على الدش. تبولت بصعوبة شديدة، وأنا أغسل يدي رأيت على المسافة الصغيرة التي تفصل الحوض عن

المرحاض علامة (X) حمراء كبيرة ومكتوب تحتها: ممنوع التبول هنا لعدم الإحراج، وبعد مسافة سهم أحمر عريض يشير إلى أسفل، إلى البالوعة. خرجت من الحمام، كان العملاق المشعر قد اختفى. دخلت الزنزانة مرة أخرى، كان نفسي آخذ دش، لكن في هذه الرائحة الوساخة أرحم. بدلت ملابسي وصعدت إلى السرير الأيمن العلوي. جلست على السرير وبدأت أتأمل الجدران. كانت الجدران الباهتة مليئة بكتابات بعضها كبير الحجم يقرأ من بعد، وبعضها بالقلم الجاف وبخط صغير نسبيا يحتم على الواحد أن يقترب لكي يقرأه. التفت إلى الجزء من الجدار الملاصق لسريري كان هناك رسم كبير لمنحنى تصاعد الإثارة والأورجازم لدى الرجل والمرأة، ومكتوب تحتها بالإنجليزية: what is orgasm? (ما هو الأورجازم) وتحتها how I can go out of this place? (كيف يمكنني الخروج من هذا المكان). وبعد مسافة صغيرة، لكن باللغة العربية كتب صاحب الخط نفسه: وصفة لتقوية الجماع: وزن درهم قرنفل يسحق ناعما ويوضع في الحليب ويشرب على الريق صباحا (تذكرة داود ص ٢٤٥).

وقفت على ركبتي لمتابعة المكتوب، على يمين منحنى الإثارة والأورجازم المرسوم بمهارة ودقة كتب الخط نفسه:

ومن تذكرة داود لتقوية الجماع وعلاج الضعف الجنسي، ص ٢٤٣

(١) أخذ الثوم وهرسه ووضعه على النار مع قليل من لبن الضأن أو لبن البقر السمين ثم عقده بعد ذلك بعسل النحل فإنه لا يعدله شيء في تقوية الجماع.

(٢) منقوع الحمص مع يسير من عسل النحل لإعادة الشهوة حتى بعد سن اليأس

(٣) أدمغة العصافير تضرب في صفار بيضة وتوضع على النار قليلا فإنها تهيج الشهوة وتقوي الجماع.

أنت تسأل ونحن نجيب!!!

نصيحة أخوية:

لا تكتئب إذا كان طول العضو الذكري صغيرا، ولكن أجدر بك أن تكتئب إذا كان رفيعا.

الجنس هو اتحاد صحي بين الرجل والمرأة.

من تذكرة داود ص ٢٣٦

ثم رسم الخط نفسه دائرة كبيرة وكتب داخلها: جزء بذر الكرات + جزء فلفل يدقان وينخلان ثم يعجنان بعسل النحل ويمسح به الذكر فإنه نافع جدا جدا.

مع تحيات أسرة المستشفى

ومشروع الدكتور

د.مصطفى محمود مهدي

محافظة الفيوم

قبل أن أفكر في الانتقال إلى مربع آخر من مربعات الزنزانة وقراءة ما هو مكتوب عليها، دخل شاب وسيم، قال إنه الدكتور ياسر، وإنه تخصص أمراض جلدية، ويقضي هنا شهري المنطقة النائية، وأنه أصلا من الزقازيق. سألت عن الباقين فقال بعضهم يقيم في السكن الأصلي فوق، على الهضبة، وبعضهم في عيادته الخاصة وسوف يحضرون بعد الساعة الحادية عشرة. سألني إن كنت قد أكلت شيئا، قلت لا، فأخرج بسكويتا من حقيبته، وصنع كوبين من الشاي، وقبل أن تأتي الحادية عشرة كنت قد غرقت في نوم عميق فلم أشعر بمن جاء ومن ذهب، إذا كان هناك من جاء أو من ذهب.

في السابعة صباحا أو بعدها بقليل، كنت أتحرك في فراشي بحرص حتى لا يوقظ الصرير المتوقع النائمين. وإذا بالباب يدفع بقوة، مفزعا من كنت حريصا على عدم إيقاظهم، وزعق الذي دفع الباب: اصحوا يا كفره، قوموا أنتو لسه نايمين، قوموووووا. جلست في سريري مرتبكا ورأيت على الباب عملاقا آخر، أصلع، والشعر الباقي في جانبي رأسه أشقر ومنكوش، وعلى وجهه نظارة طبية كبيرة مجنزرة، وفي يده علبة زيت صفراء عليها علامة شل الحمراء. يرتدي بلوفر بني متآكل عند الكوعين، مع بنطلون كحلي مملح وفي رجليه شبشب زيكو أزرق تآكلت مقدمته وبرز منها إصبعه الكبير الضخم والمتسخ. صحا الزميل الراقد على السرير الأيسر السفلي: فيه إيه يا زفت إنت ع الصبح؟ فزعق العملاق من جديد: عاوز أعرف إحنا بنيجي الشغل علشان إيه؟ هه، حد يجاوبني؟ بنيجي الشغل ليه؟ بلاش حد يجاوبني، واحد حمار

فيكم يسألني بنيجي الشغل ليه؟ فرد عليه السرير الأيسر السفلي بزهق: بنيجي الشغل ليه يا زفت؟ فقال العملاق بصوت عميق: علشان نشتغل، ثم رفع علبة «شل» إلى أعلى وحطها فوق رأسه الأصلع وقال بصوت خفيض: ونجيب جاز. ودار حول نفسه ومشى.

رغم هذا الفزع الصباحي تمكن الزملاء النائمون من استكمال نومهم، أما أنا فنزلت من السرير ودخلت الحمام، وفي لحظة خروجي منه والفوطة على كتفي، اصطدمت بشخص قصير، أقصر مني، يغطي رأسه تماما بفوطة كبيرة، فقال بأوتوماتيكية: ألو، اصحوا يا بشر. دخلت غرفتنا وليس لدي أدنى فكرة عن ما يمكن أن أفعله. أخذت سجائري وجلست أدخن في الخارج، على كنبة عجيبة ملاصقة للصيدلية. وقبل أن أنتهي من تدخين السيجارة الأولى ظهر العملاق الذي أفزعنا قبل قليل وفي يده اليمنى حزمة جرجير وفي يده الشمال علبة الـ«شل» تفوح منها رائحة الكيروسين. تخطاني دون كلام، وضع علبة الكيروسين على الأرض، أخرج مفتاحا من جيبه وفتح الصيدلية، وأخذ العلبة واختفى في الداخل. دقيقة وخرج، وجلس إلى جانبي، وقال آمرا: هات سيجارة، أعطيته سيجارة، قال بنفس اللهجة الآمرة بعد أن شحنها بالزهق: وبعدين.. ولع. نفث الدخان بقوة وقال اسمك ايه، قلت له اسمي، قال وجاي هنا تهبب ايه؟ قلت: منطقة نائية، قال: دبلوم ايه؟ قلت ماجستير مسالك بولية، قال: بتاع بول يعني، عشنا وشفنا البول كمان بياخدوا فيه شهادات، ماجستير ايه وزفت ايه ع الصبح كلها دبلومات يا ... اسمك ايه علشان الذاكرة، قلت له اسمي تاني، قال: طيب طيب. كانت رائحة

الكيروسين الممزوجة بالعرق الآدمي خانقة، قررت القيام، فأمسكني من يدي وأعادني إلى الكنبة، اسمع يا بتاع البول انت، قعدت وأنا خائف، قال أنا زمان كنت مشروع جراح كبير في إسكندرية، عملت عمليات خطرة في الزايدة الدودية والأمعاء الدكيكة ياما، لكن تعمل ايه بقى في الغيرة والنفسيات المعقدة. قلت له وجيت هنا ازاي، قال ما قلتلك الغيرة والنفسيات. في هذه اللحظة خرج القصير الذي اصطدمنا معا لحظة خروجي ودخوله إلى الحمام، وقال اصطبح يا عبد الرءوف وسيب الدكتور في حاله، فقام العملاق واقفا وصاح ستين مرة يا عبد الشافي الزفت قلتلك ما تقولش اسمي حاف كده، ولما تحب تكلمني يكون بأدب وتقولي يا دكتور رءوف. لم يعره القصير اهتماما، وأكمل طريقه ودخل غرفة ما، وتوجه عبد الرءوف إلى داخل الصيدلية. دخلت غرفة الأطباء بسرعة، وصعدت إلى السرير الأيمن العلوي غير مهتم بأن يوقظ الصرير هؤلاء النائمين تحت الثرى، ورحت أتأمل منحنى الأورجازم من جديد. وبعد دقائق قليلة فتح الباب بهدوء ودخل شخص ما بنصف جسمه فقط ووضع صينية عليها خبز وجبن وفول على الأرض، وسحب نصفه الذي دخل به، ومضى.

يبدو أنني نمت، وصحوت على صوت ياسر أخصائي الجلدية، دعاني للإفطار قلت، إنني لا أفطر، قال طيب خد شاي. كان في الغرفة طبيب آخر يأكل، عرفت فيما بعد أنه أخصائي نساء وتوليد من السويس. ثم ظهر طبيب آخر، أخصائي جراحة عامة، وقال لي إلبس هدومك ووصلني على العيادة. ومن العيادة إلى الإدارة، استلمت العمل، ثم إلى

العيادة مرة أخرى قال الأخصائي زي مانت شايف الشغل هنا على ودنه، وزعق شاي للدكتور يا صبحي، ثم أكمل كلامه تحب تقعد في العيادة، ولا تروح العشة، ولا تتمشى ع البحر، أقولك اشرب شايك وبعدين قرر. استأذن هو واختفى، جاء صبحي بشاي عجيب اللون ومشى، وخرجت بعد دقيقة واحدة دون أن أمس الشاي. عدت إلى العشة، كان الكل قد اختفى ماعدا ياسر الذي كان ارتدى ثيابه الكاملة وقال تعال نقعد شويه ع الخليج، المنظر رائع. قطعنا الشارع إلى المنتزه، ومنه إلى منطقة صخرية، تخير ياسر صخرة مميزة وجلسنا نتأمل الماء الفيروزي والأفق الملون. بعد ساعة عدنا، واختفى ياسر. أصبحت وحيدا تماما من جديد. أين يذهب هؤلاء البشر لا أعرف.

قعدت على السرير الأيمن السفلي الذي ينام عليه ياسر، ثم تمددت ورحت أتأمل الكتابة الكثيرة التي تغطي المستطيل التابع للسرير:

أكره الحياة لكني لا أتخلى عنها

أحب الموت وكلما اقتربت منه خفته، أحب الحياة أحب الحياة وكلما توغلت فيها أدركت أنها الموت.

إيفان تورجينيف

أنا استراحة من يفاوض أو يحارب أو يخاطب ربه

عينان جميلتان عينا فنان أو قاتل

سارتر

داخل دائرة كتب بخط آخر: الموضوع ده لو تم

ثم بنفس الخط الموجود داخل الدائرة:

عندنا أمبسلين، وجاراميسين

وأسبرين مغلف

ودكاترة أخصائيين

ودكتور يوسف

وأخصائي أسنان

وعايزين نشتغل، هه

وتحت هذه العبارة الأخيرة، لكن بنفس خط الشخص الذي يقتبس من تورجينيف وسارتر:

من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود.

نجيب محفوظ

بهذا الاقتباس من نجيب محفوظ انتهى هذا العمود، وبدأ عمود أخر

لا يعرف الليل

سوى من فقد النهار

هذا شعارنا

لا تبكنا أيها المستمع السعيد

فنحن مزهوون بانكسارنا

ص. عبد الصبور

لن تكون حياة الناس عادلة

إلا إذا كانت حافلة بالجمال

رامبرانت

من يوقف النزيف

وكل ما نحبه يرحل أو يموت

يا سفن الصمت ويا دفاتر الماء وقبض الريح

موعدنا

ولادة أخرى وعصر قادم جديد

يسقط عن وجهي وعن وجهك

فيه الظل والقناع

وتسقط الأسوار

البياتي

ثم يبدأ عامود جديد، بخط مختلف تماما عن الخطين السابقين على رأسه مربع كتب داخله

تنبيه هام

وتحت المربع

يرجى العلم بأن العامل صبحي هو المرشح الأول والممثل الشخصي لصدام حسين المهيب الركن، وهو عميل الشيوعيين الرافضين والاشتراكيين الدمويين المتمثلة في صورة عامل مستشفى يعيش دور الزعيم الركن المهيب قائد الفيلق الرابع لقوات الحرس الجمهوري.

إمضاء

د. فتحي الباز مختار

أخصائي مسالك بولية

كفر الأمير- السنبلاوين - دقهلية

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

إنه ليس مثلك الأعلى فقط لكنه مثلنا جميعا

بعدها عاد خط المقتبس الأول للظهور باقتباس طويل من محمود درويش

نسيان أمر صعود نحو باب الهاوية

ما أضيق الأرض التي لا أرض فيها

للحنين إلى أحد

أهناك ما يكفي من الأفكار كي أختار خطوتي الأخيرة

أهناك ما يكفي من البلدان كي أضع الكلام على الرصيف

وأنصرف

أهناك ما يكفي من النسيان كي أنسى وأنسى

أنسى لأبتكر البداية من نهاية ما انتهى فينا

كسرت الدائرة

وكسرت نفسي كي أرى نفسي

تدك على انتباه الأجنحة.

في نهاية هذا العامود وبخط رابع أو خامس: كل هذه الاقتباسات الرائعة من تأليف الدكتور ياسر زين الدين، وللعلم هو صاحب مخ كبير، لكن بعون الله مخه ساب (ضارب بالبلدي).

مع نهاية العامود، فزعت على صوت الباب يفتح بعنف، ودخل عبد الرءوف: مافيش حد هنا غيرك يا بتاع البول، حاجة تقرف. هات سيجارة. وقبل أن يشعل رءوف سيجارته سمعنا أصوات أقدام، وطرقات قوية على باب الصيدلية، يا رءوف افتح يا رءوف، خرج رءوف وخرجت وراءه، وجدنا عبد الشافي القصير قال لرءوف فيه عامل بناء وقع من ع السقالة في برميل الزفت الساخن ومحروق وعاوزين الجاز بتاعك علشان يدوبوا بيه البلك. رمى رءوف السيجارة بقوة، الجاز بتاعي يا ولاد الكلب، يتحرق بن الوسخة بالزفت اللي عليه، إنما الجاز بتاعي لأ، فاهم يا..... أمك. ودخل الصيدلية وخطف الجرجير وعلبة الجاز وقفل الصيدلية وجري. تصورت أن المسالة هزار مقصود مع عبد الرءوف، لكن ذهبت وراء عبد الشافي إلى عيادة المستشفى كان هناك عامل بناء صعيدي فعلا يتلوى من الألم وثلثي جسمه تقريبا مغطى بالزفت الساخن الذي التصق بجلده المحروق. حكى عبد الشافي ما جرى من رءوف، فأخرج أخصائي الجراحة نقودا من جيبه وأعطاها لعبد الشافي وقال له: تقب وتغطس وتجيب جاز في ثانية يلا روح مستني إيه. وقفنا إلى جوار العامل المحروق في انتظار الجاز، والمسكين يرتجف ويتلوي دون صوت. جاء عبد الشافي بالجاز وبدأت الأيدي تدعك جسد المحروق بالجاز وتزيل الزفت الذي بدأ يذوب أو يتقشر ويتقشر معه الجلد. أكثر من ثلاث ساعات حتى تعبت الأيدي، ثم بدأت مرحلة تغطية الحروق بالـ «فلامزين» الأبيض. وبعدها ظهرت عربة إسعاف حملته إلى مستشفى الطور وغادرت.

غسلنا أيدينا عشرات المرات، ولم تزل رائحة الكيروسين عالقة بها، وبقوة. أخذني أخصائي الجراحة إلى المطبخ، كان عبارة عن تعريشة خارج المبنى، وقف وسطها العامل المهيب الركن بأفورهول كحلي وفوقه بالطو كاكي مثل قدامى المخبرين، وشاربه الكث يكاد ينفجر من النفخة الكذابة، وحوله بقايا طعام تفرش الأرض المسفلتة، وأوعية طبخ مهيبة تتصاعد منها أبخرة غريبة الرائحة. قال الزميل لصبحي هات أكل للدكتور، قلت بعدين، أنا مش جعان دلوقتي، رغم أنني لم أكل منذ يومين سوى شاي وبسكويت. أدرك الزميل قرفي فقال طيب تعال، ماشي بعدين يا صبحي، وبعد أن ابتعدنا عن ما يسمى بالمطبخ، قال الزميل شوف ما فيش هنا مطعم قريب، بالليل تنزل «نعمة» تلاقي مطاعم كويسه، بس غالية، وكام سوبر ماركت تجيب منها اللي انت عاوزه. سلام بقى. قلت على فين، قال على فوق، أنا ساكن هناك فوق وأشار إلى هضبة أم السيد.

دخلت العشة، وارتميت على السرير السفلي، ثم اعتدلت وولعت سيجارة، وعدت إلى الكتابة على الجدران. بين السريرين، على الحائط المواجه للباب، تحت الشباك الوهمي الصغير جدا في أعلى الغرفة كتب أحدهم بخط واضح جدا وأنيق:

إرشادات هامة للأطباء الجدد

(١) عدم بث الشكوى لزملائك الأقدم خاصة الأساسيين

(٢) الفتحة الموجودة في الحمام (تحت الحوض) لصرف المياه

فقط وليست لشيء آخر

(٣) أدوات الاستعمال الشخصي (الفوط، الشباشب، الأمشاط، .... الخ) التي لا تخصك فهي طبعا لغيرك، وليست منفعة عامة وبالتأكيد ليست عهدة المستشفى

(٤) إطعام القطط بفضلات الطعام (إذا أبقيت منه شيئا) يكون خارج الغرفة

(٥) إذا كنت تعرف صيد الأسماك ستنعم بأكل هانئ صحي وكافي، أما إذا كنت لا تعرف فصاحب من يعرف

(٦) للوقاية من الـ **Post Tunnel Syndrome (PTS)** لا تأخذ كلام من أصيبوا به بجدية واكتفي بالنوادر والفكاهات التي تعينك على قضاء الوقت.

وأنا واقف في مكاني، وظهري مواجه للباب، دخل ياسر بهدوء وقال أكلت، قلت لا، قال قرفت من صبحي طبعا، قلت يعني، قال تعال، في مطعم قريب من هنا. رحت، معه إلى ما يشبه السوق، أكلنا ورجعنا، شربنا الشاي، ونمت. صحوت على صوت صياح في الساحة التي بين المباني الخشبية. كانت هناك مباراة في كرة القدم بين الأطباء والعاملين بالمستشفى ولا أعرف من أين جاء هذا العدد كله. كان هناك متفرج وحيد، هو نفس العملاق المشعر، وكان كما هو بملابسه الداخلية البيضاء، واقف أمام باب قسم الأشعة. المباراة مشتعلة والأعلى صوتا والأكثر صياحا هو الأخ عبد الشافي القصير، أمين المخزن. بدأ الظلام

يحل وانتهت المباراة. جلس اللاعبون على الكنبة الملاصقة للصيدلية، تعارفنا، بعضهم من قدامى الأطباء ساكني الهضبة، وبعضهم من موظفي المستشفى جيران الأطباء في الهضبة أيضا. وبعد أن استراحوا من المباراة انصرفوا. دخلت العشة، وعملت شاي تركه لي ياسر، وقبل أن أقرر ماذا يمكن أن أفعل، انطلق صوت وردة الجزائرية: مليت أنا مليت من الغربة. كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الأغنية، وأعجبتني. مصدر الصوت هو قسم الأشعة، فذهبت إلى هناك، وطرقت الباب.

ـ مين؟

ـ أنا

ـ انت مين؟

ـ قلت أنا الدكتور الجديد

ـ عاوز ايه؟

ـ قلت اقعد معاك شويه، ممكن

ـ ليه؟

ـ عاوز أسمع وردة، ممكن

ـ طيب

فتح الباب، وقال: تفضل، دخلت. كانت غرفة فسيحة جدا ملحقة

بقسم الأشعة، ويقيم بها الأستاذ مجدي فني الأشعة لوحده، على جانب منها سرير حديد لشخص واحد وبدور واحد، وطاولة عليها جهاز استريو بروحين، أسود وشديد اللمعان. على الحائط علق مجدي، الذي كان قد ارتدي ترايننج أحمر فاقع في أبيض ناصع، القميص الأحمر والبنطلون الجينز ـ غسيل الأمس ـ بحيث كان القميص فوق البنطلون بالضبط، كأن هناك شخص آخر في كامل ثيابه واقف على الحائط. انتهت أغنية الغربة، وبدأت أغنية جديدة، اقتربت من الاستريو وقلت: حلو الجهاز ده، جايبه منين؟ وبمجرد أن لمست يدي الجهاز، انتفض مجدي مفزوعا، وقال بلهجة حاسمة: لو سمحت، سحبت يدي بسرعة وأنا أقول له: في إيه؟ قال لو سمحت، فهمت أنه يريد مني أن أقوم من مكاني وأن ابتعد عن جهازه الثمين. جلس مجدي على الكرسي والجهاز أمامه كأنه في حضنه، وجلست أنا على السرير. وأمسك قطعة شاش بللها بالكحول الطبي الأبيض وراح يمسح الاستريو، في صمت تام، وبحنان أم تحمم طفلها الرضيع. شعرت أنني ارتكبت جرما لا يغتفر، وأن وجودي غير مرغوب فيه. استأذنت، وخرجت من الغرفة دون أن يقول لي كلمة واحدة.

عدت إلى العشة، وعادت وردة إلى الغناء. قرأت شيئا في كتاب اللغة الفرنسية الذي حملته معي، وحين مللت من المذاكرة، قلت نشوف باقي الحيطان عليها إيه؟ نزلت من السرير الأيمن العلوي وصعدت إلى السرير الأيسر العلوي:

إذا كان الفراغ غير محدود فمن الممكن أن نشغل أي حيز من

الفراغ، وإذا كان الوقت غير محدود فمن الممكن أن نشغل أي حيز من الوقت.

جورجي بورخيس

(كتاب الرمل)

وتحتها وبخط مختلف: يا ترى من سيء الحظ اللي ح ينام على السرير ده تاني

عووووووووووووو

مين السبب في الحب

القلب ولا العين؟

نوووووووووووو

ثم، وغالبا لنفس الشخص، وبالقلم نفسه لكن بالإنجليزية:

When you first time came here you soon will discover how big ass hole you are

No dreams

No women

No hospital

No food

No water

No W.C

BAD BAD BAD

Ya rabi, how I can go out of this hell.

وتحتها: زمن للحب أتى وستأتي أزمنة للموت

أنا شاعر أحب التجوال تعرفه كل الطرقات

أنا حزين

توقفت وردة عن الغناء، وبدأت تينا تشارلز، ثم توقفت تينا وبدأت دونا سمر. قلت: الظاهر مجدي بيجرب الشرايط، وخرجت من الغرفة وأنا أفكر في هذه الكتابة التي على الجدران. يقولون إنها ظاهرة خاصة بالمصريين، لكني لم أعش إلا في مصر، ولا أعرف غير المصريين، فكيف أصدق أنها ظاهرة مصرية فقط. ويقولون إنها مرتبطة بالمراحيض العامة، لكنها غالبا ما تكون شتيمة قذرة، أو للذكرى، أو رسم مبتذل، لكن هذه الكتابة الجدارية مختلفة، فيها شيء مختلف، ربما تكون أقرب إلى كتابة المساجين السياسيين على جدران الزنازين كما سمعت من

بعض الأصدقاء الذين جربوا السجن. وهذه الغرفة الكئيبة هي أقرب إلى الزنزانة منها إلى المرحاض. وفكرت ماذا يمكن أن أكتب على هذه الجدران، هي أشبه بمجلة حائط جماعية، فلماذا لا أشارك فيها، وحشتني مجلات الحائط.

وأنا جالس على الكنبة الملاصقة للصيدلية، ظهر ياسر:

ـ بتفكر في إيه؟

ـ ولا حاجه، قولي بقالك قد ايه هنا

ـ مش كتير، شهرونص

ـ ما كتبتش حاجة على الحيطة دي

ـ قال وهو غارق في الضحك، لا ياعم دي ناس تعبانة

ـ وانت مش تعبان

ـ يعني، مش لدرجة إني أكتب على الحيطة،

ايه انت بتفكر تكتب حاجة انت كمان

ـ يعني

ـ يعني ايه، اللي عدوا على الأوضة دي حاجة من اتنين يا ناس كتبوا على الحيطة، يا ناس قعدوا يقروا كل الكلام المكتوب وماكتبوش حاجة

ـ وانت من النوع التاني

ـ لا ده ولا ده قريت بس مش كل الكلام، مش ناقصة كآبة

ـ انت بتروح فين كل الوقت ده

ـ موفينبك

ـ بتعمل إيه هناك؟

ـ بشتغل، طبيب عام، بدل القعدة المهببة دي

ـ وناوي تطول في المخروبة دي

وقبل أن يجيب ياسر ظهر عبد الشافي أمين المخزن من بين المباني كأن الأرض انشقت عن وجوده المفاجئ. كان يلبس بنطلون وسويتر من الجينز، ويجري ماسكا ما بين فخذيه، ويزعق:

ولا يا مجدي

ولا يا مجدي

ظهر مجدي على باب غرفته المكتوب عليها قسم الأشعة بالملابس الداخلية البيضاء، دون كلمة واحدة، وراح عبد الشافي يتكلم مع مجدي من بعيد وبصوت عال:

أأأأعععه حتة مزة يا لا إنما ايه، جنان يا بن المجنونة، جنااااان

وأثناء الكلام كان يلعب بيديه أمام وجهه، ثم ينزل إلى ما بين فخذيه، ويقبض على عضوه كأنه سيخلعه من مكانه، قال له مجدي بهدوء: منين؟ قال له عبد الشافي: مكنة ألماني أصلي أصلي، ح موت يا بن

الكلب، ح موت، قال له مجدي: ما انت ميت خلقه، ح تموت تاني إزاي يا بن الحولة. قال عبد الشافي نفسي يا لا نفسي، خلاص ماعدتش قادر.

سألت ياسر عن الحكاية، قال عبد الشافي نفسه يتجوز واحدة، سائحة أجنبية تأخذه معها إلى بلدها. وأضاف أن عبد الشافي يعمل بهذه المستشفى منذ ثلاث سنوات وليس لديه سوى هذا الحلم. وقف عبد الشافي مع مجدي في المكان نفسه، وبينهما حديث هامس. نادي ياسر على عبد الشافي: يا شافي تعالى عاوز أقولك حاجة، رد عليه شافي من بعيد: قول، وياسر قال: تعالى بس، حاجة مهمة والله، قال شافي: مستعجلة ولا تتأجل، قاله ياسر: جدا مستعجلة. جاء عبد الشافي ووقف مجدي على باب غرفته يرقب الموقف. قال له ياسر: الدكتور بيعرف فرنساوي وممكن يعلمك، وكفاية الألماني اللي مش جايب نتيجة معاك ده، اقلب ع الفرنساوي جايز السنارة تغمز. قال له عبد الشافي: يا عم فرنساوي ايه، الدكتور الجديد ده شكله مع نفسه ع الآخر، لا مؤاخذة يا دكتر، ده جاي وجايب الـ بي تي إس بتاعه معاه. قال له ياسر: البت كانت حلوة يا شافي، وكأن ثعبانا قرصه، انتفض عبد الشافي وقبض عضوه من جديد، أأأأأعععه، مكنة ألماني يا عمو انما ايه، يخرب بيت كده. تركنا عبد الشافي وتوجه إلى مجدي ودخلا الغرفة وأقفلا الباب. قال لي ياسر كل يوم الموال نفسه، ومجدي كان يروح معاه المشوار ده قبل كده، ويرجع مكتئب، مجدي قاعد هنا لنفس السبب، واحدة من السواح تخطفه وتطير بيه على بلدها، لكن واضح إن مجدي يأس من

اللعبة دي فبطل يروح، إنما عبد الشافي لسه مصمم.

بعد قليل بدأ الأطباء يتوافدون، ثم ظهر صبحي الطباخ بلباس المخبرين وصينية الطعام الكبيرة. وأخذ كل واحد من الزملاء نصيبه من صينية صبحي في كيس بلاستيك، ثم اختفوا جميعا بعد حوار قصير حول عيادة الأسنان الخاصة التي يجهزها واحد من الزملاء في قلب المدينة. سألت ياسر عن قلب المدينة فأنكر وجود قلب للمدينة، وأنكر وجود المدينة من أصله.

في اليوم التالي خرجت أنا وياسر وقضينا النهار كله على الخليج المواجه للمستشفى. سألته عن الأطباء الموجودين هنا، قال إن لكل واحد منهم هدف عبيط، ومنهم من يراهن على المستقبل مؤكدا لنفسه أن «شارم» لن تظل على هذا الوضع البائس وأمامها مستقبل وعلى من يريد أن يحجز مكانه من الآن. قلت وعبد الرءوف، قال ماله، قلت ما هي حكايته؟ قال عبد الرءوف حكايته حكاية عجب، قلت احكي، قال عبد الرءوف كان طبيب مقيم جراحة عامة في إسكندرية، وكان في طليعة الوافدين على شارم بعد مفاوضات السلام، ووزعت عليهم الدولة شققا على سبيل الإغراء بالبقاء، وكان من نصيب عبد الرءوف شقة محترمة في مكان مميز. وقضى عبد الرءوف أربعة أعوام متصلة في شارم لم يقطعها بأجازة واحدة، ثم نزل إلى بلدهم وتزوج، وعاد بزوجته معه ولم يغادرا شارم منذ ثلاث سنوات أو يزيد. خلال هذه الفترة وزعت عليهم الدولة قطع أرض بسعر رخيص وبالتقسيط فاشترى قطعة من هذه القطع، وعندما بدأ سوق السياحة ينتعش قليلا قام بتأجير الشقة

التي أعطتها له الدولة لشركة مصر للسياحة بمبلغ كبير، وأقام سورا حول قطعة الأرض التي اشتراها، وبني فيها كشكا خشبيا يقيم فيه هو وزوجته. وفي هذا الكشك أنجبت زوجته طفلته الوحيدة، التي جاءت إلى الدنيا مصابة باعوجاج في القدمين يحتاج إلى تصليح، وهو ما لم يفكر فيه رءوف إلى الآن. قلت له من أين لك كل هذه المعلومات ولم يمض على وجودك هنا وقت طويل، فقال إن هناك من تطوع وقص عليه هذه الحكايات مثلما يفعل هو معي الآن.

بدأت أشعر بالجوع، ودعوته إلى الغداء فاعتذر، وقال إنه سيتناول الغداء في موفينبك لأن موعد عمله قد اقترب ومن حقه تناول الغذاء هناك. توجهت أنا إلى ما يسمى بالسوق، تناولت الغذاء في نفس المطعم الذي أكلت فيه بالأمس، وعدت إلى سكن الأطباء، كان ياسر قد ذهب. نمت وصحوت بعد الساعة الخامسة. وبعد أن شربت الشاي على الكنبة المعتادة، عدت إلى الغرفة وأخرجت كراسة كنت قد أحضرتها معي لكي أستخدمها في مذاكرة اللغة الفرنسية، وبدأت أنقل الكلام المكتوب على الجدران.

بدأت من المربع السفلي الأيسر، وهو المربع الذي لم أكن قرأت ما تم تدوينه عليه من قبل. اقتباس شعري من محمود درويش، رجحت أن مصدره هو الدكتور ياسر زين الدين، وهو غير ياسر أخصائي الجلدية، لكن بخط شخص آخر يبدو أن زين الدين تلاه عليه فأعجبه ومن ثم قام بتدوينه، وتحته مقال طويل باللغة الإنجليزية:

They said to me Sharm is a very nice place. then I fight to come here. I arrived to Sharm and I found out dirty place and crazy people with the exception of my friend Dr.Yasser who finished 6 months here and if he stays more his mind will be fucked.

From the crazy people I met, there is one said that he is the prophet Mousa and god spoke to him when he was over mousa mountain. Carefully you will find how time fucked his mind, but he is a very good doctor and every thing. The other one you will met is a secret try to find him out by your self.

Do you think I am crazy, actually I want to escape very soon before being crazy.

It is another day and I will tell you again that they said to me Sharm is a very nice place, may be, but we are sleeping in a public room and, as you know, the path is public too. While you are tacking your path you will found another one pushing the door and simply he wants to tack a path too.

ثم أضاف نفس الخط باللغة العربية:

في النهاية لم يعد لي في هذا المكان التعس سوى ساعات قليلة، ويبدو أن الأقدار قد شاءت أن أحيا في هذا الحجرة البائسة ثلاثة أيام متصلة بسبب العواصف والأتربة والجو الممطر. لكني أدرك الآن أن القدر لا علاقة له بذلك لكنها وزارة الصحة التي تطاردني أينما ذهبت حتى في جنوب سيناء. تريد أن تحبسني في هذه الغرفة الحقيرة التي يطلقون عليها سكن الأطباء. إن الحكومة تريد أن تكسر أجنحتنا المهيضة بهذه التصرفات غير المسئولة فترسل علينا الأمطار والزعابيب، وهناك زميل بالغرفة يهمس في أذني الآن ويقول إن الحكومة معرصة. فهل هي حقا معرصة ؟ أنا لا أصدقه، وإن كنت أريد أن أصدقه. لقد جلست كثيرا على خوازيق الحكومة والحق أقول إنها خوازيق مريحة جدا، ألست معي في هذا ؟ ومعنى ذلك ببساطة أن الحكومة سليمة وأنا اللي معرص.

د. محمد فاروق علي

أخصائي جراحة عامة

١٩٩٣/٢/٣

لا أعرف كم مضى لي من الوقت وأنا مستغرق في نقل كتابات الجدران إلى كراستي، لكن الباب دفع فجأة ودخل ياسر أخصائي الجلدية:

ـ بتعمل إيه

لم يكن هناك وسيلة لإنكار ما أفعل فقلت: عجبتني الكتابة اللي على الحيطان قلت أنقلها وأحتفظ بيها للذكرى.

- الظاهر الواد عبد الشافي عنده حق

- حق في إيه؟

- انك جاي وجايب البي تي اس بتاعك معاك

- قلت صحيح ايه حكاية البي تي اس

- اختصار للـ (بوست تيينل سيندروم)

- قلت عارف انه اختصار للسيندروم، أنا بسأل عن السيندروم نفسه

- قال يعني حاجة شبه اللي انت بتعمله دلوقتي

- قلت ازاي يعني؟

- قال يعني تكتئب وتكتب ع الحيطان، أو تبقى زي رءوف، كده يعني

وعلى فكرة سيبك من الكلام دلوقتي، احنا معزومين ع العشاء فوق يلا قوم إلبس

- قلت ما حدش عزمني

- قال هم قالولي أبلغك وأنا نسيت وأديني افتكرت، يلا بقى

لبست ثيابي وتوجهت مع ياسر إلى فوق. كانت هناك مجموعة من

البيوت الواطئة، بنايات قوية، غالبا من بقايا الاحتلال. في الطابق الأخير من أحد هذه البنايات السكن الرسمي للأطباء. كان عشاء عاديا، تخلله الكثير من الدعابات وبعض السخافات المعتادة، وبدا أن المجموعة التي تقيم في السكن لا هي متوافقة ولا هي متنافرة، حالة ما، حالة من التماس، من التعامل الخارجي الحريص جدا على عدم التعمق، عدم الارتباط. أو ممكن تكون مجرد حالة من التعايش بين مجموعة من البشر، كل واحد منهم فرض على الآخر، دون مساحة ولو صغيرة للاختيار.

مر اليوم التالي دون أن يدخل عيادة المستشفى مريض واحد، وكان آخر من دخلها ذلك العامل التعيس الذي سقط في برميل الزفت الساخن قبل ثلاثة أيام. بعد نصف ساعة قضيتها في العيادة، تسللت إلى الزنزانة واستأنفت مهمتي المقدسة في نقل كتابة الجدران.

وفي اليوم السادس سمحوا لي بالعودة على أن أرجع مرة أخرى في نهاية الشهر. كان الخروج من المكان بعد ستة أيام كاملة لم أغادر فيها المثلث المحصور بين المستشفى والهضبة والخليج إلا مرتين، واحدة لخليج نعمة صباحا، والثانية لخليج نعمة أيضا لكن في المساء. والمتعة الوحيدة التي حصلتها هي الطريق، بجباله الملونة البديعة نهارا، والخليج الفيروزي الذي يختفي ثم يظهر في الوقت المناسب تماما، والسماء المنجمة ليلا. ومع انطلاق أحلام اليقظة إلى ما وراء الأبيض المتوسط تكتمل متعة السفر. ولأن الرحلة طويلة فلا مانع من التفكير في هؤلاء البشر الذين تركتهم خلفي، وفي الـ(بي تي اس). منذ

عشر سنوات تقريبا كنا ابتكرنا مصطلح الـ جولف سيندروم (أعراض خليجية) خصيصا من أجل الزميلات اللاتي حصلن على الثانوية العامة من إحدى دول الخليج. وكانت الأعراض الخليجية هذه تتمثل في الأناقة المبالغ فيها، المكياج الثقيل كأنه قناع، تدخين السجائر في حمام الكلية، والرغبة الشديدة في إقامة علاقات مع من هم أكبر عمرا كبديل عن الأب الغائب. فماذا يمكن أن تكون (أعراض ما بعد النفق) سوى شخص انطوائي، لا يرحب بالغرباء، لديه هاجس أو وسواس الخروج من البلد كلها، ولديه رغبة شديدة في جمع أكبر قدر ممكن من الفلوس كتعويض عن الغربة.

قضيت ثلاثة أسابيع في القاهرة وعدت إلى شارم. وصلتها في نفس الموعد الذي وصلت فيه في المرة الأولى، كانت المباراة اليومية في كرة القدم على وشك الانتهاء. وضعت حقيبتي على نفس السرير الأيمن العلوي الذي كان ما يزال شاغرا. ذهبت مع ياسر إلى المنتزه المقابل للمستشفى، شربنا شاي ودخنا الشيشة، ورجعنا. أثناء الجلسة حكى لي ياسر عن زيارته هو ومجموعة من الزملاء إلى دير سانت كاترين، وصعودهم إلى جبل موسى ليلا لمشاهدة شروق الشمس الذي لا مثيل له، حيث تشرق الشمس من أسفل وليس من أعلى.

في الصباح وأنا لا أزال في سريري أكاد ألامس السقف، وياسر جالس على سريره يحكي لواحد من الزملاء عن رحلة سانت كاترين وشروق الشمس من تحت قدميه، وإذا بالباب يدفع بعنف، ويدخل عبد الرءوف، بنفس الثياب المهلهلة التي رأيته فيها أول مرة، وبنفس شبشب

زيكو الأزرق المتآكل، والنظارة الطبية المجنزرة، ويبدو أنه كان واقفا وراء الباب يتنصت لما يقال في غيبته لأنه بمجرد أن فتح الباب، وقف بطريقة مسرحية ودون أن يدخل، ووجه كلامه لياسر: شمس ايه اللي بتطلع من تحت الرجلين يا معلم، انت ما شفتش اللي حصل معايا لما رحت هناك

ـ حصلك إيه يا رءوف

ـ أنا بمجرد ما حطيت رجلي اليمين ع أول الجبل، ورفع رءوف قدمه اليمنى من على الأرض وتركها معلقة في الهواء، سمعت صوت عظيم بيقولي يا رءوف أنا بصراحة اتفزعت، وبصيت حواليا اشوف مين اللي بينده عليا ما لقيتش حد، قمت حطيت رجلي اليمين على أول الجبل، وأنزل رءوف قدمه اليمنى المعلقة إلى أرض الغرفة المبلطة، ثم قال: وبمجرد أن رفعت رجلي الشمال عشان أطلع ع الجبل، ورفع رءوف رجله الشمال عن الأرض وتركها معلقة، سمعت نفس الصوت العظيم بيقولي يا رءوف،، وقفت مكاني ورجلي الشمال في الهوا، ثم أكمل الصوت العظيم يا جماعة، هنا تأثر صوت رءوف بشده كأنه سيبكي، يا رءوف اخلع نعليك. هنا أنزل رءوف رجله الشمال، وانحنى على الأرض وخلع شبشب زيكو المتآكل من قدميه، وضمهما معا ووضعهما تحت إبطه، ثم أعطانا ظهره في هدوء، واختفى.

لم يكن بمقدور أي منا أن يضحك، وإن كانت هناك ابتسامة مرة معلقة على كل الشفاه، حتى شفاه الذين سمعوا منه هذه الحكاية نفسها

من قبل عدة مرات. وقطع أحد الزملاء الصمت قائلا: يا جماعة لازم يكون فيه حل ما ينفعش نسيب الراجل ده كده.

قضيت أربعة أيام أخرى في شارم لم تختلف عن سابقتها، وعدت إلى القاهرة من أجل امتحان المستوى الرابع للغة الفرنسية، وبعد ثلاثة أسابيع أخرى رجعت إلى شارم لإخلاء طرفي والحصول على خطاب يفيد أنني قضيت شهري المنطقة النائية ومن ثم صدور قرار الترقية. هذه المرة لم يكن هناك ياسر، كان قد عاد نهائيا إلى الزقازيق، ولم يكن هناك ما أريد أن أراه، فرجعت بما جئت إلى هنا من أجله.

بعد سبع سنوات من هذا التاريخ تقريبا، وفي ليلة من ذات الليالي، كنت جالسا لوحدي بغرفة التلفزيون الملحقة بسكن الأطباء بمستشفى الجهراء بالكويت، وإذا بطبيب آخر يدخل إلى الغرفة. عرفت فيه طبيب الأسنان الذي كان أثناء وجودي في شرم الشيخ يؤسس عيادة في قلب المدينة، وعرفني. ودار بيننا حديث قصير عرفت منه أن مشروع العيادة في قلب المدينة قد باء بالفشل، رغم الحيوية التي حطت على المدينة من كل الجهات، وأن مجدي قد عاد إلى الإسكندرية بعد ما جرى لعبد الرءوف، أما عبد الشافي فمازال مقيما في شرم وما زال لديه نفس حلم الزواج من سائحة أجنبية تنتشله من البلد كلها. سألته عما جرى لعبد الرءوف وجعل مجدي يغادر «شارم»، أجاب، بعد صمت قصير، وبشكل مقتضب جدا: عبد الرءوف جن تماما، فقلت له: الرجل كان مريضا بالفعل، قال: لا لقد جن رسميا، وجاءت عربة إسعاف من القاهرة وحملته معها إلى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية.

الشركة العربية للمقاولات

في تلك الأيام البعيدة، الأيام التي لم تكن شقق بيت الجيار تغلق فيها أبوابها إلا وقت النوم، تعودنا، نحن الصغار، أن نقضي النهارات، خاصة في الصيف، متنقلين من شقة إلى أخرى، كأننا ننتقل من غرفة إلى غرفة داخل الشقة نفسها. وكانت شقة عم إسماعيل التي يفصلها عن شقتنا جدار بطول الصالة، والباب في الباب، هي محطتي الصيفية اليومية بعد الإفطار مباشرة. ويبدو أنني وأمي ودون ترتيب أو قصد قسمنا اليوم: المساءات لها بصحبة خالتي أم محمد، في شقتهم وليس في شقتنا، بعد أن يغادر عم إسماعيل إلى عمله المسائي، يشربن الشاي ويوصلن أحاديث الصباح، التي لا تنتهي أبدا خلال رحلة ربات البيوت إلى سوق الخضار القريب، بنميمة المساء. والنهارات لي أقضيها غالبا بصحبة فتحي، الابن الثاني لعم إسماعيل، والذي يكبرني بعامين، في لعب الكرة الشراب باعتباره الحريف ومدربي الشخصي على كيفية حراسة مرمى الفريق، أو في بلكونتهم النظيفة جدا، والمليئة بقصاري الزرع واللباب، عكس بلكونتنا المحتلة بأسراب البط والفراخ، نلعب «الليدو» أو السلم والثعبان.

المهم، وفي أحيان كثيرة، كنت أدخل شقتهم متوجها إلى الصالون حيث يجلس محمد إلى مكتب، تمت إضافته إلى الصالون، وأمامه قطعة قماش سوداء يعمل عليها لوحات بديعة من قش الأرز. كنت أدخل دون كلام وأقف إلى الجهة الأخرى من المكتب مسندا رأسي إلى يدي الاثنين إتأمل أصابعه الطويلة جدا والمرنة جدا وهي تواصل عملها ببراعة ودقة مدهشة، وكان هو يلحظ وجودي دون كلام أيضا. لا أعرف من أين كان يأتي بهذا القش المختلف الأطوال ولا أعرف كيف كان يتم تلوينه بالذهبي البديع والأخضر الهندي والأحمر الطوبي، وهل كان هو من يقوم بتلوينه أم يشتريه هكذا ملونا جاهزا، ولا أذكر أنني سألته عن الطريقة أو المصدر. كان استغراقه الشديد فيما يفعل يملؤني بالرهبة فأقف صامتا وليس في رأسي سؤال واحد، فقط أستغرق معه فيما يفعل: بموس حلاقة قديم يشق أنبوب القش الطويل، ثم يعمد إلى فرده طوليا بالموس نفسه، فيصبح شريطا طويلا ملفوفا على نفسه، ثم يقص من هذا الشريط على قدر الجزء من الرسم المطبوع على القماشة السوداء ويلصقه بالنشاء، التي يكون قد صنعها في الصباح ووضعها في صحن معدني إلى جواره. كان يلصق القطعة إلى جوار أختها بمهارة شديدة. أما النتيجة النهائية للوحة فكانت شيئا لا يمكن تصديقه: كيف تمكن من تحويل هذا القش والنشاء إلى هذه اللوحة البديعة. كانت جدران بيتهم مليئة بأعداد كبيرة من هذه اللوحات ومن مختلف الأحجام والمواضيع، آيات قرآنية ضخمة بعضها كوفي متداخل الحروف وبعضها أندلسي مستقيم، طيور ملونة على كل شكل: ديكه وببغاوات وكناري، فلاحات

يحملن الجرار على رؤوسهن، خيول منطلقة ..... وكلها تشهد ببراعته الغير محدودة. حاولت تقليده مرات عديدة لكنني فشلت الفشل كله في عمل أي شيء له علاقة بالفن من أي نوع: لم تكن أصابعي بالرقة ولا بالدقة الكافية كي لا تكسر عود القش أثناء شقه، ولا بالمرونة الكافية كي تلصق قطعة القش المفرودة بعد معاناة إلى جوار أختها، وغالبا ما كنت أزهق من قلة حيلتي، فاكتفيت بالفرجة على محمد إسماعيل وهو يعمل لوحاته، واكتفيت بالفرجة على هذه اللوحات وهي ملعقة على الحائط الفاصل بين شقتينا.

كان محمد إسماعيل في سن أختي فريدة، وفتحي في سن أختي إيمان، وبين هذا الرباعي تنافس دراسي مكتوم. ودخل محمد كلية الهندسة مثل أخي الكبير، ودخلت فريدة كلية الطب، وتبعتها إيمان أما فتحي فقد دخل كلية الصيدلة. وكان من الطبيعي أن تكون علاقتي بفتحي أقوى من علاقتي بمحمد، فهو الأقرب سنا، وكابتن فريق الكرة الشراب الذي أحرس مرماه، لكنه ترك فريقنا، وانتقل إلى نادي العمال الرياضي لاعبا بالفريق الأول وهو في سن السادسة عشر، وبسرعة أصبح مطلوبا في فريق المنصورة الأول، لكن خالتي أم محمد رفضت مثل هذا الانتقال حرصا على مستقبله الدراسي. ثم تغلبت عليه ميوله الدينية في الوقت الذي غلبتني فيه نوازع أخرى، فأصبحت أكثر قربا إلى محمد، وقد دعم هذا التقارب الزمالة التي جمعته بأخي الكبير في كلية الهندسة. لكن ما جعل هذا التقارب يزداد ويتعمق وينفصل عن علاقته بأخي الكبير كان شيء آخر تماما. فقد حصل أثناء محنة دخول

كلية الطب والرغبة في الخروج منها أن أخذني أخي الكبير، وبصحبة محمد إسماعيل، لزيارة الكاتب والروائي «رضا البهات»، وقتها كان رضا طالبا بالسنة الثالثة بكلية الطب، يساريا ناشطا جدا، اعتقل في أحداث يناير ١٩٧٧ الشهيرة، وشاعرا أيضا. لم أكن أعرفه من قبل رغم أنه كان يسكن لوحدة بغرفة في الدور الأرضي بأحد البيوت المقابلة لبيتنا، وكان محمد من بين أصدقائه. لا أعرف التفاصيل التي كانت وراء تدبير هذا اللقاء، لكنه كان مدبرا، لكن نتائجه تجاوزت ما تم تدبيره. المهم، تركني أخي بصحبة رضا ومحمد في غرفة رضا، وبدا أن الموضوع عادي ويدخل في إطار التعارف بين شاعر في كلية الطب ومشروع شاعر آخر في الكلية نفسها. ثم تحول الموضوع إلى لماذا لا أريد أن أستمر في هذه الكلية. لم تكن أسبابي مقنعة، لكن منطق رضا كان: إذا كنت تريد أن تترك كلية الطب إلى كلية أخرى، فليكن، لكن بعد أن تنجح في سنتك الأولى بها، حتى لا يقول أحدهم إنك تركتها لأنك فشلت، وأنك أقل منها. لم يكن هذا الكلام جديدا تماما علي فقد سمعت مثله من قبل، لكن الطريقة التي قيل بها كانت حقا مؤثرة. وقعت كلمة «الفشل» على قلبي كما يلمس الكحول جرحا نازفا فينتفض المجروح من لسعة الكحول. واستطعت في وقت قصير إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ونجحت. ورغم أنني لم أنس أنني رغبت بشدة في هجران الطب قبل أن أبدأه، إلا أنني لم أمش خطوة واحدة في هذا الاتجاه. لكن النتيجة الأهم هي اكتشافي أن شباك غرفة رضا الوحيد يفتح على شارع سيدي عبد العزيز، وأنه بإمكاني أن أرى النور المنبعث

من شباكه الموارب ليلا، وقادني هذا الخيط الرفيع من الضوء، في ليال كثيرة، إلى اقتحام عزلته، دون موعد ودون استئذان، ولم يغلق هو بابه أبدا في وجهي حتى بعد أن انتقل لاستكمال دراسته في كلية طب بنها، التي انتقل إليها كثيرون غيره.

لا يمكن القول أن محمد كان يساريا، لكن جمعته ببعض اليساريين صداقة ما، بعضهم كان زميلا له بالملك الكامل الثانوية واستمرت الصداقة بينهم بالجامعة، وبعضهم تعرف عليهم في الجامعة. ومن جملة أصدقائه، محمد سراج الذي يسكن في آخر شارعنا، وعزت حِلة من قرية «كفر الباز» التي لا تبعد كثيرا عن المنصورة. كان هذا الثلاثي الذي يشترك في طول القامة، والوسامة، ودراسة الهندسة، لا يرى إلا مجتمعا، وغالبا كانت هذه العلاقة تربطهم من أيام ثانوي. وأحيانا كنت التقي أحدهم مصادفة عند رضا، أو اصطدم بأحدهم على السلم وهو في طريقه من، أو إلى، شقة خالتي أم محمد. لم يكن عزت مدخنا لكن محمد إسماعيل ومحمد سراج كانا مدخنين، وخلال سنوات الدراسة التالية، كنت وعبد الحكم سليمان حديثي العهد بالتدخين. وكان محمد إسماعيل قد تخرج، ودخل الجيش مجندا، وخلال أجازاته كان يقف في أحد مكانين، إما أمام «البيت العالي» من جهة شارع قناة السويس، أو أمام محل «شيكو» للملابس والأدوات الرياضية الكائن بسور نادي الناصرية الرياضي، والذي يبعد مائة متر تقريبا عن الموقع الأول في الشارع نفسه. وكلا الموقعين كان في طريق ذهابي اليومي إلى بيت عبد الحكم الكائن وراء مصنع الألبان الذي يقع في آخر قناة السويس،

وفي طريقنا معا إلى وسط المدينة، فكنا نمر على الباشمهندس محمد إسماعيل واقفا بأحد الموقعين، فينفح كل واحد منا سيجارة مولعة. سيجارة كليوباترا لكل واحد في الذهاب ومثلها في العودة. وطبعا كنا نفرح جدا بهذه النفحة، ونحبط إذا لم نجده في مكانه المعتاد. ولأن هذا قد حدث بالطريقة نفسها عشرات المرات أطلقنا عليه « الباشمهندس سجاير».

كان تجنيد المهندس سجاير بمنطقة الإسماعيلية، بالقرب من أبو صوير، وهي مسقط رأس عم إسماعيل. ويبدو أن محمد أعجب بواحدة من بنات عمته المقيمة بـ« أبو صوير». هذه البنت نفسها كانت تلعب معنا على بسطة السلم الممتدة أمام شقتينا، أثناء الإقامة الجبرية لهذه العمة وأولادها عند خالتي أم محمد في وقت التهجير الذي أعقب هزيمة ١٩٦٧ . ورفضت خالتي أم محمد بشدة مثل هذا الارتباط بحجة أن الوقت مازال مبكرا وعليه أن يكون نفسه أولا. وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها كلمة « يكوّن نفسه» والتي أصبحت كلمة شائعة جدا في السنوات التالية قبل أن تحل محلها كلمات أخرى من النوع نفسه.

انتهت خدمة محمد إسماعيل العسكرية، ولم ينجح في الحصول على عمل مناسب رغم الوساطات العديدة التي جرى وراءها للعمل بشركة «المقاولون العرب». ولم يكن حال رفيقيه مختلفا، فحمل الثلاثي طويل القامة حقائبه ورحل باتجاه العراق التي كانت قد فتحت ذراعيها لشباب مصر الباحث عن «فرصة « يكوّن بها نفسه!! ثلاث

سنوات متصلة لم نجد فيها من يمنحنا سجائره الكليوباترا عن طيب خاطر.

ومثلما رحلوا معا فجأة، عادوا فجأة. لم أدر برجوع محمد إسماعيل ورفيقيه من العراق إلا عندما وجدته واقفا أمام البيت العالي يدخن مع أصدقاء قدامى له، كأن ثلاث سنوات لم تمر. وعلى جلسات متفرقة عرفت من محمد إسماعيل أنهم نجحوا في الحصول على وظائف حكومية جيدة بالعراق، وبعد عامين من العمل جمعوا حفنة كبيرة من الدنانير العراقية. وكانت الحرب العراقية الإيرانية مشتعلة، فقرر الثلاثي أن يترك العمل الحكومي وأن يفتتحوا شركة مقاولات هناك آملين أن يكون الوضع في صالحهم. لكن الحرب مالت لصالح إيران، فخسر الثلاثي طويل القامة في عام واحد كل ما جمعوه معا في عامين، وعادوا من العراق مثلما ذهبوا.

وبعد عام كامل من الوقوف على النواصي والقعود أمام محل شيكو، والبحث عن «عقد عمل» جديد في بلد عربي آخر، نجح الثلاثي معا في الحصول على عقود عمل في شركة واحدة بالمملكة العربية السعودية. وبعد عامين آخرين متصلين بالمملكة، عادوا معا لكن هذه المرة كان بحوزتهم حفنة كبيرة من الريالات السعودية، أسسوا بها « الشركة العربية للمقاولات». وتزوج محمد سراج من ابنة خالته، وتزوج عزت من واحدة بلدياته، أما محمد إسماعيل فقد فشل في إقناع خالتي أم محمد بأنه قد كون نفسه، وأن عليه أن يكمل نصف دينه، فبقي دون زواج. ورغم ذلك بدا أن الأمور تسير بشكل جيد، فسوق المقاولات في

مصر «عطشان»، وأسعار أراضي البناء في ارتفاع مستمر، والمشاريع الإنشائية، الأهلي منها والحكومي، على قفا من يشيل.

بعد عامين من افتتاح الشركة، وربما أكثر قليلا، رزق خلالها كل من عزت وسراج بطفل، وبدون مقدمات، أدخل عزت إلى العناية المركزة بمستشفى المنصورة الجامعي في أحد الليالي، مصابا بذبحة صدرية شديدة، وقبل أن يطلع نور الصبح كان قد فارق الحياة. كانت «كفر الباز» كلها واقفة أمام المستشفى، وكان الخبر صاعقا: عزت ذبحة صدرية إزاي، ده عمره ما شرب سيجارة، عزت ذبحة إيه يا جماعة ده لسه ما جبش الخمسة وثلاثين، لازم فيه حاجة غلط، أكيد الدكاترة سعرفوش يشخصوا عنده إيه، فقالوا ذبحة وسابوه يموت. ما الذي جرى في الدنيا لكي يموت الناس في عز شبابهم بالذبحة الصدرية، وما هو مستقبل الولد الذي تركه عزت على صدر أمه، وقبل أن يوارى جسده التراب، قرر الحكماء أن تسحب أرملته نصيبه من الشركة وأن تضعه وديعة في البنك باسم الولد تأمينا لمستقبله المجهول.

تم تنفيذ القرار الذي أثر سلبيا بالضرورة على الشركة الناشئة، لكنها استمرت في العمل في مواجهة الظرف الداخلي المتمثل في قلة رأس المال، والظرف الخارجي المتمثل في تذبذب سوق المقاولات. واضطر محمد إسماعيل إلى بيع سيارته لمواجهة الموقف. وصرف النظر عن الزواج، خاصة بعد أن تزوجت أخته الوحيدة وأنجبت طفلا أصبح تسلية محمد وأصبح محمد تسليته. في هذه الآونة كان أخي الكبير قد عاد من البعثة حاصلا على درجة الدكتوراه في الهندسة الإنشائية، وعين

مدرسا بكلية الهندسة، وبدأ في التعاون مع الشركة العربية للمقاولات. لكن هذا التعاون لم يكن كافيا لدفع الشركة المتعثرة، والتي تضاعفت معاناتها بعد أن هاجمت اللوكيميا محمد سراج، فسحب من رصيده في الشركة لمواجهة أعباء العلاج الضخمة. كان سراج قد انتقل للسكنى بمنطقة «توريل الجديدة»، خلف مدرسة الملك الكامل بالقرب من مقر الشركة، ولم أعلم بمرضه إلا من رضا الذي اصطحبني لزيارته فأذهلني نحوله الشديد، وانطفاء اللمعة الرائعة بعينيه الخضراوين. لم أتكلم تقريبا خلال الزيارة التي لم تطل، لكني في طريق العودة قلت لرضا: لماذا تسكن اللوكيميا في شارعنا؟ فقال اللوكيميا تسكن في البلد كلها، وأضاف: هل تعرف آخرين من شارعنا أصابهم هذا المرض، قلت أعرف اثنين وسراج ثالثهم، ولم أذكر له واحدا بعينه، فكلاهما كان زميلا لي بالكلية نفسها، واحد منهما مات أثناء الدراسة، والثاني فقدناه في سنة الامتياز، عقب شفاء قصير من المرض. وبعد عام طويل، وكنت خارجا من باب شقتنا وجدت سراج واقفا قدام باب شقة خالتي أم محمد، نفس الوقفة التي عمرها أكثر من خمسة عشر عاما، سلمت عليه وسلم علي بود شديد. كان قد استعاد جزءا كبيرا من حيويته، لكنه لم يستعد البريق الرائع الذي كان في عينيه.

شفي سراج من اللوكيميا، وبدأت الشركة تقف على رجليها من جديد، وأنجبت زوجة سراج طفلة أخرى فأصبح أبا لطفلتين. وقبل أن تكمل الصغيرة الجديدة عامها الأول، تخلت كرات الدم البيضاء عن الهدنة الخادعة، وعادت إلى تكاثرها السريع والهجوم مرة أخرى. لم

ينج كثيرون من هذا الهجوم الثاني، ولم يكن سراج من بينهم. أسابيع قليلة وبات سراج في صحبة عزت، وأصبح محمد إسماعيل وحيدا تماما.

كانت الشقق قد أغلقت أبوابها، ولم نكتسب عادة الطرق على الأبواب، فتركنا اللقاءات للصدف السعيدة أو التعيسة على حدا سواء. وفي المرات القليلة جدا التي دخلت فيها الشقة المجاورة فاتني أن ألاحظ غياب لوحات القش عن الجدران، وأن الجدران أصبحت عارية تماما وشاحبة جدا. وفي لحظة استعادة تنبهت، وقلت لنفسي سوف أسأل محمد عن اللوحات عندما أراه. وسألته فقال إنه لا يعرف أين ذهبت اللوحات، وقال إنه أثناء غيابه في العراق أو في السعودية، لم يعد يذكر، جمعها فتحي من على الجدران، وربما يكون رماها في الزبالة، أو أخفاها في مكان ما، وأن هذا لم يعد يعنيه، المهم أن اللوحات اختفت وأن زمن الرسم قد ولى.

سافرت إلى فرنسا ورجعت، وكان محمد كما هو، يعيش مع أمه، لم يتزوج، وليس لديه مشاريع للزواج. الشركة العربية للمقاولات تكاد تكون حبرا على ورق، فقط عملية واحدة ووحيدة لترميم «دار ابن لقمان» ومتحف المنصورة الهزيل.

سافرت إلى الكويت ورجعت، وسافرت ورجعت ومحمد كما هو، يدخن الكليوباترا، ويلقط رزقه القليل من هنا وهناك، ويقضي الأيام في غرفته وحيدا. وفي واحدة من زياراتي السنوية، كنا في آخر رمضان،

وصلت المطار فجرا، وفي الظهر زرت أمي، لمحت خالتي أم محمد عائدة لوحدها من السوق ولمحتني. حيتني من بعيد بنظرة حانية من عينيها الضيقتين. قبل المغرب بقليل رن جرس التليفون، كانت أمي، قالت لي: محمد إسماعيل عرف إنك موجود ويريد أن يراك ضروري وبسرعة، قلت سآتي بعد الإفطار. ورحت لأمي، قبل أن أدخل إلى شقتنا القديمة طرقت الباب المجاور، ظهر لي محمد أخذني بالحضن وقال إنه سوف يلحقني عندنا.

جلست في الكرسي الأسيوطي الذي لم يفارق موقعه، تحت الشباك، منذ ثلاثين عاما وجلس هو قبالتي، ظهره للحائط الفاصل بين حجرته وحجرتي القديمة، وفوق رأسه شهادات الطب التي تراكم عليها التراب. كان معه ظرف أصفر كبير من ذلك النوع الذي توضع فيه الأشعة. عزمت عليه بسيجارة، فقال إنه توقف عن التدخين منذ شهرين أو ثلاثة، قلت هايل، ياريت الواحد يقدر يبطل. قال: هذا هو الموضوع، قلت كيف، قال: القصة بدأت منذ شهور ثلاث وبصعوبة مفاجئة في البلع، كان الأكل، أي أكل، يقف في زوره، لا يريد أن ينزل إلى معدته ولا يستطيع أن يتقيأه. تحسن الموقف قليلا مع العلاج، لكن هاجمه سعال عنيف لا يتوقف، مصحوبا بصعوبة في التنفس، وأصبح غير قادر على التدخين فتوقف، لكن الكحة لم تتوقف. فراجع طبيبا للأمراض الصدرية، أعطاه علاجا وطلب منه أشعة على الصدر. تحسنت الكحة وأصبح بمقدوره أن ينام. وراجع الطبيب مرة أخرى بالأشعة، فطلب منه أشعة بالموجات فوق الصوتية على البطن، لماذا على البطن

والمشكلة في صدره؟ قلت وماذا بعد، قال بعد التصوير بالموجات، طلب الطبيب مسحا ذريا للعظام، وأن موعد هذا المسح بعد العيد. تناولت منه الظرف وأنا مرعوب، القصة مفهومة. طالعت صورة أشعة الصدر كان بالرئة اليسرى عدد من الأورام وليس ورما واحدا، مع اتساع بالمنطقة الوسطى للصدر ناتج عن انتقال المرض إلى الغدد الليمفاوية التي تحيط بالقصبة الهوائية والمريء ضاغطة عليهما، وهذا هو ما سبب صعوبة في البلع في البداية، وهذا يعني أن القصة بدأت من الآخر. ثم طالعت التصوير بالموجات الصوتية، كان الكبد مقرا لأربعة أو خمسة أورام ثانوية كبيرة. لم أدر ما الذي يمكن أن أقوله، وبان على وجهي هذا الخليط من الارتباك والانقباض. قال إنه يعرف كل شيء، فقد سبق وأخبره الطبيب المعالج، لكنه يسأل هل هناك أمل أم لا. قلت، في محاولة لكسب الوقت، بعد المسح الذري للعظام سوف تتضح الصورة النهائية، ووقتها يمكن الحديث عن الأمل. واتفقنا أن نلتقي بعد العيد ليطلعني على صور المسح، وطلب مني أن يظل هذا الحديث سرا بيننا، لأن أمه لا تعرف وهو لا يريد لها أن تعرف.

كانت أمي نائمة كعادتها بعد إفطار رمضان، وستظل نائمة هكذا إلى وقت السحور. عدت إلى كرسي المعتاد، وسرحت. وقبل أن أغرق في تأملاتي الخاصة عن الشبان الثلاثة، طوال القامة، وأستعيد صورهم، وأسأل نفسي عن لغز هذه «الشركة العربية للمقاولات»، عن تلاقي الأرواح، عن ذلك الشيء السحري الذي ربط بينهم بقوة لسنوات طويلة: هل هي محبة الحياة، أم فتنة الموت المبكر. استيقظت أمي،

ودخلت الغرفة وجلست في موضعها المعتاد على السرير المقابل للكرسي

وقالت: خير، ماله محمد، كان عاوزك في إيه؟

قلت : يعني، صدره تعبان شويه

قالت : من شرب الزفت إللي بتحرقوه كل يوم، ما تبطل يبني الدخان بقى

قلت : حاضر، إنشاء الله

قالت : بس كده ولا في حاجة تانية وانت مش عاوز تقول

قلت : بس كده مافيش لا حاجة تانية ولا ثلاثة

قالت : وشك بيقول غير كده، لكن أهوه، الغلبان ما يشبعش غلب

قلت : في إيه؟

قالت : أمه صعبة، وإخواته أصعب

قلت : إيه اللي حصل

قالت : انت عارف إن فتحي وعماد (الأخ الأصغر) وجوز أختهم بقالهم في السعودية سنين، وكان محمد اشترى لهم حتة أرض في مكان كويس ورا السوق.

قلت : عارف النص الأولاني، لكن ماعرفش حكاية الأرض دي، وبعدين

قالت : اتفقوا يبنوها سوى، وإن محمد يبنيها لهم

قلت : كويس

قالت : وطلعت عينه يا حبة عيني في البنا والتشطيب لكل واحد من الثلاثة شقة دور بحاله، ولما طلب منهم يبني لنفسه شقة معاهم رفضوا الثلاثة بحجة إن مالوش في الأرض، مش كده وبس لأ وكمان سرقوه، وقالوا كلام كثير حوالين تكاليف البنا، وإنهم لو كانوا جابو واحد غريب ما كانش ضحك عليهم زي ما هو عمل، ووقعوا في بعض، وجرى ما جرى، ولسه من يومها متخاصمين لغاية دلوقتي، ما فيش غير قمورة (الأخت الوحيدة) هيه اللي بتكلمه.

قلت : وأمهم فين في الوقعة دي

قالت : يببه، أمهم ألعن

قلت : يا شيخه

قالت : والنبي زي ما بقولك كده

قلت : إزاي

قالت : كانت مع إخواته عليه

قلت : يا شيخة، أم محمد

قالت : وأقولها حرام عليك مش كده، محمد ما يسرقش إخواته، إنما انت عارف طول عمرها دماغها ناشفه، وصوتها من دماغها.

قلت : وبعدين

قالت : واللي زاد وغطى لما وقع في بنت من جوه الكفر، بيقولوا مشيها مش كويس، وكان عاوز يتجوزها

قلت : إيه اللي حصل

قالت : وقفت له، وقالت له لا أنت ابن بطني، ولا أنا أعرفك، وطردته من البيت

قلت : في العمر ده، دا ما لهاش غيره دلوقتي بعد التانين ما سافروا

قالت : تقول إيه بقى، دي رمت له هدومه ع السلم

ولولا تدخل خالاته وأخواله ما كانتش رجعته البيت تاني

قلت : يا خبر كل ده، دا عمر ما حد سمع بيهم ولا سمع لهم حس

قالت : وهي برضه بتقول كده، على آخر الزمن وبعد العمر ده كله يقع الوقعة دي ويفضحهم.

قلت : وبعدين

قالت: بيقولوا لسه البت دايره وراه؛ لكن أمه حالفة لو عملها ليكون آخر ما بينه وبينهم

قلت : للدرجة دي، هي مش عاوزاه يجوز أصلا، فاكره بنت عمته، والبنت قريبة جوز خالته، وغيرها، برضه عملت نفس القصص والأفلام دي

قالت : لا، المرة دي أكثر، أنا عمري ما شفتها بالشدة دي، ولغاية دلوقتي ما بتكلموش، وبتحط له الأكل زي ما تكون بتحطه لكلب على قد قولها

قلت : خلاص يا ستي قوليلها تعامله كويس اليومين دول، و إنه لا هيتجوز دي ولا غيرها، ومش هيخش دنيا من أصله

قالت : يا واد حرام عليك، بتقول كده ليه

قلت : هي دي الحقيقة، يدوب شهرين ولا حاجة ويحصل أصحابه

قالت : أصحابه مين؟

قلت : عزت وسراج

قالت : ألف رحمة ونور عليهم، الشر بره وبعيد

قلت : لأ الشر قريب جدا، وجايز ما يكونش شر، أهو يرتاح

قالت : مش قلتلك مخبي على حاجة

فقلت لها الحكاية، وطلبت منها ألا تقول لأمه لأنه لا يريد لها أن تعرف، فقالت إنها لن تقول، لكن المفروض أن تعرف.

بعد العيد بيومين خضع محمد للمسح الذري، واتصلت بي أمي لتخبرني من جديد أن محمد يريد إن يراني. وحضرت، وأطلعني على صور وتقرير المسح الذري. وطوال سنوات خبرتي الخمسة عشر لم أر مثل ما رأيت، لم تكن في عظامه، ولا في فقرات ظهره فقرة واحدة

لم ينتشر إليها المرض الخبيث. كان ذهولي أشد، وصدمتي أعنف من المرة الأولى. ونحن في لحظة الحقيقة، ماذا أقول له. فنجدني هو قائلا إنه يريد أن يعرف كل شيء بصراحة لأن عليه ديونا لابد أن يسددها، وأن لديه عقدا للعمل بالسعودية من أجل سداد هذه الديون. قلت له لا تذهب إلى السعودية، قال لماذا ألا يوجد علاج هناك، قلت: فات وقت العلاج، قال ألا يوجد أمل، قلت مع الأسف ليس هناك أمل. قال يعني خلاص، قلت تقريبا.

لم تكن خالتي علية، بطولها الفارع ونحولها الخالي من التفاصيل الأنثوية المعتادة، تصلح لارتداء سروال من الحرير أو الشيفون المشقوق بطول الساق ولا الصدرية التي تخرض النهود الكبيرة المخنوقة على الفرار كما يليق بأيقونة الحكايات "شهرزاد". كان العثور على من تلعب هذا الدور أصعب كثيرا من تصور حائط ينشق، وتخرج منه صبية مليحة تكلم السمك الملون الموضوع على النار وتؤشر عليه بسيخ معدني فيتفحم في التو واللحظة، وفاء منه لعهد غير مفهوم قطعه على نفسه. كيف يمكن تعيين امرأة لها هذا الخيال - الذي يأخذك من يدك ويتركك غارقا في حكاية، خرجت من حكاية، لتدخلك في حكاية - في شكل محدد.

